الدكتور مصطفى النشار
أستاذ الفلسفة
بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

ضد العولمة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
٢٠٠١م

الناشـــر
دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

الكتـــاب : ضد العولمة

المؤلـــف : د. مصطفى النشار

رقم الإيداع: ٩٨/١٤٨٠٤

الترقيم الدولى : ISBN
977-303-060-1

تاريخ النشر : ٢٠٠١م

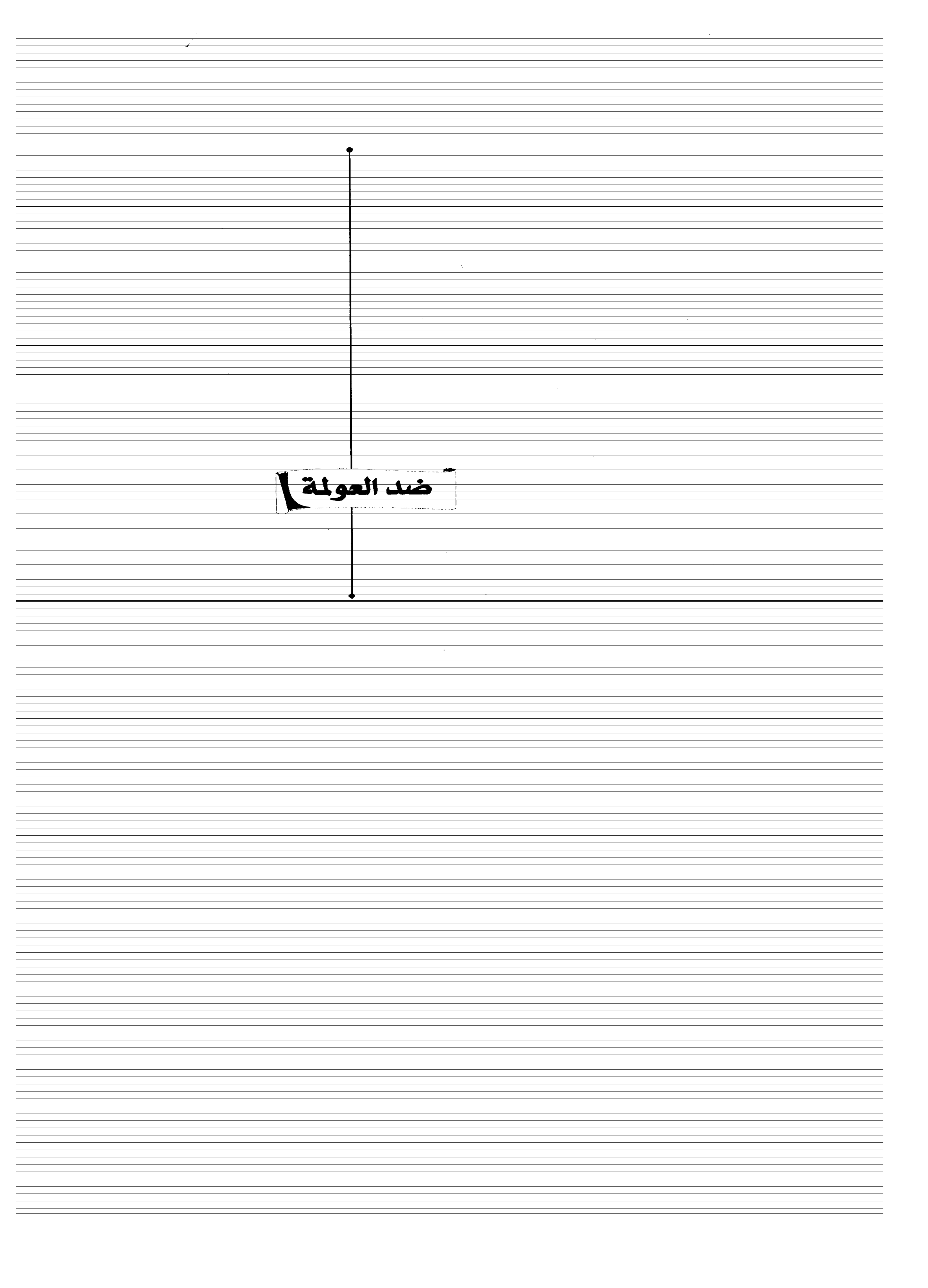
الناشـــر : دار قباء
للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :
٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
☎ ٦٣٦٢٥٦٢ — فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

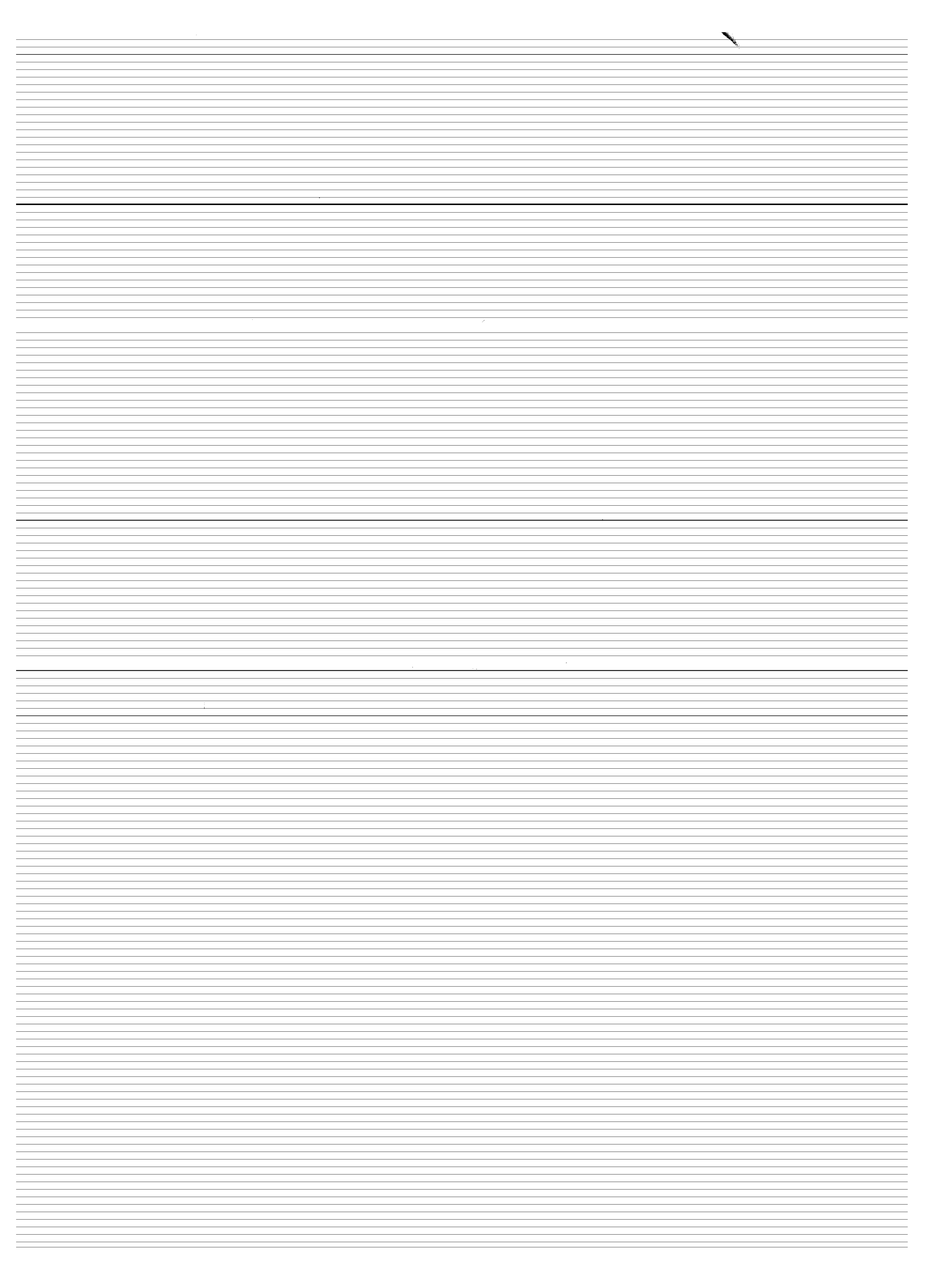
المكتبة :
١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

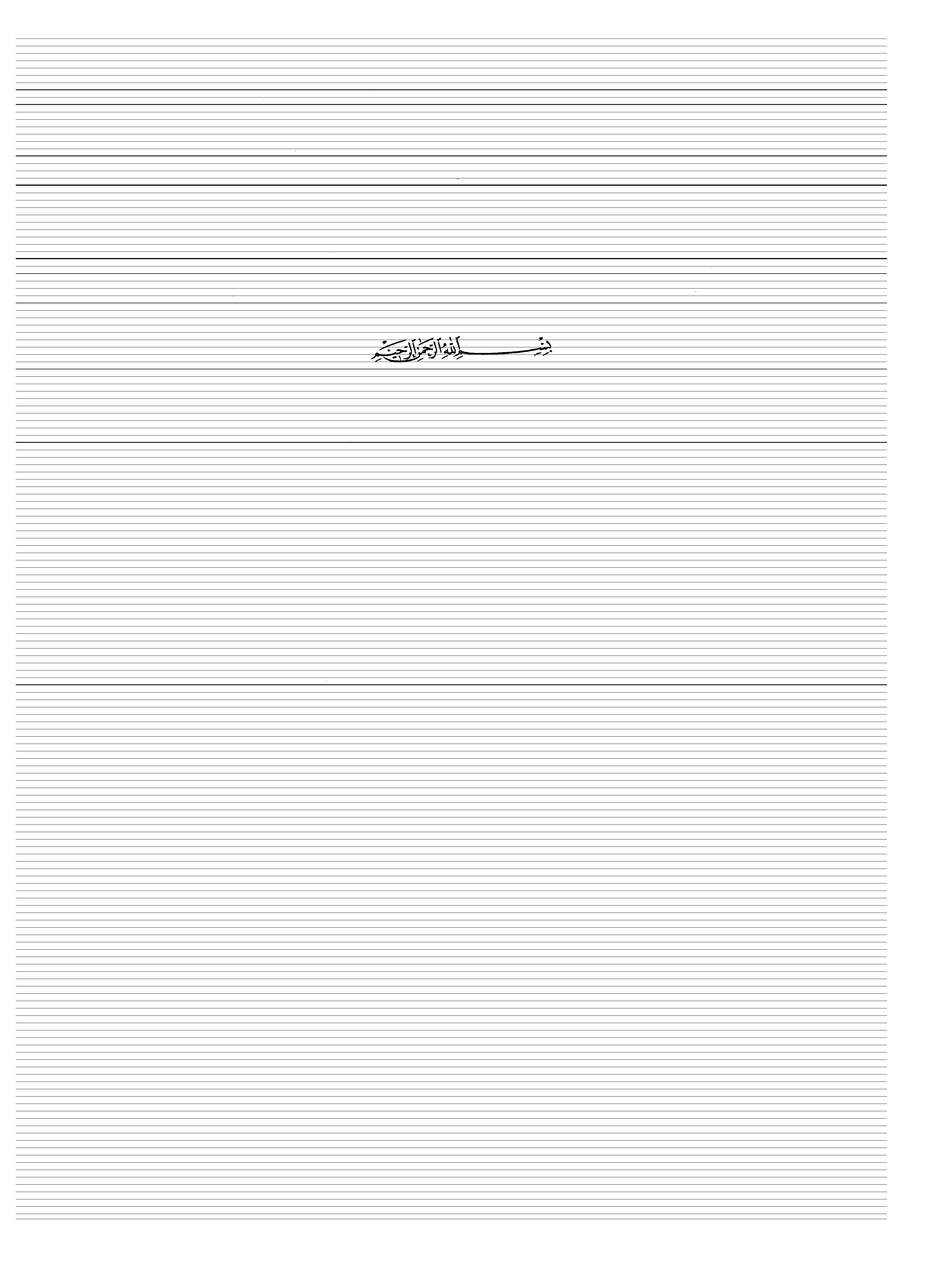
المطابع :
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

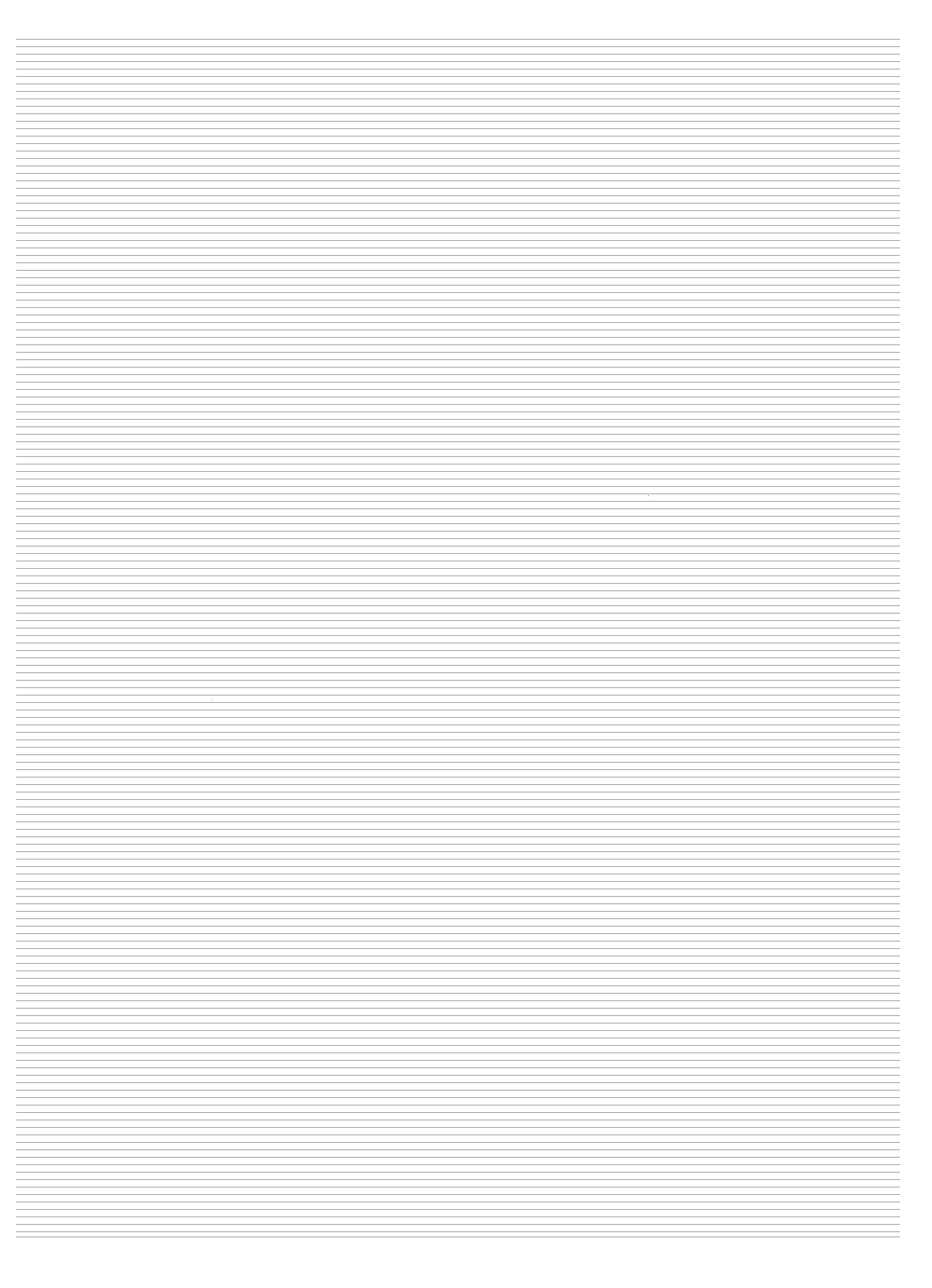
www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com



ضد العولمة



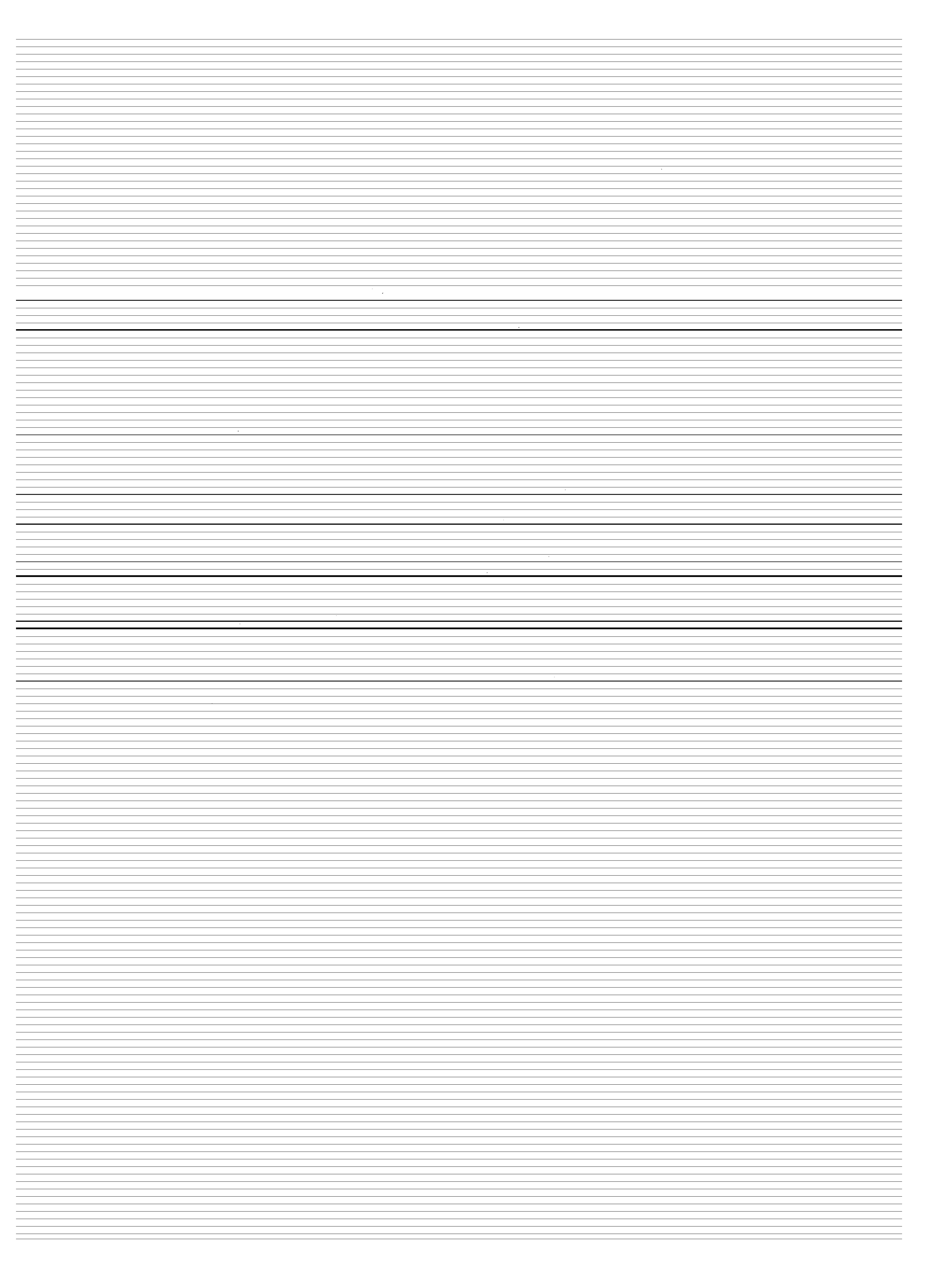

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى ابني عمرو

كرمز للجيل الجديد الذى ولد
فى الهزيع الأخير من القرن العشرين
ليتحمل مسئولة المواجهة الحضارية
في القرن الواحد والعشرين



تصدير الطبعة الثانية

مرة أخرى لماذا نحن "ضد العولمة" ؟!

"العولمـــة" ذلك المصطلح الذى شاع فى عصرنا لدرجة أصبح معهـــا "موضـــة" المنتديات والندوات والمؤتمرات الثقافية؛ فمعظمها يـــدور اليـــوم فى عالمنا العربى والإسلامى حول ما العولمة؟! وما موقفنا منها؟! وهل هى خير أم شر؟! هل تعنى فرض الهيمنة الغربية وبالذات الأمريكية على العالم بهدف طمس الهويات الأخرى وسحقها لصـــالح هوية واحدة للعالم ظاهرها غربى وجوهرها أمريكى؟! هل تعـــنى كما يتردد فى الخطاب الفلسفى والسياسى الغربى الحوار بين الحضارات وتزاوج الثقافات بهدف إيجاد حد أدنى من تبادل المصالح والقضاء على التطرف والمتطرفين الذين لا يعرفون لغة الحوار ولا يستسيغون الالتقاء الحضارى بين الشعوب؟!

وإذا كـــانت تعنى الحوار بغرض التقارب الثقافى بين الشعوب وتـــبادل المصالح الاقتصادية بينها فهل نبادر بالمشاركة فى الحوار؟ ومـــا جـــدوى الحوار مع شعوب أدمنت الاستعلاء والتعالى وفرض إرادتهـــا على الآخرين؟!. وإذا كان الحوار يتضمن تلقائياً صورة من صـــور الصراع بين الثقافات والحضارات. فما دورنا وما حجمنا فى هـــذا الصـــراع الثقافى والحضارى؟! وهل نحن قادرون على القيام

بدور إيجابي فعال في هذا الصراع ؟! وهل نمتلك أدوات التحدي الحضاري بما أفرزته مؤخراً من تقنيات تكنولوجية معقدة ومتطورة؟! وإذا لم نكن نمتلك شيئاً منها أو نمتلك ما لا يكفي منها فما السبيل لامتلاك الصور المتعددة التكنولوجيا وكم من الوقت نحتاجه للتدريب عليها وسلوك الطريق الحقيقي للإبداع فيها بما يجعلنا نقف على قدم المساواة مع شعوب العالم المتقدمة التي سبقتنا في هذه المجالات؟! وكيف يمكن توظيف هذه التكنولوجيا بعد امتلاكها في كافة مجالات الحياة المعاصرة لشعوبنا؟! وهل يسمح لنا الآخر بامتلاك هذه التكنولوجيا المتقدمة ومنافسته فيها؟!

هذه الأسئلة وغيرها كثير أثقلت كاهل العقل العربي ودارت حولها الكتابات والأبحاث والمؤتمرات والندوات خلال الأعوام الثلاثة الماضية بعد صدور كتابنا هذا "ضد العولمة" في طبعته الأولى. وكم كنت سعيداً أن أصبحت قضية "العولمة" قضية تفرض نفسها بهذه الصورة الملحة ليس فقط على عقول المثقفين العرب، بل أيضاً على عقول الساسة والاقتصاديين وكل المهتمين بالشأن العالمي وعلاقتنا بالآخر على كل المستويات.

ومصدر سعادتي كان يكمن في أننا أصبحنا قادرين الآن على التفاعل السريع مع الفكر العالمي والأحداث العالمية وأصبحنا قادرين

كذلـــك عـــلى نقل الوعى الفكرى النظرى إلى مجال العمل السياسى والاقتصـــادى بأســـرع صورة ممكنة. وأن كنا فى هذا الإطار نطلب المـــزيد من التفاعل بين النظر والعمل لنختصر المسافة الزمانية بين مـــا يفكر فيه المفكرون وما يتحدث عنه المنظرون، وبين ما يجرى على ساحة العمل الوطنى فى كافة المجالات.

وكـــم كنت سعيداً بالتفات الأصدقاء من المثقفين والكتاب إلى صدور كتابى هذا والتنويه عنه والتنبيه إلى أهميته رغم أنه لم يعالج القضـــية بكافة جوانبها ، بل ركز فقط على جوانبها الثقافية؛ فقد كان احـــتفاء صـــحيفة الأهـــرام القلعة الثقافية الكبرى فى مصر بالكتاب متـــنوعاً حيث نوه عنه الأصدقاء فى صفحة "دنيا الثقافة" و"الصفحة الأدبيـــة" وســـمحوا بنشر ما كتبه عنه المثقف النابه والأديب المتفرد الصـــديق الدكتور ماهر شفيق فريد[١] وتوجت "الأهرام" هذا الاهتمام بالكـــتاب بـــأن أعطـــاه نـــادى الأهرام للكتاب الجائزة التقديرية فى المعـــرض الـــدولى للكـــتاب دورة ١٩٩٩م. كما كان احتفاء صحف "الوفـــد" و"أخـــبار الأدب" و"الأخـــبار" وغيـــرها ممن لا أعرفه من الصـــحف المصرية والعربية أبلغ الأثر فى نفسى. كما كانت للرسالة الـــتى تلقيـــتها مـــن الأســـتاذ الدكتور صفى الدين أبو العز[٢] أستاذ

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور ماهر فى مراجعته النقدية فى نهاية الكتاب، ملحق (٢).
(٢) انظر نص الرسالة فى نهاية الكتاب، ملحق (١) .

الجغرافيا غير المتفرغ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ورئيس الجمعية الجغـــرافية المصرية ووزير الشباب الأسبق بالغ الأثر فى دفعى دفعاً لمـــتابعة البحث فى موضوع العولمة وخاصة فى جانبها الاقتصادى فقمـــت بمراجعة نقدية لكتاب "فخ العولمة" الذى كتبه "عالمان ألمانيان فى الفكـــر الاقتصـــادى والاجـــتماعى وتكرمت سلسلة عالم المعرفة بالإشـــراف عـــلى نقله إلى العربية[٣] كما قمت بعمل بحث آخر عن "العولمـــة الثقافية بين الإمكان والاستحالة"[٤]. وعمقت الأمر أكثر فى كـــتاب "فى فلســـفة الـــثقافة" وخاصة فى قضية العلاقة بين "الثقافة والتقدم" [٥].

إن "العولمـــة" على الصعيد الاقتصادى أصبحت واقعاً ملموساً بتوقيع معظم دول العالم على اتفاقيات الجات وان كانت شعوب العالم الفقيـــرة، بـــل وأحيانـــاً الغنية بدأت تدرك مخاطرها على صعيد ما يـــترتب عليها من تكديس لرؤوس الأموال فى يد فئة قليلة لا تتعدى خُمـــس ســـكان العالم مما يهدد بأن يتحول البشر إلى مجتمع عالمى

---

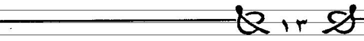
(٣) انظر نص مراجعتنا النقدية لهذا الكتاب فى كتابنا : بين قرنين – معاً إلى الألفية السابعة، دار قباء للطباعة ، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص ٤٣–٥٨.

(٤) نشر هذا البحث فى كتابنا : فى فلسفة الثقافة، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٩ المبحث الثانى.

(٥) نفسه ، المبحث الثالث .

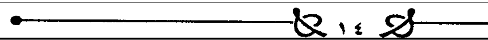
يسوده ويتحكم فيه هذه الفئة القليلة ويتحول الأربعة أخماس الأخرى إلى فقراء يتسولون ما يفيض عن سلة هؤلاء وما يسمحون به لهم!! إن البطالة التى بدأت تنتشر وتزداد نسبتها عاماً بعد عام فى معظم دول العالم حتى الغنية منها، وحرية انتقال رؤوس الأموال وتعملق الشركات الكبرى واتحادها فى مواجهة الكيانات الاقتصادية الصغيرة يهددان بكارثة اقتصادية، كما يهددان بكوارث سياسية عديدة فى مقدمتها قلة هيبة الدولة وانعدام دورها الاقتصادى فى حماية محدودى الدخل وفى حماية المشروعات الاستثمارية الوطنية صغيرة كانت أو كبيرة!!

إن التعملق الاقتصادى للشركات العالمية الكبرى يجعلها فى كثير من الأحيان تتحدى دولاً بأكملها ويجعل النظم السياسية لهذه الدول خاضعة لها وألعوبة فى يدها. كما أن تآكل الهياكل الاقتصادية للشركات الصغرى وانعدام فرص الاستثمار والاسترزاق لأصحاب المشروعات الصغرى يعنى فى أبسط ما يعنى فقدان الاستقلال الاقتصادى للدول التابعة ويعنى ضياع فرص نمو وتحسين انتاجها الوطنى مما يحولها فى النهاية إلى مجرد منبع لانتاج المواد الخام للدول الصناعية والشركات الكبرى من ناحية، ومصب لتصريف منتجاتها من ناحية أخرى.

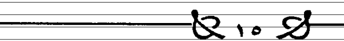


إن الحيـــاة الاقتصادية لشعوب العالم الفقيرة ستكون جحيما ان لـــم يتم تدارك المخاطر المترتبة على "العولمة الاقتصادية"، وان لم يــتم التوزيع العادل لثروات العالم المادية على شعوبه كلّ بحسب ما يمــلك مـــن موارد وبحسب ما يستطيع تقديمه من منتجات صناعية وتكـــنولوجية. ولا شك أن العبء الذى تحملته شعوب العالم المسمى "ثـــالث" حـــتى الآن تكفى لأن تنزل الدول الصناعية الغنية من عليائها وأن تستمع لصوت العدالة والعقل فتعيد النظر فى سياستها الرامية إلى إذلال شـــعوب العـــالم الفقير بالسيطرة على مصادر مواردها الطبيعية واستغلالها بأرخص الأسعار ثم بيعها كمنتجات لها بأغلى الأسعار!!

إن أول مـــا ينـــبغى أن يتخذ من إجراءات فى هذا الصدد هو إلغـــاء كافـــة ديـــوان الدول الفقيرة لأنها فى الغالب من تبعات تلك السياسات الاقتصادية الغربية المستغلة ؛ وثانى ما ينبغى أن تفعله هو تـــنظيم مـــا يســـمى باقتصاد العولمة ليصبح اقتصاداً عادلاً يراعى مصـــالح هـــذه الدول الفقيرة ويزيح أى معوقات تعوق نمو اقتصادها المحـــلى وازدهـــار صـــناعتها الوطنية. ويكفينا هنا القول بأن ترك مخاطر العولمة حتى تبلغ مداها برغم تحذيرات كل المتخصصين فى العـــالم ســـيؤدى حتماً إلى أن تكون الدول الغنية والشركات العملاقة متعدية الجنسيات هى أول من يدفع الثمن!!



أمـــا "العولمـــة" عـــلى الصعيد السياسى فهى فى الواقع دعوة غربية لأن تتحول النظم السياسية فى العالم أجمع للنظام الديمقراطى الـــنيابى المعمـــول بـــه فى الغرب. ورغم تقديرنا الشديد لهذا النظام السياســـى باعتـــباره يـــتيح الفرصـــة لـــتداول السلطة بين الأحزاب المختـــلفة، كمـــا يتيح الفرصة أمام الشعوب لتجرب أكثر من سياسة ويتيح الفرصة أمام الجميع للمشاركة السياسية ويتيح الحرية لممارسة الحياة الفردية وحماية حقوق الأفراد العقائدية والفكرية وفى الملكية.. الخ.. إلا أننا لابد أن نعى أن لكل شعب ولكل دولة ظروفها السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية المختلفة. وأن ما يصلح من نظم سياسية فى دولـــة قد لا يكون هو الأصلح بإطلاق!! إننى شخصياً أؤمن بأنه لا تهـــم صورة النظام السياسى للدولة سواء كان ملكياً أو جمهورياً، ديمقـــراطياً أو استبدادياً دكتاتورياً بقدر ما يهمنا فى النهاية أن يُعبر هذا النظام السياسى خير تعبير عن البيئة التى نشأ فيها وعن الشعب الـــذى أفـــرزه بشرط أن يتاح للأفراد فى ظل هذا النظام أو ذاك أن يعيشـــوا حيـــاتهم بســـهولة ويسر وأن تتوافر الشروط اللازمة لحفز طاقاتهم والتعبير عن إبداعاتهم دون خوف من أى سلطة كانت!



إننى أتفق تماماً مع مقولة جان جاك روسو – فيلسوف التنوير الشهير – الذى بحث فى أنواع الحكومات وحينما تساءل عن أصلحها قـال: إن أصـلح أنـواع الحكومات على الإطلاق هى ما يكثر فى عهدهـا الـناس ويعمرون البلاد دون وسائل خارجية من تجنس أو إقامـة مستعمرات أو خلافه، وأن الحكومة الأسوأ هى التى يقل فى عهدها الشعب ويهلك!!

إن هـذا المعيار لصلاحية الحكومة يعنى أن الحكومة الأفضل أيـا كـانت صورتها وكيفية إفرازها من قبل الشعب، هى الحكومة القـادرة عـلى إقامة كل الممكنات أمام شعبها ليتكاثر ويعيش حياته مستمتعاً بحرياته وبخيرات بلده إلى أقصى حد!!

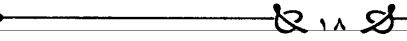
ومـن هـنا أقـول أنـه ليست الديمقراطية بصورتها الغربية المعاصرة هى بإطلاق أصلح صور الحكم؛ فهى لم تكن كذلك بالفعل إلا بمـا أتاحته من ممكنات أمام شعوبها وبما أتاحته من حياة كريمة حـرة لهـؤلاء الأفـراد، فضـلاً عـن أن أفضل صور نظم الحكم الديمقـراطى فى الغـرب الآن لم تعد تتيح هذا التداول للسلطة بشكل مطـلق أو متاح، بل أخذ الأمر فمعظم الأحوال صورة تبادل كراسى الحكـم بين حزبين أو ثلاث على الأكثر، وتلعب آلة الإعلام وصناع الحكـام الدور الأكبر فى إظهار الأمر على أنه دائماً اختيار الشعب،

بيـــنما الواقع يقول إن اختيار الشعب أصبح موجهاً بما تصنعه آلات الدعايـــة وصـــناعة الزعامة من وسائل لجذب الرأى العام حتى أنه يمكـــن القـــول إن الديمقراطية بصورتها الغربية المعاصرة أصبحت شـــبه تمثيلية محبوكة لها مؤلفها ومخرجها. وكل ما على الشعب هو أن يشارك فى الحبكة الدرامية بالذهاب إلى صناديق الاقتراع!!

إن الفـــرق بيـــن الديمقراطية فى الغرب وبين الديمقراطية فى بـــلاد الشـــرق وبـــلدان العالم الثالث إنما هو ذات الفرق بين مسلسل درامى غـــربى ومسلسل درامى شرقى، فالأول تتسارع فيه الأحداث وتـــتلاحق فيه التغيرات بحبكة درامية محكمة ، والثانى أحداثه بطيئة ممـــلة ونهايـــته معـــروفة منذ بدايته!! إنه فارق الخبرة فى التأليف والإخـــراج والتمثيل بين الغرب والشرق!! فلا داعى إذن لأن تتغنى الـــدول الغـــربية بـــنظامها السياسى باعتباره الأمثل فى الحفاظ على الحقـــوق والحـــريات الأساسية للأفراد، لأن هذا النظام نفسه هو ما يكيـــل بمكيـــالين فى كـــل الأحداث العالمية ، وهو نفسه الذى ينتهك حـــريات وحقـــوق الشعوب الأخرى بصور متعددة وهو نفسه الذى يدافع ويحمى قوى الشر والجريمة فى مختلف أنحاء العالم الأخرى!! وليس أدل على ذلك من وقوف سدنة النظام العالمى الجديد فى صف دولـــة لقيطـــة زرعوهـــا بـــأيديهم فى المنطقة العربية هى إسرائيل

ومســـاندتها وهى تــبيد شعب أعزل من أى سلاح بكل ما تملكه من أســلحة مدمـــرة فــتاكة. وهــذا الشعب المسلوب الأرض والحرية والكـــرامة الشعب الفلسطينى لا يطالب إلا بجزء من حقه على جزء مـــن أرض كان يملكها كلها من خمسين عاماً فقط!! أى حرية، وأى عدالة وأى حقوق للبشر يراعيها إذن مثل هذا النظام المطلوب فرضه فرضاً فى ظل "العولمة السياسية"!!

أمـــا فيما يتعلق "بالعولمة الثقافية"، فهى فى اعتقادنا مستحيلة لأســـباب عديدة فصلناها فى بحثنا المنشور بكتاب "فى فلسفة الثقافة"، ويمكننا أن نزيد هنا أن العولمة الثقافية تعنى فيما تعنى السيادة لثقافة معيـــنة هى بالطـــبع الـــثقافة الغـــربية عامة والأمريكية على وجه الخصـــوص وبالطبع فإن أسباب انتشار وسيادة هذه الثقافة هو تمكن أصـــحابها مـــن امتلاك أدوات السيطرة الإعلامية. بمختلف صورها عـــلى العـــالم فضـــلاًعـــن ســـيادة الأنماط الغربية فى الفن والأدب والاقتصـــاد والأزياء حتى نظم الأكل والشراب!! إن هذه السيادة فى اعتقادنا هى مجرد سيادة ظاهرة لا تتعدى السطح إلى الجوهر؛ فمهما بدا أمامنا تشكل شعوب العالم الأخرى بهذه الأنماط الغربية فى الثقافة والســـلوك، فإن هذا التشكل إنما هو تشكل كاذب فيه يتشبه المغلوب بصفات الغالب على حد تعبير ابن خلدون – لكن هذا التشكل الكاذب



ســـرعان ما يزول أو سرعان ما تبدو سطحيته إذا ما عبرنا المظاهر متســـائلين عن الجوهر، فسنجد حينئذ أن أى شعب مهما كانت ثقافته بالنســبة للــثقافة السائدة، أو الغالبة هامشية ومستهجنة، سنجده يعتز بثقافــته المحــلية – الوطــنية ويعتــبرها عنواناً على هويته وذاتيته المســتقلة. وقــوة هــذه الثقافات الوطنية آتية من أنها ليست مجرد شــعارات يرفعها أصحابها وإنما هى تتخلل شرايين وأفعال أصحابها وكأنهم معجونون بها.

إن قــوة أى شعب من قوة ثقافته ومن قدرتها على التعبير عن نفســها بشكل إيجابى فعال، ولا يملك أحد، أى أحد مهما كانت قوته الاقتصادية والعسكرية ومهما كانت أدواته التكنولوجية فتاكة ومهيمنة أن يفــرض ثقافته الخاصة على شعب يمتلك ثقافة خاصة قوية فاعلة وذات عمق تاريخى قادر على التجدد والتطور المستمر. وهكذا فإننى أرى أن ثقافتــنا العربية – الإسلامية لا يمكن بأى حال أن تذوب أو أن تنقرض أمام أى ثقافة أخرى لأنها ذات عمق دينى وتاريخى قابل للــتجدد والــتطور المســتمر بحســب قدرة أصحابها على الاجتهاد وامــتلاك الأدوات المعرفية لأى عصر يعيشونه. كما أننى أرى من جــانب آخــر أن الــثقافة الغــربية السائدة لا تزال حتى الآن برغم محــاولات الغــربيين تطويرها وتلقيحها بالعناصر التى تنقصها من الثقافات والحضارات الأخرى. ثقافة ذات بُعد واحد هو البُعد المادى

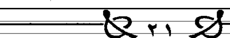
الشـــهواني، فـــهي ثقافة تركز الفرد وتستهدف إشباع رغباته المادية بكـــل الوســـائل ولا تهتم بالأبعاد الروحية والأخلاقية إلا في أضيق الحـــدود!! وثقافـــة هذا شأنها وتلك خاصيتها لا يمكن أن تكون قابلة للـــتعميم والســـيادة الدائمـــة، فهي ان سادت حقبة زمنية أو قرن من القـــرون أو حتى ألفية كاملة فإنها لا يمكن أن تسود دائماً حتى لدى مـــن أبدعوها وآمنوا بها!! ولعل هذا هو الشاغل لأتباع ما يسمى في الغـــرب "ما بعد الحداثة". فالما بعد حداثيون يرون أن الحداثة الغربية الـــتي كـــانت تتغنى فقط بالتقدم القائم على العقل والعلم قد استنفدت أغراضها وأنها لابد أن تتجدد وأن يلتفت الغربيون إلى أن التقدم ليس مـــرهوناً بالتقدم المادي التقني وإنما في الإنسان جوانب أخرى ينبغي الاهتمام بها والالتفات إلى ضرورتها.

إن المعوقات التي تعوق ما يدعونه بالعولمة الثقافية إذن كثيرة رغـــم مهـــارة الغربيين في امتلاك الوسائل المتجددة لنشرها وجذب الآخـــرين إليهـــا ورغـــم كل الاتفاقيات الموقعة في إطار ما يعرف باتفاقيـــات الجانب وخاصـــة ما يخص الجانب الثقافي منها. وأهم هذه المعوقـــات بـــلا شك هو ما أشرنا إليه من أن الثقافة المراد سيادتها وجعلها ثقافة العالم أجمع وهي الثقافة الغربية هي كما قلنا ثقافة ذات بُعـــد واحـــد بدأ طليعة أصحابها أنفسهم يضيقون بها!! فضلاً عن أن ثقافات الشعوب الأخرى وخاصة الشعوب ذات الحضارات الضاربة

بجذورهـــا فى أعماق التاريخ لا يمكن أن تذوب أو تستسلم أمام هذه الثقافة الغازية أو المراد فرضها وسيطرتها!!

إن الثقافة كما أقول دائماً هى شأن عقلى قبل أن تتسرب وتبدو واضـــحة فى سلوك صاحبها. وأى ثقافة يراد فرضها يمكن أن تؤثر فى المتـــلقى بصور شتى ويمكن له أن ينبهر بها لفترة ما من الزمن لكـــنه أى المتـــلقى صـــاحب الثقافة الأصلية القوية بعناصرها الفنية بـــتاريخها بمـــنجزاتها وبقدرتها على التجدد والتطور - سرعان ما يـــنفض عنه غبار التأثر والتشكل الكاذب إذا ما اتضح أمامه سطحية الـــثقافة الغازيـــة وإذا ما نضج ليتساءل: هل الأفضل أن أكون تابعاً لمـــثل هذه الثقافة ذات البُعد الواحد أم أن أكون إنساناً متوازناً أحافظ عـــلى ثقافـــتى الخاصـــة التى هى عنوان هويتى وأعزز ما فيها من ايجابيات وأتجاوز عما فيها من سلبيات.

إن الـــثقافة لدى أى شعب أشبه بالكائن الحى القابل لأن ينمو وأن يـــتفاعل مـــع العناصر الخارجية لكن لا يقبلها إلا إذا أصبحت مادتها شبيهة بمادته. وهو نفسه (أى الشعب) قادر بما يمتلك من عقل أن يحـــلل ويقـــارن ويستفيد من عناصر الثقافات الأخرى فى تطوير ثقافـــته الوطـــنية بدون أن يتنازل عن هذه الثقافة وهى عنوان هويته وذاتيته.



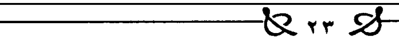
إن الأقــرب إلى التصــديق هــو القول بأن الثقافات يمكن أن تــتحاور وأن تتفاعل وأن يتأثر أحدها بالأخر وعادة ما يكون التأثير الأكــثر مــن جانب الثقافة الغالبة السائدة لكن هذا التأثير لا يمكن أن يصــل مــداه إلى محــو الثقافات المتأثرة أو المنفعلة خاصة إذا كان أصــحاب هذه الثقافة المنفعلة يملكون أدوات الدفاع عنها والحوار مع الآخــر وخاصــة إذا كان مضمون هذه الثقافة نفسها مضموناً قابلاً للتجدد والتطور.

إن أدوات العولمــة التكــنولوجية كالأقمـــار الصناعية وتدفق المعلومات عبر أجهزة الكمبيوتر ووسائل البث المباشر إذاعية كانت أو تــليفزيونية أو غيرها هى أدوات يمكن للجميع استخدامها وبنفس الكفاءة لا فرق فى ذلك بين أصحاب ثقافة غالبة أو مغلوبة، بين ثقافة ســائدة أو ثقافة هامشية. فالكل قادر على امتلاك هذه الأدوات والكل يمكــنه بــث ثقافته ويمكن للمتلقى أيا كان موقعه فى الغرب أو فى الشرق ، فى الشمال أو فى الجنوب أن يؤثر بثقافته فى الآخرين بقدر ما يتأثر بثقافتهم.. المهم هو أى عناصر الثقافة هو الأفضل والأجود والأكــثر مراعاة للتوازن بين مطالب الجسم ومطالب العقل والروح فى الإنسان. إن مخاطبة العقول والأرواح ستتفوق حتماً وفى النهاية على مخاطبة الغرائز والمطالب الشهوانية للأجساد!! إن كسر شوكة الــثقافة الغربية يكون ببساطة بامتلاك نفس الأدوات التى مكنتها من

الانتشار والهيمنة . وحينما يملك أبناء الثقافات الأخرى هذه الأدوات ويستخدمونها بنفس الكفاءة ويبثون من خلالها ثقافتهم ستنفتح أمامها عقول الغربيين وتتعلق بها أرواحهم لأنها هي الثقافات الأكثر مراعاة للتوازن الإنساني وهي الأكثر إدراكاً لخيرية الإنسان والأقدر على تفجير هذه الخيرية وتفصيلها.

إن حديثنا السابق عن الجوانب المختلفة للعولمة يقودنا إلى نقاط عديدة آثارها بعض الكتاب والمثقفين حول موقفنا الرافض لها! ففي الحقيقة أن اختياري لعنوان "ضد العولمة" ليس المقصود به أبداً الرفض المطلق للعولمة، بل هو عنوان يثير الجدل ويلهب العقول للتساؤل والحوار حولها؛ حول معناها وصورها المختلفة وجدواها في عالم اليوم. فالحقيقة التي لم يعد أحد يشكك فيها هي أن العولمة أصبحت أمراً واقعاً وليست مجرد فرض سنبحث عن مدى صدقه أو مدى تحققه!! فقد أصبحت العولمة أمراً واقعاً بمجرد توقيع معظم دول العالم على اتفاقيات الجات وملاحقها، أصبحت أمراً واقعاً حينما فرضت نفسها على كل العقول في جميع أنحاء العالم. والكل أصبح يتساءل عن جوانب الخيرية فيها ويحاول التقليل أو التنبيه إلى جوانبها المؤذية أو التي تضر بمصالح شعوب معينة!

كل ما هنالك أنني أرى أن التسليم بالعولمة كحالة واقعة لا يكون ولا ينبغي أن يكون بشكل مطلق، بل ينبغي أن ننتبه قبل هذا



التسليم إلى جوانبها السيئة التى أن لم تظهر الآن فستظهر بعد حين. ولست وحدى صاحب هذا التنبيه إلى مخاطر العولمة؛ فقد نبه المختصون فى الاقتصاد إلى التنبيه إلى مخاطرها وأثارها السلبية على اقتصاديات الدول المختلفة.

ولما كنت أعتقد أنه يستحيل أن تذوب ثقافات العالم فى ثقافة واحدة، وأنه ليس من صالح البشرية أن تصطبغ ثقافات العالم كلها بصبغة ثقافة معينة لأن التنوع الثقافى هو الأفضل وفيه الخير للجميع وهو المطية الحقيقية لتقدم البشرية وسعادتها.

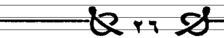
ولما كنت أعتقد فى ذات الوقت أن ثقافات وحضارات الشرق أكثر ثراء وأكثر عمقاً وأكثر إدراكاً لحقيقة الإنسان ولخيريته وطرق سعادته. فقد أعلنت موقفى الرافض للتوحد الثقافى على الطريقة الغربية للعالم. الرافض للحوار بين الحضارات من هذا المنظور الغربى المتعصب المتعالى على الآخر أيا كان!! فالحوار الحضارى بين ثقافات العالم ينبغى أن ينطلق من التسليم المسبق لدى جميع الأطراف المتحاورة بما أسميه "التكافؤ الحضارى". فإن سلم الجميع بأن كل حضارة لديها فى ثقافتها ما يمكن أن تقدمه للآخرين، وأن الخصوصية الثقافية لا تتعارض بل تتفاعل مع الحد الأدنى الذى ينبغى أن يتوافر فى أى ثقافة بشرية موجودة فعلاً. إن حدث هذا فإنه

لن يكون هناك ثقافة أفضل من ثقافة، بل كل الثقافات تكون على قدم المساواة فهى جميعاً ثقافات أفرزتها تجمعات البشر عبر العصور، وهى ثقافات تتكامل بتقاطعها معاً وبتفاعلها مع بعضها البعض فى تقديم الخير للبشر جميعاً. وما دامت كل ثقافات العالم على قدم المساواة وقابلة لأن تتفاعل وتتطور فإنها جميعاً ستقبل التحاور والتأثير والتأثر دون أن يحس أصحاب ثقافة ما أنهم أصحاب الثقافة الغالبة أو أصحاب الثقافة المغلوبة المقهورة ... الخ..

إن فتح النوافذ وأبواب الحوار بين الثقافات ينبغى أن يكون بلا شروط مسبقة، وبلا فرض معايير مسبقة من جانب ثقافة ما!! فهل يقبل الآخر الغربى هذا الأمر على صعيد الواقع أو يقبله ظاهريا ويرفضه وينفذ غيره عملياً كما هو حادث فعلاً الآن؟!! تلك هى القضية التى أتمنى أن يعيها كل دعاة الحوار بين الحضارات اليوم. فالقضية تتلخص من وجهة نظرى فى أن كل شعوب وحضارات وثقافات العالم غير رافضين للحوار، بل إن الجميع يسعى للتقارب مع الجميع، ولكن السؤال الملح هو: هل يقبل الإنسان الغربى التحاور والتقارب دون شروط مسبقة، ودون أفكار مسبقة يسعى لتحقيقها وفرضها على الآخرين؟!!

التاريخ يقول إن هذا لم يحدث من قبل إلا فى حالات الضعف الغربي، أما الغرب الآن هو الأقوى فكل طاقات العنجهية والعنصرية والتعالى قد تفجرت لفرض الأمر الواقع على الآخرين بصرف النظر عــن رغباتهم أو ثقافتهم أو مراعاة خصوصياتهم .. الخ.. الخ. ولما كــان من الضرورى أن تتجدد وسائل فرض الأمر الواقع ، فإن هذا التجدد فى الوسائل قد أخذ الآن صورة الدعوة إلى حوار الحضارات أو العولمــة.. أيهما أفضل؟! أو أيهما أكثر نعومة لتقبل به الأطراف الأخرى دون تململ ودون ضجر!!!

إذن نحن لسنا ضد الحوار بين الحضارات بصورة مطلقة، بل ضــده إذا كــان الهدف منه فرض تحقيق الغايات الغربية وحدها فى الــنهاية. وكيــف نكــون ضده ونحن أبناء أمة علمت العالم الحوار الحضــارى؛ فقديماً قبلت مصر أن يتعلم أبناء اليونان العلوم والحكمة على أرضها وفى معاهدها – رغم السرية التى كانت الطابع الرسمى للتعــليم الــذى كان يتخذ طابعاً كهنوتيا سرياً – فقد قبل حكماء أون القديمــة أن يعــلموا فيثاغورس الحكمة ومنه انطلقت حكمة اليونان وتأسســت العــلوم لديهــم! قبلوا أن يعلموا أفلاطون وقد عاد لأثينا ليصــبح فيلســوف فلاســفة العــالم القديم كله. نقل عنهم هيرودوت واســتقبلوه بكــل ود وترحاب وفتحوا له آفاق الحكمة حتى وهم فى



عصــور تدهورهم وبداية أفول حضارتهم . كيف نكون ضد الحوار العادل المتكافئ بين الحضارات ونحن أبناء أمة قبلت أن تتلقى علوم كل الأمم السابقة وتترجمها إلى اللغة العربية لتقدمها بعد ذلك جاهزة إلى الغــربيين ليبدعوا منها عصر نهضتهم الحديثة. كيف ذلك ونحن أبــناء أمــة عــلمت العــالم الغربى كيف يكون التلاقح الحضارى والاســتفادة مــن الحضارات الأخرى فلايأنف أعظم فلاسفة العرب المســلمين ابــن رشــد مــن أن يلقب بالشارح الأكبر، ولا يرفض السابقون له لقب المشائين رغم أنهم تجاوزوا الأرسطية والأفلاطونية معاً وطرحوا قضايا فكرية وفلسفية عديدة لم تكن قد طرأت بعد على العقــل اليونانى كان من بينها قضية التوفيق بين الدين والفلسفة، بين النقل والعقل، بين الشريعة والحكمة.

كيــف ذلــك ونحــن أبــناء أمة استقبلت الغزاة المستعمرين الغــربيين فقاومتهم فى البداية ، وقبلت وجودهم كرهاً فى النهاية ثم هضــمتهم وهضمت حضارتهم فتجاوزتها بالحوار وبالحكمة. هذا ما حــدث فى عصــر الإســكندرية. كما حدث نفس الشىء فى العصر الحديــث فتكالب الأوربيون على استعمار الأرض وانتهاك الحرمات والأعــراض ونهــب الثروات وتحمل أجدادنا وآباؤنا الأمر بعد أن كافحوا وجاهدوا بكل ثمين وغال. فكانت لغة السلاح والقوة هى اللغة

الــتى تفرض كل ما يريده المستعمر على أبناء الأرض، إلى أن جاء اليوم الذى استيقظ فيه المارد وطرد المحتل .. وماذا بعد؟! هكذا كان تســاؤلنا الدائــم فى حوار السلاح والقوة مع الغربيين قديماً وحديثاً. وماذا بعد؟! هل يقبل من تعود على الاستعلاء والتعالى وتملكه دائماً غــرور القـــوة الــتعايش السلمى مع أمم أهم عناصر ثقافتها التآخى والســلام والــتعاون والدعوة إلى الحق بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة؟!

هــل يقبــلون ذلك؟! لم أجد فى التاريخ القديم ولا فى التاريخ الحديث والمعاصر ما يؤكد ذلك أو حتى يشير إليه!!

إن مــا عانــته شــعوب الشــرق عمومـــاً والشعوب العربية والإســلامية خصوصـــاً من الغربيين هو خير شاهد على أن الحوار الســلمى الــذى يســتهدف التقارب بين الثقافات ويسهل التزاوج بين الحضــارات ليــس هدفاً حقيقياً من أهداف الغربيين اللهم إلا إذا كان سيحقق فى النهاية المصالح الغربية وحدها!!

ومـــع كل ذلك نقول إننا لسنا ضد الحوار بصورة مطلقة، بل ضـــد الحوار أحادى الطرف أحادى الهدف!! إننا مع الحوار إذا كان الآخر يؤمن بالفعل بـــ "التكافؤ الحضارى". إننا لسنا ضد العولمة بما تحققه من تقارب بين شعوب العالم ثقافياً واقتصادياً وسياسياً بصورة

عادلة. لكننا ضدها إذا كانت تستهدف فرض الهيمنة الغربية كما هو حادث الآن ويحدث على شعوب العالم الأخرى بالقوة تارة وبالحوار تـــارة أخـــرى، ضدها إذا كانت تستهدف سحق هويات الآخر لصالح الأنـــا الغـــربية!! ضدها إذا كان الهدف منها الإبقاء على واذكاء كل عناصـــر الصـــراع بين شعوب العالم الأخرى لصالح الأنا الغربية!! ضـــدها إذا كـــان الهدف منها الإبقاء على هذا الخلل الواضح في ما أسموه بالنظام العالمى الجديد بتصنيفاته الجائرة؛ دول الشمال، ودول الجـــنوب، ودول العالم المتقدم أو العالم الأول ودول العالم الثالث أو الـــدول المتخـــلفة!!، دول المركـــز ودول الأطـــراف!! إنها جميعاً تصـــنيفات ومســـميات هبطت علينا من آلة الإعلام الغربية وكتابها ومـــنظريها مـــن المفكرين وعلماء السياسة والاقتصاد . وهى جميعاً مســـميات لا تحقق التقارب بقدر ما تزكى الصراع وتكشف عنصرية المسمى والمصنف!

إن مـــا ننشده من عولمة إذا كان لها أن تكون ، عولمة تحقق العدالـــة المطـــلقة بيـــن الشعوب وتحافظ على تعدد الثقافات رغم ما يـــتحقق بين عناصرها من تقارب ، عولمة يتساوى فى ظلها الجميع ويحـــترم الجميع فى ظلها الجميع دون تمييز ودون تصنيف لشعوب العـــالم على أساس اقتصادى أو سياسى أو عرقى أو دينى. فهل هذا ممكن الحدوث أم إننا لا نزال نحلم بيوتوبيا لم يأت أوان تحققها بعد!!

على أية حال فلا نزال قادرين على الحلم، الحلم بعالم مثالى تسوده قيم العدالة والمساواة ، فجره فينا الحديث عن العولمة رغم أننا لا نزال ضد الدعوة إليها من منظورها الغربى المعاصر. فلعل الزمن القادم فيما تبقى من هذا القرن أو تلك الألفية الجديدة يحمل للأجيال القادمة تحقق هذا الحلم، فيتحول لأول مرة من مجرد حلم تكرر على مدار القرون والألفيات السابقة إلى حقيقة واقعة ينعم فى ظلها البشر، وليس هذا على الله ببعيد.

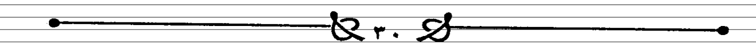
وكل ما أتمناه حالياً أن يصبح كتابنا هذا في طبعته الجديدة بداية لمناقشة ولحوار أكثر جدية واتساعاً وعمقاً حول موضوع "العولمة".

وعلى الله قصد السبيل.

القاهرة – مدينة نصر

فى ١٨ رجب ١٤٢١هـ

الموافق ١٦ أكتوبر ٢٠٠٠م



تصـديـر

الطبعة الأولى

هذه المقالات العشرون منتقاة من بين عشرات المقالات التى كتبتها خلال السنوات العشر الماضية فى مختلف الصحف والمجلات العـربية. ورغـم تـباين مجالات موضوعاتها بين الفلسفة والأدب والسياسـة والـتاريخ والأخـلاق والعلم والتكنولوجيا .. إلخ، إلا أنه يـربط بينها جميعا خط فكرى واحد يعبر عن موقف محدد لصاحبها مـن كـل هذه الموضوعات والقضايا، إنه موقف يرفض القفز فوق الهويـة الـثقافية العربية – الإسلامية – الشرقية والذوبان فى الثقافة الغـربية، فالثقافة الغربية رغم أنها الثقافة السائدة، وأنها الثقافة التى يُـنظر إليهـا عـلى أنها الأكثر تعبيرا عن التقدم، ورغم أنها الأكثر علمية والأكثر قابلية للتطور فى عالم اليوم. أقول رغم كل ذلك فهى ليست الثقافة "الأنموذج"، وليست الثقافة الأكثر صلاحية وتعبيرا عن إنسانية الإنسان. بل على العكس من ذلك تماما فهى ثقافة مادية تعبر عـن أحـط مـا فى الإنسان من غرائز وانفعالات فهى ثقافة تهمل الجوانـب الـروحية للإنسان. كما أن علميتها اتسقت مع ماديتها؛ فلم يعـد العلم الغربى يعر أى اهتمام بالأخلاق الإنسانية، ولم يعد يراع ضـرورات الطـبيعة والبيـئة الـتى يحيا عليها الإنسان، لقد أصبح الاطـراد فى الـتقدم العلمى آليا لا يراعى شيئا من ذلك. وأثر ذلك

الاطـــراد الآلى فى الـــتقدم العلمى والتكنولوجى على صانعه فأصبح إنسانا آليا لا يعر أى اهتمام بالعواطف السامية أو بالمبادئ الأخلاقية الرفيعة!.

إنه موقف يرفض محاولات الغربيين المستمرة لطمس هوية الثقافات الأخرى وجعلها نسخا مشوهة من الثقافة الغربية ذات البُعد الواحد. ويرفض تلك النظرة المتعالية – العنصرية التى تبرز بين حين وآخر، وفى كل المواقف التى يطل منها الإنسان الغربى ممثلا فى هيئاته وشركاته وحكامه على أبناء الشعوب الأخرى، ويصنفهم إلى عالم ثانى وعالم ثالث، إلى شمال وجنوب، إلى بيض وصفر وسود ..إلخ!!.

إنه موقف يرفض أن تُقيم كل ثقافات العالم وكل نظمه السياسية وكل مبادئه الأخلاقية والدينية من منظور غربى محدود بتحقيق أهداف أيدلوجية ومصالح اقتصادية آنية.

إنه موقف يعى صاحبه أنه ليست الثقافة السائدة بالضرورة هى الثقافة الأفضل والأصلح لقيادة البشرية نحو حياة أفضل!.
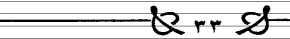
إنه موقف يعى صاحبه أن الثقافة الغربية بطبيعتها ثقافة تتخذ منحى عنصريا باستمرار وتتجه دوما فى عصور سيادتها إلى فرض نفسها بالقوة على مختلف شعوب العالم.

إنه موقف يعى صاحبه أن الحوار بين ثقافات العالم كان فى معظم فترات التاريخ حوارا سلميا ماعدا فى الفترات التى سادتها

الحضارة الغربية سواء فى عصر الإسكندر أو فى عصر أباطرة روما أو فى العصر الاستعمارى الحديث. إن تاريخ الصراع بين الغرب والشرق يمتلئ بصور شتى من عنف الإنسان الغربى وهمجيته واعتدائه على حرمات الآخر ونهب ثرواته وتخريب البنى الاقتصادية والاجتماعية له. إنه تاريخ يكشف عن أن الإنسان الغربى يقول دائما غير ما يفعل، ويفعل غير ما يقول؛ يتغنى بقيم الحب والجمال والحق وهو أبعد ما يكون بأفعاله عنها سواء فى حياته الخاصة أو فى تعامله مع الآخر!!.

إنه موقف يعى صاحبه أنه إذا كان البعض يدعو اليوم إلى الحوار بين الثقافات والحضارات، فإن هذا الحوار لا يصح أن يكون بين سيد وعبد، أو بين آمر ومأمور، بل ينبغى أن يكون حوارا تتكافئ فيه الأطراف، يعتز فيه كل طرف بثقافته وهويته الخاصة فى الوقت الذى تتلاقى فيه المصالح وتتضافر فيه الوسائل لتحقيق هذه المصالح والأهداف المشتركة.

إن ما يدعوه البعض الآن بالعولمة ليس دعوة نحو عالمية المصالح والأهداف ولا نحو مراعاة خير الكل، بل هو فى واقع الأمر دعوة إلى تكريس الوضع القائم الذى تسود فيه ازدواجية المعايير، وعدم مراعاة مصالح الآخر ولا مشاعره أو خصوصيته. إنها عولمة غربية المنشأ، غربية الأهداف، غربية الأدوات غربية

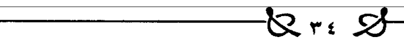


الثقافة. ولذلك فهى العولمة ذات البُعد الواحد الذى نرفضه. إنها ليست إلا الوجه الآخر للهيمنة وتكريس تبعية الآخرين لثقافة الغرب وتحقيق مصالح الغرب على حساب ثقافة ومصالح شعوب العالم الأخرى.

إن الداعين إلى العولمة من كُتابنا العرب إنما يتناسون أنه ينبغى التمييز بين مثالية وإيجابية الظاهر وبين خبث وشراسة وضراوة الباطن؛ وأعنى أنه ينبغى أن لا يخدعنا أن الأدوات - أدوات العولمة آتية لا ريب فيها، فليس من شك أن جميع شعوب العالم سوف تستفيد من ثورة الاتصالات والتكنولوجيا المتقدمة التى ستسود القرن المقبل من تبادل سريع للمعلومات والاكتشافات، إلى تبادل أسرع للأفكار والاتجاهات.

إن من حق جميع شعوب العالم أن تساير هذه الثورة المعرفية والاتصالية الهائلة وأن تستفيد من منجزاتها لأنها ليست كما يظن البعض خطأً ملكا للغربيين وحدهم، بل هى نتاج التقدم العلمى المطرد الذى شاركت فيه جميع شعوب العالم بجنسياته المختلفة. ومن ثم فهى ملك للجميع وحق يجب أن يحصل عليه الجميع وأن يستثمروه دون وصاية من أحد!.

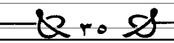
إن إيجابية هذه الثورة العلمية - المعلوماتية الجديدة لا يجب أن تخدعنا فتنسينا أنها حق يراد به باطل. فما يراد من هذه الأدوات



بالنسبة للغربيين وخاصة الأمريكيين ليس التقريب بين الثقافات وليس الحوار مع الآخر على الصعيد الفكرى، وليس تبادل السلع والمنتجات على الصعيد الاقتصادى والتجارى، وليس تبادل المصالح وتحقيق العدالة بين الشعوب على الصعيد السياسى.

أقول إن ما يريده الغربيون من هذه الأدوات ليس كل ذلك، وإنما المراد حقا، على الصعيد الفكرى هو فرض الثقافة الغربية وتحويل الثقافات الأخرى إلى ثقافات هامشية موسومة بالتخلف والجمود، أما على الصعيد الاقتصادى فالمراد هو تحويل اقتصاديات الدول الأخرى إلى اقتصاديات تابعة لا تستطيع تحقيق نموها الذاتى إلا اعتمادا على اقتصاديات الدول الغربية وبالذات الاقتصاد الأمريكى، وتحويل شعوب العالم الأخرى إلى شعوب مستهلكة للمنتج الغربى بمختلف أشكاله ونوعياته. وببساطة فالمطلوب هو تحويل شعوب العالم الأخرى إلى شعوب خادمة لا يسمح لها بالمشاركة فى الاقتصاد العالمى إلا بما تملكه من أيد عاملة رخيصة ومواد خام بأقل سعر ممكن وفى النهاية كمستهلكين نهمين لكل ما تنتجه المصانع الغربية سواء الموجودة فى بلادها الأصلية فى أوربا وأمريكا أو فى الفروع التابعة لها فى مختلف بلاد العالم!.

أما على الصعيد السياسى فالمطلوب هو أن تتحول دول العالم الأخرى إلى نماذج مشوهة من ديمقراطية الغرب، خاضعة لما يملى



عليها من قبل الدول الغربية. وإن حكمت هذه الشعوب نفسها فإنها فى الواقع إنما تُحكم بواسطة النُخَب التى ترضى عنها النُخب الحاكمة فى الدول الغربية، إن المطلوب هو حكومات تذعن ولا تناور، تطيع ولا تتمرد، تحقق المصالح الغربية دون جدل أو مناقشة!

إن هذه هى صورة الواقع العالمى الذى لا يرضى عنه الغربيون بديلا فى عالم "العولمة". والأمر ليس مجرد كلام منمق يقال وتجرى مناقشته أو الحوار حوله، بل تحول إلى قوانين دولية واتفاقيات ملزمة لجميع الدول التى توقع عليها. وليست اتفاقيات الجات إلا أحد الصور واضحة الدلالة على هذه الاتفاقيات الدولية التى تفرض الهيمنة الغربية وتكرس التبعية لشعوب العالم الأخرى.

وليست القرارات التى تصدر يوما بعد آخر عن مجلس الأمن الدولى وعن هيئة الأمم المتحدة إلا دليلا آخر ناصع الدلالة على هذه الهيمنة الغربية، وعلى البُعد الواحد الذى تصدر معبرة عنه هذه القرارات. إنه البُعد الذى يراعى فقط المصالح الغربية ويعبر فقط عن إرادة الدول الكبرى وخاصة زعيمتها المدللة الولايات المتحدة الأمريكية!!.

إذا كانت هذه هى صورة الواقع الذى لا يقبل الغربيون من خلال مفاهيم "العولمة" و "الكونية" إلا به، فماذا ستفعل شعوب العالم الأخرى لمواجهته؟!



هذا هو السؤال الذى ينبغى أن يقلق الجميع وأن يبحثوا عن إجابة له! ولاشك أن أسهل الإجابات وأرق الحلول هو الحل الذى يرى أصحابه بكل بساطة وسذاجة أن علينا أن نتعامل مع ذلك على أنه أمر واقع وليس فى مقدورنا مقاومته ومن ثم علينا أن نخضع لهذا الواقع وأن نشارك فيه بشكل أو بآخر حتى لا يدهسنا قطار العولمة فنصبح كما يقولون "خارج التاريخ"!!.

وياللعجب من هذه الإجابة الساذجة وسذاجتها فى اعتقادى تبدو فى صيغة إما .. أو التى يركزون عليها؛ فإما أن نذعن لقيم العولمة كما يراها الغربيون، وإما سنكون خارج التاريخ! والحقيقة فى اعتقادى هى على العكس من ذلك تماما لأن الإذعان لهذه العولمة والتسليم بكل ما يترتب عليها من نتائج واقعية هو الذى سيجعلنا حقا خارج التاريخ!.

إن الصيغة التى أطرحها للتأمل فى ذلك السؤال ومحاولة الإجابة عليه تبدأ من مسلمة أؤمن بها وهى أنه رغم الحوار بين الثقافات ورغم التلاقح بين الحضارات فإنه سيبقى الشرق شرق والغرب غرب، أى أن الثقافة الشرقية بقيمها الأخلاقية والدينية غير قابلة لأن تمحوها ثقافة الغرب مهما علا شأنها وتجبرت أدواتها. والتاريخ الماضى خير شاهد على ما يمكن أن نراه فى المستقبل.

وعلى ذلك ينبغى لأمم الشرق المختلفة أن تتحاور فيما بينها وتكتشف الأرضية المشتركة التى تقف عليها، فعوامل الاتحاد بينها

أكثر من عوامل التفرق، وعوامل التقارب تتغلب على عوامل الاختلاف. والمصالح أكثر تقاربا والأفق أكثر اتساعا ورحابة. وإذا ما تخيلنا تقاربا بين الشعوب الإسلامية أدى إلى تكتل اقتصادى فيما بينها، وإذا ما فعل ذلك حكام العرب رغم اختلاف النظم السياسية، فإن ذلك سيكون النواة الحقيقية للمواجهة! وإذا ما تخيلنا على نفس النحو – وهذا أمر ليس ببعيد تحققه حينما يصل الأمر إلى ذروة التحدى والضرورة الفورية للاستجابة – بأن تقاربا يمكن أن يحدث بين الصين والهند ودول شرق آسيا مع اليابان، فإن هذا سيكون بداية النهاية للعولمة ذات البُعد الواحد. وسيكون هو البداية الحقيقية لقبول الطرف الآخر لعالم واحد وثقافات متعددة. وإذا ما أسرفنا فى الخيال بعض الشىء، فإنه يمكن أن تلتقى فى منتصف القرن القادم أو فى النصف الثانى منه ثقافات الأمم الشرقية ومصالحها الاقتصادية من خلال تقارب متدرج ومحسوب الخطوات بين العرب والمسلمين من ناحية والشعوب الآسيوية والأفريقية من ناحية أخرى وحينئذ سيحسم الصراع لصالح الإنسانية ككل. فشعوب الشرق بطبيعتها هى الشعوب التى تؤمن حقا بإنسانية الإنسان، وتؤمن بضرورة الموازنة بين مطالب الروح ومطالب الجسم، وتؤمن حقا بثقافة السلام وتسلم بحتمية التطور الإنسانى نتيجة للإسهامات المتوازنة والمتوازية لكل شعوب العالم فى مختلف أنماط التقدم الذى يحرزه البشر عبر التاريخ.

إن هذا ليس كلاما طوباويا، وليس حلما من الأحلام، وإنما هو "الممكن" الذى ينبغى أن نسعى إلى تحقيقه بهدوء وباستخدام كل الوسائل التى تتيحها تكنولوجيا وأدوات التقارب والاتصال الحديثة. إننا يمكن أن نستخدم أدوات ما يسمى بالعولمة لكسر طوق الهيمنة الذى يحاول الغربيون بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لفه حول رقابنا وخنقنا به.

وعلى مفكرينا وعلمائنا فى مختلف التخصصات وفى أنحاء عالمنا العربى والإسلامى والشرقى أن يقدموا اسهاماتهم ومقترحاتهم وخططهم فى هذا الإطار، وربما يكون "مستحيل" اليوم، هو الممكن "غدا"، وربما يكون "الممكن" الذى نراه فى الغد هو "الواقع" الذى نراه فى مستقبل الأيام خلال القرن القادم إن شاء الله.

فكل ما يتطلبه ذلك هو وعى أبناء الحاضر بكل أبعاد الواقع الذى يعايشونه حتى يمكنهم استخدام كل أدواته فى كسر حاجز الخوف والتخطيط بوعى يعلو فوق المصالح الشخصية لتحقيق الأهداف القومية فى المستقبل القريب ثم فى المستقبل الأكثر بُعدا وهكذا.

إن حياة الأمم والشعوب لا تقاس بقدر ما أذعنت وسلمت قيادها للأمر الواقع، بل تقاس بقدر قدرتها على مقاومتها للوعى الزائف الذى يتشكل عبر تأثر أبنائها بالثقافة السائدة ــ الغازية،

وبقدر استعادتها لجوهر ثقافتها الأصيلة وتسلحها بأسلحة عصرها وعوامل التقدم فيه. فهذا هو ما يجعلها تقاوم الثقافة الغازية وتتغلب عليها بهضمها والتأثر بعوامل التقدم الإيجابية، وليس بظواهرها السلبية.

إن حياة الأمم والشعوب تقاس بمدى الاستجابة الإيجابية التى يستجيبون بها لما يفرض عليهم من تحديات. وعلى حد تعبير توينبى، فعلى قدر التحدى ينبغى أن تكون الاستجابة، والتحدى الذى يفرضه غرور وغطرسة الغربيين على الشعوب العربية والإسلامية والشرقية عموما هو فى اعتقادى أكبر تحدى واجهناه على مر التاريخ لأنه ليس مجرد تحدى لقوة عسكرية غاشمة يمكن أن نواجهها ونهزمها فى ميدان حربى وباستعداد عسكرى، وإنما هو تحدى شامل متعدد الجوانب يفرض علينا ضرورة الاستجابة الشاملة بالتقدم فى مختلف مجالات الحياة على نفس النحو وبدرجة متسارعة بأقصى قدر من الجدية والطموح.

ولعل القارئ العزيز يجد فى هذه الدراسات والمقالات العشرين إجابة على بعض تساؤلاته الخاصة بكيفية الوعى بالتحديات المفروضة علينا، والخاصة بكيفية مواجهة هذه التحديات والتغلب عليها. إن بها مجرد وجهة نظر لصاحبها وتحتاج لمن يناقشها ويضيف إليها حتى تكتمل صورة الوعى التى نطمح إليها. فليس

الوعى الفردى بهذه القضايا وبطبيعة التحديات هو المطلوب وحده لكى نواجه هذه التحديات بالاستجابات المناسبة لها؛ إذ لابد أن تتسع مساحة الوعى لدى الأفراد شيئا فشيئا حتى يتشكل الوعى الجماعى الذى يمكنه وحده تكوين هذه الاستجابات القادرة على المواجهة.

والحقيقة أن مشكلات كثيرة تحول دون اتساع مساحة الوعى لدى أفراد مجتمعاتنا العربية والإسلامية، إذ لابد أن نعترف أن انتشار الأمية والفقر وأمية بعض المثقفين وأنانية النخب الحاكمة وغياب الحريات وسطحية الأجهزة الإعلامية وغياب الوعى لدى معظم القائمين عليها هى ظواهر ومشكلات حادة تعانى منها مجتمعاتنا ولابد من التخلص منها والتغلب عليها إذا ما تولدت لدينا إرادة التحدى. فالتخلص من هذه المشكلات هو أبسط ما يواجهنا من تحديات، وهو البذرة الخصبة التى يولد فيها الوعى الجماعى ومن ثم الاستجابة الجماعية للتحديات الأهم الملقاة على عاتقنا.

ولست ممن يميلون بطبعهم إلى التشاؤم، بل على العكس إننى أميل إلى التفاؤل بمستقبل أمتنا العربية والإسلامية؛ فبقدر قتامة الحاضر وبقدر كثرة الضربات الموجعة التى نواجهها يوما بعد يوم وازديادها عن الحد الذى يمكن تحمله، بقدر ما سيتولد لدى أبناء هذه الأمة تلقائيا ضرورة التحدى لكل هذه المشكلات وضرورة الاستجابة المناسبة لها. فلاشك عندى أن قتامة وظلام الحاضر هما ما سيولد

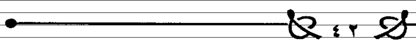
عنهما بالضرورة ضياء المستقبل واشراقه، بالضبط كما أن الليل الحالك الظلام يولد بداخله شروق نهار اليوم التالى.

وإنى لألمح فى الأفق جيلا جديدا يتشكل فى رحم هذه الأمة، هو الأقدر على امتلاك أدوات العصر، والأكثر تحررا من قيود التخلف والجمود، سيكون هو الأكثر قدرة على مواجهة التحديات والاستجابة لها. وكل المطلوب هو أن نعمل بجد وتجرد على تمهيد الأرض وبذر البذور لكى يولد هذا الجيل القادم متسلحا بالوعى الضرورى لهذه المواجهة.

وكل الرجاء فى أن يكون بهذه الصفحات التى أقدمها لكم بعض ما يمهد الأرض ويهيئ التربة لخلق هذا الجيل الجديد المنشود.

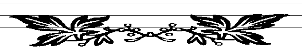
والله المستعان
وهو من وراء القصد

د. مصطفى النشار
مدينة نصر ـ القاهرة
فى ١١ محرم ١٤١٩هـ الموافق ٧ مايو ١٩٩٨م



(١)

بين "الفكر" و "الثقافة"(*)



(*) نشرت معدلة بصحيفة الأهرام (؟) - ثم نشرت كاملة بمجلة العربى التى تصدر بالكويت - العدد ٣٦٩ فى أغسطس ١٩٨٩م.

بين "الفكر" و "الثقافة"

عادة ما نخلط بين مفهوم "الفكر" ومفهوم "الثقافة" ونستخدمهما كمترادفين؛ فلا نميز بين "الفكر" و "الثقافة"، بين "المفكر" و "المثقف"، فكل مثقف ندعوه مفكرا وكذلك فكل مفكر مثقف، والحق أنه إن جازت الثانية فلا تجوز الأولى.

ولقد شغلنى الأمر فنظرت فى العديد من الموسوعات والمعاجم، ولشد ما كانت دهشتى حيث وجدت أنها لا تقدم تمييزا واضحا بين هذين الاصطلاحين؛ فقد عرفت "دائرة المعارف الحديثة" الثقافة بأنها "لفظ شاع استخدامه حديثا ويقصد به مجموع صفات كالمعرفة والبصيرة والذوق السليم"، وعرفت الرجل المثقف بأنه ذلك الذى "يجمع بين تلك الصفات أو يقترب منها". وقد اعتمدت فى ذلك التعريف على الاشتقاق اللغوى للكلمة حيث إن "الثقافة فى اللغة بمعنى التأدب والذكاء، فنقول ثقفت الحديث أى فهمته بسرعة".

وإذا نظرنا فى ذلك التعريف فسنجد أنه ليس تعريفا؛ فهو لا يكشف عن ماهية معينة أو مدلول ثابت لما نطلق عليه "ثقافة"، بل هو نظر إلى الثقافة من حيث إنها صفة أو صفات تحمل على موضوع معين، وغلب عليها فى التعريف السابق الصبغة الأخلاقية.

أمـــا "الفكـــر" فقد اكتفت الموسوعة بإيراد بعض مشتقات اللفظ ومـــترادفاته كالـــتأمل والتفكير والتفكر ثم قالت "إن التفكير من أبحاث عـــلم الـــنفس وهـــو عملية عقلية نزوعية تهدف إلى كشف حقيقة كل مشـــكلة مـــن المشـــاكل الـــتى تعترض الإنسان، لهذا كان التفكير من الصـــفات الـــتى ينفرد بها الإنسان، إذ أن التفكير يحتاج إلى استجماع لتجارب الإنسان الماضية وإدراك العلاقات بينها فى ضوء حقيقة ماثلة أمـــام الفرد، فكل عملية تفكير هى فى الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة مـــن ثنايا حقيقة قديمة أو جملة حقائق ومثاله محمد أطول من محمود، وحســـين أطول من محمد إذن حسين ولا شك أطول من محمود. فهذا الاســـتنتاج الأخيـــر هـــو حقيقة اكتشفها العقل بالتفكير وذلك بمقارنة الحقيقـــتين الســـابقتين، وإذا شاهد إنسان البرق وسمع الرعد وقال إن الســـماء ســـوف تمطر. فإن هذا الاستنتاج وصل إليه من مقارنة هذه المشـــاهدة الحسية بالحقيقة العامة وهى أن البرق والرعد مقدمة لسقوط المطـــر .. فالـــتفكير فى جميـــع صوره ما هو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التى تواجهه".

وهذا أيضا ليس تعريفا للفكر، فقد تطرق المُعرفون إلى تحليل لـــبعض العمليات الفكرية فكأنهم تركوا الحديث عن ماهية ما نسميه "فكر" واستدلوا عليه بالنظر فى أمثلة عليه كالاستنتاج أو الاستنباط، فهـــذه عمـــليات فكـــرية وليســـت هى "الفكـــر"، فقد فعلوا ما فعله "أوطيفـــرون" حيـــنما ســـأله سقراط عن ماهية التقوى، فقال أنها فى

التقرب إلى الآلهة بممارسة الطقوس وتقديم القرابين لها. فكان رد سقراط أن ذلك مثالا سلوكيا على ما نسميه التقوى لكنه يريد أن يعرف من أوطيفرون ما الذى يجعل التقوى تقوى؟! إن هذا هو أساس التعريف.

وإذا تركنا هذه الموسوعات العامة وانتقلنا إلى المعاجم المتخصصة فسنجد نفس الشيء وإن كنا نقترب هنا من التحديد المطلوب؛ فالمعجم الفلسفى الذى أصدره مجمع اللغة العربية قد عرف "الثقافة" بأنها "كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو فى المجتمع وتشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق وجميع القدرات التى يسهم بها الفرد فى مجتمعه، ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية ولكل جيل ثقافته التى استمدها من الماضى وأضاف إليها ما أضاف فى الحاضر وهى عنوان المجتمعات البشرية ويفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الأولى ذات طابع فردى وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية فى حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعى ومادى".

وهنا نلاحظ أنه ربما كان القول بأن الثقافة هى كل ما فيه استنارة للذهن يشير بالفعل إلى ماهية صورية للثقافة – تشير إليها لفظة "ما" التى لم يحدد المُعرف محتوى لها – من حيث إن الثقافة

تعنى كما قال دلتاى اتساع المعرفة والوعى. ولكن استطراد المُعرف أفسد التعريف حيث تطرق إلى استطرادات زائدة عن الحاجة من جهة، كما ميز فى هذه الاستطرادات تمييزا غير موفق بين الثقافة والحضارة حينما قال بأن الأولى ذات طابع فردى والثانية ذات طابع اجتماعى، فهو نفسه قد قال قبل ذلك بأن الثقافة لدى الفرد أو فى المجتمع، فهناك ثقافة الفرد وثقافة الأفراد التى تتشكل منها ثقافة المجتمع ككل؛ فأى ثقافة لا تنفصل فيها ثقافة الفرد عن ثقافة مجتمعه إن كان هناك التوافق المطلوب بين الفرد ومجتمعه.

أما "الفكر" فقد عُرف فى هذا المعجم بأنه "بوجه عام، جملة النشاط الذهنى من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة. وهذا هو المعنى الذى قصده ديكارت بقوله "أنا أفكر إذن أنا موجود". وأنه "بوجه خاص ما يتم به التفكيرمن أفعال ذهنية، أسمى صور العمل الذهنى بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق".

وواضح أن هذا التعريف يشتمل على دور منطقى؛ فقد عرف الشيء بنفسه فالفكر هو "التفكير" أو "مايتم به التفكير من أفعال ذهنية"، كما أنه اعتبر أن الوجدان والإرادة والعاطفة من الفكر. وكم من فروق بينها وبين الفكر. كما أن المُعرف قد استدل على معنى "الفكر" بعبارات شعورية أطلقها أحد المفكرين.

وعلى أى حال، فنحن لم نذكر هذه التعريفات لمجرد نقدها، بل ذكرناها لنوضح أننا كثيرا ما نستخدم الكثير من الألفاظ بمعنى واحد رغم اختلاف مدلولاتها فعلا. وكثيرا ما تختلط أمامنا المفاهيم لعدم دقتنا فى استخدام الألفاظ بحيث يترتب على ذلك أن نستخلص نتائج خاطئة نتيجة لذلك اللبس فى معانى الألفاظ المستخدمة.

وربما يكون من المناسب بعد ذلك أن نطرح ما نراه مميزا بين "الثقافة" و"الفكر"؛ فإن الثقافة هى جميع المعتقدات والأفكار التى يتوصل إليها الفرد نتيجة اطلاعاته المختلفة حول طبائع الأمور سواء كانت طبيعية أو سياسية أو أخلاقية أو دينية. إذ أن الثقافة ــ فى اعتقادى ــ تابعة للفكر وليس العكس كما يتصور البعض؛ فالثقافة التى تتشكل لدى الأفراد والجماعات فى أى عصر من العصور يصنعها مفكرو هذا العصر أو ذاك، ويتلقاها هؤلاء الأفراد فيتشكل بناء عليه وعيهم وتتسع مداركهم وتنمو أفكارهم وتتجدد، ومن ثم يلقبون بالمثقفين.

وإذا أردنا فى ضوء ذلك أن نحدد معنى "الفكر"، فهو ــ كما فى تعريف المعجم الفلسفى ــ أسمى صور العمل الذهنى، حيث يرتبط الفكر بالإبداع، فالمفكر هو المبدع الذى يستطيع بتأملاته الخروج عن دائرة المألوف. ويرى من أبعاد أى موقف ما لا يراه

بقية الناس، ومن ثم فهو الذى يتحمل تبعة إنهاض معاصريه وإيقاظ وعيهم باستمرار والاتجاه بهم - عن طريق ما يقدمه لهم من أفكار جديدة - إلى آفاق أرحب وأفضل. وبالطبع فإن كل مفكر مثقف، ولكن العكس غير صحيح؛ فالمثقف يتلقى نتاج فكر عصره ويفهمه، وإذا نجح المثقف فى أن يزيد من وعى معاصريه من خلال نقل هذا الفكر إليهم يكون قد أدى دوره كاملاً، وليس معنى ذلك أن نلقبه بالمفكر.

وإذا ما أدركنا ذلك الفرق بين "المفكر" و "المثقف" يمكن أن نتصور علاقة الفكر والثقافة بالحضارة؛ إذ أن كثيرا من الناس يتصورون خطأ أن الثقافة هى التى تخلق الحضارة وأن المثقفين هم روادها ومبدعوها، ويقيسون تحضر المجتمع بما فيه من مثقفين!!.

إن الحضارة بمظاهرها المتعددة من فلسفات وفنون وآداب وعلوم يبدعها الفلاسفة والمفكرون والعلماء. وفى كلمة واحدة يبدعها الأفذاذ فى كل ميدان من الميادين. ولا شك فى أن ظهور الفكر الجديد والمنهج الجديد هو نقطة البدء لأى حضارة ناشئة أيا كانت. وانظر فى كافة حضارات العالم قديمها وحديثها ستجد أنها قامت أول ما قامت على فكر جديد ومنهج جديد قدمه مفكروها وفلاسفتها وكان أن ساد هذا الفكر وذلك المنهج فأصبح هاديا للعلماء والأدباء والفنانين ثم صار حياة يحياها المثقفون أولا فالرجل العادى ثانيا.

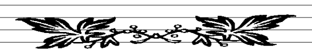
ولكى نتمثل ما سبق يجب أن يقر فى أذهاننا الفرق بين "الحضارة" و"المدنية". والفرق بينهما يكمن فى أن الحضارة هى فى ازدهار تلك المظاهر التى عددناها من قبل دون التساؤل عن منفعتها وماتحققه لنا من اشباع مادى. أما المدنية فهى ليست تلك المظاهر الحضارية فى ذاتها، بل تبدو حينما نتساءل عن تلك المنفعة المادية التى نجنيها منها؛ فكأن لكافة مظاهر الحضارة جانبها الحضارى، وجانبها المدنى التقنى النفعى. وكثيرا ما نبه الفلاسفة وعلى رأسهم شبنجلر أن الحضارة إذا ما وصلت المدى النهائى فى إبداعاتها وتحولت إلى مدنية كان فى هذا بداية انحلالها فكأن "المدنية" تمثل مرحلة انحلال وانهيار "الحضارة"، وما ذلك إلا لأن التركيز فى تلك المرحلة يكون على الجانب المادى النفعى ويتوارى دور المفكر المبدع؛ فتقديم هذا الجانب المادى النفعى ليس مسئولية المفكرين والمبدعين، بل هو مسئولية رجال التخطيط والتنفيذ، ففرق كبير إذن بين أن يكون لدينا "فكر" و"حضارة"، وبين أن يكون لدينا "ثقافة" و "مدنية"؛ فالأولى علامتها الإبداع، والثانية علامتها الاتباع.

وقد يكون الأمر هينا ويمكن تداركه إذا ما كنا نتبع فى ثقافتنا فكرنا، وفى مدنيتنا حضارتنا. ولكن الواقع يقول أننا نتبع فى ثقافتنا فكر غيرنا، وفى مدنيتنا حضارة غيرنا. فما أسباب تلك الحالة التى نعيشها، وهل من مخرج؟؟



(٢)

فكر "السادة" ....
وثقافة "التابعين"(*)



(*) نشرت أيضا معدلة بجريدة الأهرام (؟) ـــ ثم نشرت كاملة بمجلة العربى التى تصدر بالكويت ـــ العدد ٣٥٩ ــ أكتوبر ١٩٨٨م.

فكـــر "الســادة"
وثقــافــة "التابعين"..

لقد قر فى أذهاننا منذ مطلع العصر الحديث أننا لكى نلحق بركب الحضارة لابد أن نساير الغرب سواء مسايرة تامة أو نحاول التوفيق بين ما ننقله عنه من مناهج وفلسفات وبين عناصر تراثنا الفكرى الإسلامى الأصيل. ولست أشك فى مدى إخلاص دعاة ذلك، فهم حاملو مشاعلنا ومن أناروا أمامنا طريق التقدم فى وقت كانت حلقة الإظلام والتعتيم علينا محكمة محكمه، وما زلنا إلى اليوم نؤمن بأهمية أن نتبعهم وأن نبدد ما تبقى أمام أعيننا من غشاوة وقتامة حتى نرى أنفسنا بصورة أفضل، ومن ثم نرى الغرب فى صورته الحقيقية.

وكل ما سأحاوله هنا هو أن أكشف أمام نفسى وأمامكم أعماقا أبعد لعلاقتنا بالغرب وعلاقة الغرب بنا.

فمنذ أن ظهرت على وجه الأرض أمة اليونان واستطاعت بذكاء شديد أن تبلور فكرها الخاص من خلال ما جمعته من فكر حضارات الأمم السابقة لها والتى كانت آنذاك فى طور من الانهيار؛ تعيش مدنية هى بواقى حضارات أفرغت محتواها. منذ ذلك التاريخ

قدم اليونانيون أنفسهم للعالم على أنهم هم المبدعون للفلسفة والعلم والآداب والفنون؛ فمنهم كان هوميروس وهزيود من الشعراء، ومنهم كان طاليس وفيثاغورس وبارمنيدس وبروتاجوراس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون من الفلاسفة، ومنهم كان ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيدس من كتاب المسرح .. إلخ. ومن ثم فقد تصوروا، بل وعاشوا مقتنعين بأنهم هم سادة العالم وأحراره، وأن من عداهم من شعوب وأمم وقبائل ليسوا إلا برابرة وعبيد، فهم – أى اليونانيون – وحدهم من يصلحون للتأمل والفكر والقيادة والسياسية والعسكرية، ومن عداهم من أمم الشرق لا يصلحون إلا للرق والعبودية. وقد تناسوا آنذاك أن منهم من كان الأجير، والمرتزقة عند ملوك مصر القديمة، ولم يكن ذلك بالتاريخ البعيد؛ فقد كان آخر عهدهم بذلك فى عصر الدولة الحديثة وعصر أبسماتيك الأول مؤسس الأسرة الصاوية فى عام ٦٦٤ قبل الميلاد.

ولقد كان لفيلسوفهم وعالمهم أرسطو فضل ترسيخ تلك الصورة على أنها إعجاز يونانى غير مسبوق فى كافة ميادين الحضارة، وقدم منطقه على أنه كما بدا له أحيانا ولتلاميذه وشراحه دائما هو المنطق العام لضبط الفكر الإنسانى، وفلسفته على أنها الفلسفة التى يجب أن يعتنقها كل البشر، وعلمه على أنه العلم الذى يجب أن يتفهمه ويبرهن عليه ويستكمله ويسير على نهجه كل

العلماء. وقد زاد أرسطو تأكيد تلك المعجزة اليونانية وذلك التفوق بمبادئ فلسفته السياسية؛ حينما اعتبر المواطن اليونانى هو مثال المواطن بما لديه من قدرة فكرية مبدعة ومالديه من خبرة فى المشاركة السياسية. وبلغ من عنصريته أن أجاز الحرب لليونانيين فى حالة واحدة فقط هى حالة نقص العبيد والأرقاء فى المدينة. فليحاربوا من أجل "اصطياد الأرقاء والعبيد" مختلف الشعوب.

وإن كانت تلك المعجزة الفكرية قد اكتملت لدى أرسطو نظريا، فإن تلميذه الإسكندر الأكبر قد فرضها واقعاً ملموساً بانتصاراته العسكرية التى جعلت امبراطوريته تمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى تخوم الصين والهند. ورغم ما يقال من حلو الكلام عن عظمة الإسكندر بأن خلقه كان الدعوة إلى الإخاء والمساواة بين بنى البشر، وأن دينه كان التوحيد، وأن هدفه صهر الحضارتين الشرقية والغربية وتكوين دولة عالمية واحدة، رغم كل ذلك فقد كان الإسكندر يحمل نفس عنصرية اليونانى الفكرية التى فاقت أحيانا عنصرية أستاذه. بل إنه كان يفضل ذلك التفوق الفكرى على كل ما حققه من مجد سياسى وعسكرى؛ فهذا هو الإسكندر يكتب رسالة لأرسطو – نشرها بلوتارخ فى الجزء الثانى من كتابه "السير" – يقول له فيها: "إنك لم تحسن صنعا بنشرك كتبك فى نظريات الخطابة – إذ ما الذى بقى لنا مما نمتاز به على الآخرين إذا أتيحت تلك الأشياء التى

تخصصـــنا فى معرفـــتها للجميع؟ إنى أؤكد لك أنى من ناحيتى أوثر أن أمـــتاز عـــلى الآخـــرين بمعرفة ما هو ممتاز على كل اتساع فى قوتى وامتداد لسلطانى".

ولعلنا قد أدركنا من هذه الكلمات المباشرة للإسكندر. أنه لم يكن يستهدف – كما هو شائع – نشر الفكر اليونانى فى الشرق بقدر ما استهدف التعرف على "هؤلاء البرابرة" وضمهم إلى دولته، وليقضى على ما بقى فى حوزتهم من تميز فكرى. ولاضير فى أن يتشكل أحيانا تشكلا زائفا، فيرتدى ملابسهم أحيانا، ويتقرب إلى آلهتهم أحيانا أخرى، ولا ضير فى أن يتزوج منهم ويوحى إلى قواده بأن يتزوجوا منهم أيضا!! لقد كان كل ذلك وسيلة لغاية أبعد هى تأكيد سيادة الجنس اليونانى فكراً وعقيدة.

ولشد ما أعجب بعرب الجزيرة العربية العظماء الذين أنار الدين الجديد عقولهم وحرر أخلاقهم، وجدد هممهم، فحملوا لواء حضارة فتية جديدة أساسها الإيمان الحق بإله واحد، وبالأخوة والمساواة العالمية (فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى). ولم يكن ذلك مجرد إيمان نظرى بشريعة إلهية .. بل عاشوها حياة حقيقية وسلوكا لا يعرف التشكل الكاذب ولا النفاق ولا الخبث. وسرعان ما سادوا العالم قولا وعملا بقوة الإيمان قبل قوة السلاح فاشتقوا لأنفسهم طريقا حضاريا جديدا وأصبح العصر عصرهم؛

فالفكر فكرهم، والعلم التجريبى علمهم، والمجتمع السياسى الحق أساس دولتهم الكبرى، وأخلاق القرآن حياتهم. وسرعان ما أقبلوا على فكر هؤلاء الإغريق فنقلوه ثم شرحوه وفهموه فهضموه. وبعد الشراح ظهر المبدعون؛ ففى الفلسفة ظهر الغزالى بعد الفارابى وابن سينا ، وظهر ابن خلدون بعد ابن رشد. وفى العلم ظهر جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن البيطار وابن النفيس وغيرهم. وكان رجال الفقه والقانون الذين نقلت أوربا تشريعاتهم وقوانينهم، وكان رجال السياسة الأفذاذ كعمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان، وكان العسكريون العباقرة كخالد بن الوليد وطارق بن زياد .. إلخ. وكذلك كان الشأن فى مختلف الآداب والفنون والعلوم.

وإن كان الحال فى العصر الوسيط قد تغير من جانبنا وصار المسلمون بحق هم سادة العصر ومعلميه دون تعالٍ ودون عنصرية فإن الغربيين ظلوا على عنصريتهم وعنجهيتهم القديمة؛ فقد نقلوا عنهم وأنكروا، وأخذوا منهم ما أخذوا ولم يظهروا لذلك أثراً؛ فإن أردت أن تبحث عن اسم أحد التجريبيين العرب فى مؤلفات روجر بيكون أو فرنسيس بيكون فلن تجد، وإن حاولت أن تبحث عن اسم أبى العلاء المعرى فى كوميديا دانتى الإلهية فلن تجد، وأن تصورت أنك يمكن أن تجد اعترافا بالتأثر من جانب قانونى أو سياسى غربى، أو لدى أى عالم أو فيلسوف فأنت واهم!! فهم لا يعترفون لأحد بأى

فضل. ولا يذكرون غيرهم إلا حينما يكون وسيطا كابن سينا أو ابن رشد ينقلون من خلاله فكر أسلافهم.

لقد تصوروا أنهم صانعو عصر النهضة الغربية بابداعاتهم هم فقط وببعض ما أحيوه من أفكار أسلا فهم من اليونانيين، وأنهم لم يستفيدوا شيئا من المسلمين أومن الشرق ـ اللهم إلا بعض شروح لأرسطو أو لجالينوس وإضافات طفيفة لابن حيان وابن الهيثم. إنهم ظلوا فى نظر أنفسهم هم سادة الفكر وقادة العالم إلى التنوير والانتقال من عصور الظلام (العصر الوسيط كما ينظرون إليه) إلى عصر العلم التجريبى والفلسفة العقلانية الحديثة. وليست الحضارة الغربية بكافة مظاهرها إلا سليلة للحضارة الغربية القديمة (الحضارة اليونانية).

و شيئا فشيئا، وكما فعل أجدادهم، طمسوا الحقيقة الناصعة ـ حقيقة العصور الإسلامية الرائدة المبدعة ـ وجعلوها باهتة قاتمة. ومرة أخرى صوروا لأنفسهم وللعالم أنهم صانعو مجد الإنسان الحديث وحدهم وإنهم من بين بنى البشر من يملكون قدر البشرية كلها، فلابد أن ينصاع العالم لهم وأن تسلمهم البشرية قيادها. إنهم لا يزالون السادة وماعداهم من التابعين؛ إنهم يملكون وحدهم الفكر والإبداع، وغيرهم يستورد ما يصدرونه له من نفايات المدنية وتافه الثقافة وأحط الأخلاق حتى يتشكل الجميع بنموذج غربى زائف.

وقد تحقق لهم ما أرادوا إلى حد كبير؛ فلم يعد الشرقى شرقيا بأصالته، ولا العربى عربيا بعروبته، ولا المسلم إسلاميا فى إسلامه، لأن كلا فقد الارتباط بجذوره الأولى وأصبح كريشة عالقة بالهواء تدفع بها رياح التغريب إلى أى اتجاه تشاء. فالجميع رضى لنفسه الاتباع بدلا من الإبداع؛ حينما رضى لنفسه الثقافة بدلا من الفكر، والمدنية بدلا من الحضارة.

وقد برع الغربيون بمؤسساتهم ومستشرقيهم فى غزونا ثقافيا بعد أن غزونا عسكريا واقتصاديا بعدما تيقنوا أن ذلك الغزو الثقافى أشد أنواع الغزو فتكا وأطولها أمدا. نجحوا فى غزونا بكل وسائل دعايتهم واعتمدوا فى ذلك لا على فكرتهم عنا فحسب — وهى فكرة أساسها أنهم المبدعون ونحن التابعون — بل على فكرتنا نحن عن أنفسنا وهى لم تعد مختلفة عن الأولى؛ لأنه قد قر فى أذهاننا كما قلت فى البداية أنه لا مفر من أن نتبع الغرب إن أردنا أن نتقدم.

وعلى ذلك فقد أصبحنا نقبل منهم كل شىء دون روية أو تدبر؛ فإن ظهر هناك أديب من الدرجة العاشرة وأعطوه جائزة نوبل لأسباب سياسية أو ما شابه ذلك نقلنا كل أعماله وقلدناه. وإن ظهر هناك مذهب فلسفى جديد سارعنا إلى ترجمته وأصبح موضة نتمثلها ونقيم أنفسنا بمقدار ما نقلنا عنه أو ما استطعنا تمثله منه، أو بمقدار استطاعتنا التشدق بمصطلحاته الإفرنجية رغم أنه ربما يكون أبعد ما

يكون عن بيئتنا وواقعنا، بل ربما يكون نقله فى غير صالحنا، وفى أفكاره هدم لنا وقضاء على تقدمنا ونهضتنا، وفقدان لهويتنا.

ولا يظن أحد أننى من دعاة الانعزال. ورفض كل ما هو غربى. فهذا أبعد ما يكون عن قصدى الآن. بل كل ما فى الأمر أننى أردت أن أدلل على أننا بالفعل لا نقَيم أنفسنا إلا بما نتمثله من الغرب وبمعايير الغرب، وفى هذا يكمن الداء، داء التبعية ..

وهو داءٌ لو تعلمون خطير، ونتائجه أكثر خطورة؛ فنحن لم نعد ننظر لأنفسنا على أننا أهل للإبداع!! بل أصبحنا ننظر لأنفسنا على أننا عاجزون عن مجاراة الغربيين في كل شيء، فمابالك بالخروج عليهم!!.

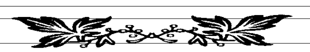
إن المفكر المبدع إن ظهر فى مجتمعنا حاربناه ولم نعطه فرصة النمو والإبداع فى حرية واستقلال عن النموذج الغربى، بل اتهمناه بالتخلف والنكوص. وإن ظهر لدينا عالم فذ اتهمناه بأنه ربما سرق من الغرب، وضيقنا عليه الخناق حتى يهجرنا إلى حيث يجد كل الرعاية فى الغرب فيصبح إنتاجه ملكا لهم ويصدر باسمهم. وأحيانا ما يخطئ الكثيرون ويتصورون أنه القدر؛ فقد كُتب علينا فى ظل هذا التقدم العلمى الرهيب للغرب بأن نظل تابعين لا مبدعين.

ولكن الحق أننا قد حمّلنا القدر ما لا ذنب له فيه وما أشفقنا على أنفسنا من حمله، إن مشوار الألف ميل كما يقال دائما يبدأ

بخطوة، وأول الخطى هى أن ننفض عن أنفسنا غبار التبعية بعد أن نخرجه من أدمغتنا وأوصالنا، وهنا يجب أن يكون دور المفكر الرائد المستقل؛ الذى إن درس الفكر الغربى لا يتشكل به ولا يلبس عباءته؛ دور العالم المرتبط ببيئته والعاشق لها، الذى إن اطلع على النظريات الغربية أو درس فى جامعات الغرب عاد إلى تلك البيئة ليستخرج منها أقصى امكانياتها، ويعيد تشكيلها من جديد إن كان ذلك ممكنا؛ دور الأديب الذى إن اطلع على الأدب الغربى لا ينبهر بأشكاله أو بمضامينه، بل يكون انبهاره بما تزخر به بيئته الشعبية الأصيلة من موضوعات ومضامين قل أن يوجد مثيلها فى العالم .. فهل نحن فاعلون أم سنظل ندور وندور فى تلك الدائرة المفرغة التى أرغمنا على دخولها أو أدخلنا أنفسنا فيها ولا هى منا ولا نحن منها!!؟

(٣)

موقفنا من الفكر الغربى ..
تحليل معرفى (*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام . ؟.

موقفنا من الفكر الغربى

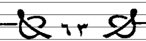
تحليل معرفى .....

إن قضية "الهوية الثقافية المصرية" قضية بالغة الأهمية، لما لها من تأثير مباشر على هويتنا ككل؛ فلو استطعنا تحديد هويتنا الثقافية الحقيقية وتمثلناها جيداً لاستطعنا أن نعرف بالتالى هل لنا هوية فى نظامنا التعليمى، أو فى نظامنا السياسى، أو فى نظامنا الاقتصادى ... إلخ!!.

فالهوية الثقافية تمثل بلا شك مركز الدائرة بالنسبة للهوية المصرية إذا أردنا لها أن تكون فى حاضرنا ومستقبلنا كما كانت لنا فى ماضينا. وسأقتطع لنفسى قضية هى فى اعتقادى جوهر تلك القضية العامة، ألا وهى موقفنا من النتاج الفكرى للحضارة الغربية المعاصرة. وهى قضية كثر الحديث حولها حتى بلغنا فيها درجة الملل، وذلك الملل فى اعتقادى يرجع إلى أننا لخصناها فى إطار قضية قتلت بحثا دون جدوى وهى "الأصالة والمعاصرة"، حيث تتابعت أحاديث المتحدثين وكتابة الكاتبين حول المواقف الثلاثة المحتملة؛ فإما يقفون موقف المتقوقع داخل ذاته الرافض للتراث الغربى القديم منه والحديث، وإما يقفون موقف المنبهر بالثقافة الغربية ومنجزاتها فيطالبون بأن نكون غربيين منهجا وموضوعا،

وأما الموقف الثالث والذى يمثله المعتدلون من المفكرين فهو محاولة المزج بين الموقفين السابقين، حيث يرون ضرورة أن نكون معاصرين فى تصوراتنا ومنهجنا وأصلاء فى إحياء ما هو صالح من تراثنا للحفاظ على هويتنا الحضارية.

ولكنى أرى أن للقضية وجها آخر يبدو إذا ما نظرنا إليها من زاوية "نظرية المعرفة"؛ حيث إننا نميز فيها بين عارف ومعروف، بين ذات هى التى تعرف، وموضوع هو الذى نعرفه سواء كانت أداة المعرفة هى الحواس أو العقل أو الحدس أو بهم جميعا. وإذا ما طبقنا ذلك على معرفتنا بجوانب الحضارة الغربية المعاصرة، لكان من الضرورى أن نميز بين "ذاتية العارف" و "موضوعية المعروف"، أو بين "ذاتية الشارح" و "موضوعية المشروح"؛ فما أنتجه التراث الغربى الحديث والمعاصر يمثل بالنسبة لنا باستمرار مادة موضوع المعرفة، وقد درجنا على أن ننقل هذا الموضوع (بكافة مضامينه وأشكاله) ونتوحد معه خاصة فى مجال العلوم الإنسانية؛ فعالم الاجتماع مثلا ينقل النظريات الغربية كالوضعية والماركسية والبراجماتية. ويحاول أن يلوى عنق ظواهرنا الاجتماعية لتعطيه نفس النتائج التى تتلاءم مع ما يؤمن به من نظريات غربية. وكذلك يفعل علماء الاقتصاد وعلماء النفس وعلماء السياسة وعلماء التاريخ.. إلخ.



وإن كان هناك من يعون خطورة هذه المسألة ويحاولون البدء فى دراساتهم من واقعنا الاجتماعى أو الاقتصادى أو التاريخى .. وهكذا، فإنهم قلة لم يتوافر لهم المناخ المناسب للعمل كفريق مؤثر فى مجال دراساتهم.

وخطورة هذا التيار العام السائد الذى يتوحد فيه الدارسون مع الدراسات الغربية ويتخذونها كأنموذج ينبغى أن تبنى عليه دراساتهم، تبدو مما فى هذا الاتجاه من عدم التمييز بين "موضوعية المعروف" و "ذاتية العارف"؛ فإن كان علينا أن نلم إلماما واسعا بالدراسات الغربية فى مختلف مجالات العلوم الإنسانية، فلا يجب أن يمثل هذا الإلمام عائقا أمام معرفتنا واكتشافنا لذاتنا، والتركيز على إفراز نظريات ومدارس خاصة بنا ندرس من خلالها مجتمعنا واقتصادنا وتاريخنا ..إلخ.

وفى اعتقادى أننا لن نصل إلى هذه الدرجة الناضجة من العلم إلا بعد إدراك تلك الحقيقة الهامة المتمثلة فى أن ما قدمه التراث الغربى من نظريات هى فى عمومها نظريات غير صالحة للتطبيق علينا، وعدم صلاحيتها نابع من أن لكل مجتمع ظروفه الخاصة وسيكولوجيته الخاصة وفكره الخاص، بالإضافة إلى أن لكل مجتمع عاداته وتقاليده وقيمه الخاصة. ونحن حينما نطبق تلك النظريات الغربية على أنفسنا نخطئ هذا الخطأ المزدوج؛ خطأ عدم التمييز بين النظرية والتطبيق، وخطأ يتمثل فى عدم الثقة بالنفس وبالتالى فقدان القدرة الذاتية على العطاء والإبداع والإضافة.

إن ثمة فارقا هاما بين أن ندرس تلك النظريات الغربية لنتمثلها ونهضمها ونفيد منها على المستوى النظرى، وبين أن ندرسها ونفسر أنفسنا من خلالها أى أن نتخذها قوالب نضع أنفسنا داخلها.

وربما يكون من المفيد هنا أن نعود إلى مثل حضارى نتفهم القضية من خلاله، وأوضح مثل لدينا هو حضارتنا الإسلامية فى العصر الوسيط. لقد كان أمام العلماء والفلاسفة المسلمين تراثا غربيا زاخرا هو التراث اليونانى. ولا شك أن أجدادنا قد شغلتهم القضية التى تشغلنا الآن: أينقلون عن اليونانيين إبداعاتهم، أم يتقوقعون داخل ذاتهم! وكان الحل لديهم إيجابيا وفعالا؛ فنقلوا معظم الإبداعات اليونانية فى مجال العلوم المختلفة، ولكن هل نقلوها لتمثل قيداً أمام إبداعاتهم هم؟!

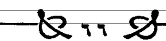
النظر فيما أنتجوه يؤكد أنهم أدركوا هذا التمييز بين "موضوعية المشروح" و "ذاتية الشارح". وإذا ما أخذنا مجال الفلسفة كمثال؛ فسنجد أن الفلاسفة الإسلاميين قد شرحوا أرسطو بدءاً من الكندى، الفارابى، ابن سينا، حتى ابن رشد الذى لقب بالشارح الأكبر. لكن هل كانت شروحهم لأرسطو مجرد شروح لفيلسوف يونانى انبهروا بفلسفته وبمنطقه كما انبهر به جميع مفكرى العصر الوسيط؟؟

إن القارئ لتلك الشروح يكتشف بوضوح ذاتية الشارح؛ فهم لم يقبلوا من أرسطو إلا ما وجدوا أنه يتفق مع نظرتهم إلى الأشياء،



وما رأوا أنه يتفق مع ما أتى به دينهم الحنيف. وإذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر متخصصة - أى من وجهة نظر دارسى أرسطو وأنا منهم - سنجد أن شروحهم قد خرجت على النص الأرسطى وخالفته وتجاوزته لدرجة أنه من الممكن اتهامهم من هذه الناحية بأنهم أساءوا فهم أرسطو. لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا يشرحون أرسطو بقدر ما كانوا يتخذون من أفكار أرسطو - باعتباره الصورة الساطعة للفكر والعلم فى عصرهم - وخاصة ما يتشابه منها مع أفكارهم الدينية والاجتماعية، كانوا يتخذون من منطقه وفلسفته أسلحة يواجهون بها أعداء دينهم. فكأنهم هنا قد ضربوا عصفورين بحجر واحد؛ فقد كانوا معاصرين حينما تمثلوا ثقافة عصرهم ونقلوا إبداعات غيرهم وشرحوها. وكانوا أصلاء حينما لم يسمحوا لهذه الثقافة بأن تسيطر عليهم ولا أن تكون عائقا أمام فكرهم هم. إنهم أدركوا أهمية إخضاع أرسطو وغيره من مفكرى اليونان لتأويلهم هم، بما كان فى ذلك التأويل من خصوصية عناصر الثقافة الإسلامية - العربية آنذاك.

والسؤال الآن، أين نحن من نقل التراث الغربى الحديث والمعاصر؟! إننا لم نتجاوز بعد مرحلة النقل والتبعية لما ننقل لأننا إذا نقلنا وشرحنا، فلا صدى واضح للذاتية فى ذلك النقل والشرح. بل أننا ننقل تلك النظريات الغربية ونطبقها على واقعنا الخاص دون فحص ودون تدقيق، فكانت النتيجة الحتمية أن فقدنا هويتنا أمام

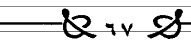


زحف تلك النظريات الغربية وتسللها لتعشش داخل أدمغتنا أولا، فواقعنا ثانيا. ومن ثم أصبحنا تابعين للغرب شكلا وموضوعا.

لقد غاب الوعي بفحوى هذه القضية وتلك التمييزات إلا من مفكرين أجلاء تمثل لديهم ذلك الوعى يبدأون برفاعه رافع الطهطاوى مرورا بأحمد لطفى السيد وطه حسين إلى استاذنا الكبير زكى نجيب محمود.

فقد بدأ الطهطاوى عصر الترجمة الواعية لعناصر الفكر الغربى، وحاول من خلال اطلاعه على الحضارة الغربية أن ينقل مجتمعه خطوات إلى الأمام، وأدرك آنذاك أهمية البدء بقضية التعليم فكتب "المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين" ليوضح أن مارآه لدى الغربيين من تقدم فى مناهج التربية يوجد مثيله بل أفضل منه فى تراثنا الإسلامى، فكانت دعوته لتعليم البنات والبنين فى ظاهرها مستقاة من زيارته لأوربا لكن جاء تعبيره عنها مقبولا لدى الجميع لأنه قام بتأصيل دعوته من خلال تراثه. ولعل فى ذلك ما يكشف لنا عن أسباب تقبل الناس لدعوة رفاعة الطهطاوى فى القرن التاسع عشر بينما لم يقبلوا نفس الدعوة من قاسم أمين فى القرن العشرين حينما دعى إلى تحرير المرأة وتعليمها حيث هوجم ليس من غلاة المتشددين فقط، بل من بعض الصفوة من المثقفين الوطنيين وعلى رأسهم طلعت حرب.

ولقد كان أحمد لطفى السيد مترجما لأرسطو وفى نفس الوقت كان الأستاذ الجامعى الواعى بأهمية أن ينقل ويشرح دون أن يكون



تابعا، فكان رائداً من رواد نهضتنا الثقافية التي تعتمد على النفس بقدر ما تعرف وتتمثل تراث الغير وثقافته، كما تمثل لدى طه حسين الوعى بأهمية الثقافة الغربية كمنهج يمكن من خلاله دراسة جوانب عديدة من تراثنا؛ فقد نبه إلى أهمية التراث اليونانى الكلاسيكى فى إثراء الآداب والفنون العربية الحديثة، باعتبارها كانت من عوامل إثراء الآداب والفنون والفلسفات الغربية فى مطلع عصر النهضة. كما قام هو باستيعاب المنهج الديكارتى، وتطبيقه فى دراسته للأدب العربى، فهو إذن قد درس ديكارت لا لكى يقع فريسة له ولآرائه الفلسفية، بل ليوظفه ويستخدمه فى دراساته لتراثه العربى الأدبى. ونفس الشيء فعله أستاذنا د. عثمان أمين مع ديكارت، فقد كان من ألمع دارسى ديكارت والمتخصصين فيه فى العالم، ومع ذلك فقد كان الفكر الديكارتى بالنسبة إليه كالمصباح الذى ينير له الطريق؛ فقد قدم فلسفته الجوانية فى كتابه "الجوانية" وهو يحمل ذلك المصباح الديكارتى دون أن يكون المضمون ديكارتيا، بل كان عربيا إسلاميا.

أما زكى نجيب محمود، فقد حمل مصباح التنوير من خلال العلم والدعوة الملحة إلى طريقه. وقد أخطأ من يظن أنه مجرد داعية لتيار فلسفى غربى هو الوضعية المنطقية؛ فهو قد استخدم الفكر الوضعى باعتباره دعوة واضحة المعالم إلى التفكير العلمى الذى هو طابع العصر الذى نعيش فيه. وقد أكد ومازال يؤكد بكافة أساليب وصور الكتابة أن علينا أن ندخل العصر من بوابة العلم، من خلال

استخدام المنهج العلمى فى كافة دراساتنا العلمية. ولم تكن الدعوة تأثرا منه بالفكر الغربى فقط، فسرعان ما كشف لنا د. زكى فى الكثير من دراساته ومقالاته عن أن هذه الدعوة إلى العقلانية وإلى علمية التفكير موجودة فى تراثنا الإسلامى العربى، وقد طبقها الأجداد، ليس فى دراساتهم الدنيوية العلمية فقط، بل فى فهمهم لأمور دينهم أيضا. وما علينا الآن إلا أن نستعيد هذه الروح العلمية الوثابة النشطة الساعية إلى كشف الجديد باستخدام كل وسائل العصر التكنولوجية.

إذن لقد وعى هؤلاء الأقطاب بأن دراستنا للنظريات الغربية شىء واستفادتنا منها وتوظيفها لصالحنا شىء آخر؛ فقد درسوا النظريات الغربية وشرحوها باعتبارها ثقافة العصر التى لابد أن نفهمها ونتفاعل معها، لكنهم وعوا فى نفس الوقت أن عناصر معينة من تلك الثقافة هى فقط التى تلائمنا لأنها تتفق مع ما لدينا من تراث خصب من ناحية، ولأنها تركز على المنهج العلمى فى التعامل مع المشكلات من ناحية أخرى. وهذا أمر مطلوب فى كل الدراسات إنسانية كانت أو طبيعية.

وما علينا الآن إلا أن نعى نفس الدرس الذى وعاه هؤلاء الرواد ونستكمل مسيرتهم عالمين بأنه ينبغى أن نتطور فى اتجاه التخلص من كافة أشكال التبعية للغرب ثقافية كانت أو سياسية أو اقتصادية .. إلخ، وبأن هذا التطور لن يكون إلا إذا أدركنا بوضوح أن هويتنا الثقافية ترتكز على عناصر أساسية هى:

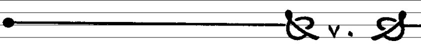
أولاً : أننا مصريون بحكم المواطنة والحضارة العريقة المتجددة دائما، وهذا يعنى ضرورة أن نلم بعناصر الثقافة المصرية قديمها وحديثها (فكرية كانت أو تاريخية أو اقتصادية أو جغرافية)، مع الوعى بأن تلك العناصر كانت ولا تزال وستظل فى حوار دائم مع عناصر الثقافة لدول البحر الأبيض المتوسط.

ثانيا: أننا عرب بحكم الموقع واللسان والتاريخ، وأننا أفارقة بحكم الموقع والتاريخ المشترك وباعتبار أننا وهم نخضع لنفس الظروف وينتظرنا نفس المصير.

ثالثاً: أننا قوم متدينون – من عصر قبل التاريخ – يمثل الدين ركنا أساسيا من ثقافتنا ويشكل الجانب الأكبر من وجداننا.

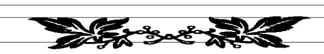
رابعاً: أننا نعيش فى عصر لا مكان فيه لمن لا يأخذ بالمنهج العلمى فى التفكير أيا كان المضمون والمشكلة التى يعالجها.

وختاما، أقول أن التحدى الحضارى الذى نواجهه، والذى تلخصه العبارة الشهيرة "تكون أو لا تكون" يتطلب منا ضرورة الإسراع فى التخلص من التبعية للغرب، كما يتطلب منا سرعة تمثل تلك العناصر وهضمها لتصبح هى حياتنا التى نحياها ومنهجنا الذى نفكر به.



(٤)

ضـد العولمـة ..(*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام تحت عنوان "فى مواجهة العولمة" فى ١٩٩٨/٤/١٢م.

ضـــد "العولمـــة"

لعل ما يجرى الآن على الساحة الدولية فى أزمة العراق مع الولايات المتحدة الأمريكية يقنع من لم يقتنع حتى الآن بأن منطق "القوة" هو السائد فى عصر ما يسمونه "بالعولمة" و "الكوكبية" أو اختصارا عصر القطب الواحد!.

ولعل فى العودة إلى الماضى البعيد وإلى الماضى القريب من تاريخ علاقات الغرب بالعالم ما يفيد فى فهم أن هذا المنطق "منطق القوة" لامنطق الفهم والحوار المتبادل هو المنطق الوحيد الذى يفهمه الغربيون طوال تاريخهم.

❁ إن للأمريكيين المعاصرين أجدادا فى الفكر اليونانى القديم هم من كانوا يلقبون فى القرن الخامس قبل الميلاد بالسوفسطائيين. إنهم كانوا يؤمنون بنفس ما يردده الفلاسفة الأمريكيون اليوم من مبادئ المنفعة والقوة. وحينما طرح موضوع "العدالة" للنقاش فى إحدى محاورات أفلاطون، محاورة "الجمهورية" هب أحد السوفسطائيين ويدعى تراسيما خوس قائلا: إن العدالة تسير مع مصلحة الأقوى وجودا وعدما. فالعدالة هى ما يؤمن به الأقوى وما يفرضه على الآخرين.

❁ وليس ببعيد عن ذلك الفهم الملتوى لمعنى العدالة، قول أرسطو الفيلسوف الكبير لليونان القديمة أن الحرب جائزة فى حالة واحدة هى حالة "اصطياد الأرقاء"؛ إنه على الرغم من أن أرسطو هو القائل بأن ماهية الإنسان أنه ذلك "الحيوان العاقل"، إلا أنه حينما يتحدث عن الحرب لا يرى لها ضرورة إلا حينما يقل عدد العبيد فى دولة المواطنين الأحرار، "دولة المدينة" بالاصطلاح اليونانى القديم. ومن ثم يمكن لدولة المواطنين الأحرار من اليونانيين أن تشن الحرب على جيرانها من "البرابرة" أى الأجانب حتى يمكنها توفير العدد اللازم من هذه "الآلات الحية" لربة المنزل أى من العبيد! إن إنسانية الإنسان إذن مقصورة فى عرف أرسطو على اليونانى الحر، أما ماعدا ذلك فإنهم أناس لا يصلحون إلا للرق والعبودية!

❁ ظهر فى اليونان القديمة قوة اقليمية عظمى هى الدولة المقدونية قادها الملك فيليب والد الإسكندر الذى عرف فيما بعد بالاسكندر الأكبر. وحينما تولى الاسكندر الحكم وكان عمره آنذاك حوالى ١٧ عاماً بدأ اجتياح الدول اليونانية الأخرى وبدأ فى غزو بلاد الشرق فارس والهند ومصر .. فكتب له أرسطو الذى كان مُعلمه قبل أن يصل إلى الحكم رسالة سماها "فى الاستعمار" فحواها أنه لا يوافق تلميذه الاسكندر على غزو الشرق لأن من شأن هذا

الغزو القضاء على تميز الجنس اليونانى حينما يحتك اليونانيون بالشرقيين وهم أصحاب حضارات أعرق! فماذا كان رد التلميذ الغازى! رد قائلا: إنه يغزو الشرق حتى يجعل الثقافة اليونانية والفكر اليونانى هو فكر العالم وثقافته. وبالطبع فلم يسمع التلميذ صاحب منطق القوة لنصيحة الأستاذ صاحب الرأى والخبرة، فحقق غزواته وتواصلت انتصاراته العسكرية والسياسية لكنه لم يحقق عولمة الفكر اليونانى كما توقع لأن الشعوب لا تتنازل بسهولة عن ثقافتها الوطنية خاصة إذا كانت عريقة عراقة حضارات الشرق بالقياس إلى الحضارة اليونانية الفتية الغازية. لقد انصهر فكر اليونان فى فكر الشرق وعاد الفكر اليونانى شرقيا فى اتجاهاته وملامحه كما بدأ شرقيا فى اتجاهاته وملامحه منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

❁وإذا تركنا الماضى البعيد ونظرنا فى الماضى القريب مرورا بعصر وسيط تعلم فيه الغربيون لأول مرة المعنى الحقيقى للعدالة ولحقوق الإنسان على يد العرب والمسلمون ومن خلال القرآن الكريم الذى تدارسوه جيدا فى فجر عصر نهضتهم الحديثة، ونقلوا عنه وعن المؤمنين به كل ما تغنوا به من مبادئ الحق والعدل والمساواة والإخاء بين البشر .. إلخ. فماذا نجد فى هذا الماضى القريب؟! نجدهم وقد انقسموا فريقين؛ الشرق الماركسى والغرب الرأسمالى.

تقود روسيا الفريق الأول، وتقود أمريكا الفريق الثانى. ورغم أن القوة الأولى كانت فى يد أناس متحضرين وإن امتلكوا أو اعتقدوا فى فلسفة استبدادية جامدة. ورغم أن القوة الثانية كانت فى يد أناس همجيين تجمعوا من أصول وأعراق شتى فى تلك الأرض الجديدة هربا من فقر أو من جرائم أو سعيا وراء تحقيق مجد لم يستطيعوه فى بلادهم الأصلية. أقول رغم هذا الاختلاف بين القوتين الأعظم فى ذلك الماضى القريب إلا أن الهدف كان واحدا وهو السيطرة على الشعوب الأخرى والاستبداد بها واستنزاف مواردها تحت نفس الحجة حجة تحديث هذه الشعوب وتمدينها!!.

إنه نفس الهدف الذى سعى إليه المستعمر الأوربى سواء كان فرنسيا أو انجليزيا أو برتغاليا أو أسبانيا فى القرن التاسع عشر. لقد استخدم هؤلاء القوة العسكرية فى غزو العالم وقهر شعوبه بحجة تحديثها وتمدينها وإعمارها!!.

❁ لقد كتب جارودى أروع مؤلفاته بعنوان "حوار الحضارات" واصفا ما صنعه الغربيون طوال تاريخهم بشعوب العالم الأخرى بأنه صنع "الشر الأبيض". وأطلق هذا الوصف وصف "إمبراطورية الشر الأبيض" على الغربيين. وهو أدق وصف يمكن أن توصف به أمم الغرب طوال تاريخها. فهى الأمم التى كانت دائمة السطو على

إنجازات الآخرين. ودائمة الاعتداء على حقوقهم وأراضيهم ومواردهم تحت حجج واهية ودعاوى فارغة لا تنطلى على أحد!! لكن هذه الدعاوى الفارغة كانت تفرض نفسها على الآخرين بالقوة العسكرية.

إن ماقدمه جارودى فى ذلك الكتاب الهام من تعرية لما يسمى بالحضارة الغربية وهى فى واقع الأمر ليست سوى مدنية مادية فارغة من أى محتوى روحانى أو معنوى!!، أقول إن ما قدمه فى هذا الكتاب كان حقائق شديدة الوضوح تكشف كيف تعامل الغربيون مع شعوب العالم الأخرى من منطق القوة وفرض الرأى. وإنى رغم موافقتى له على كل ما قال إلا أنى لم أوافقه على ما طرحه من ضرورة "الحوار الحضارى"؛ فقد تصور أنه يمكن للغربيين اليوم إذا ما وعوا تلك الحقائق المُرة من تاريخهم البعيد والقريب أن يتواضعوا وأن يعترفوا بأهمية الثقافات الأخرى وبإمكانية الاستفادة من المنجزات الحضارية للشعوب الأخرى. ومن ثم أن يقبلوا الحوار مع أبناء هذه الحضارات فى عالم يستفيد فيه الجميع من الجميع ويتبادلوا الخيرات المعنوية والمادية.

وقد رددت على ذلك التصور حين قراءتى للترجمة العربية للكتاب تحت عنوان "الحوار المستحيل بين حضارات الشرق

وامبراطورية الشر الأبيض"(*). وكان فحوى الرد أن الحوار لا يكون إلا بين أناس يؤمنون بالحوار ويقبلون الرأى الآخر بأريحية وبحب وللأسف فرغم أن الشائع عن الحضارة الغربية أنها حضارة الرأى والحوار فإن العكس تماما هو الصحيح. فهى حضارة لا تؤمن إلا بالحوار مع ذاتها وإذا قبلت من الحضارات الأخرى أى شئ فإنها لاتقبله إلا بعد أن يصبح جزءا من نسيجها ومنسوبا إليها لا إلى أصحابه الأصليين!! إن الحوار كما قلت فى ذلك الرد لا يكون إلا بين متكافئين ومع الأسف فإن الغربيين منذ فجر حضارتهم فى اليونان القديمة كانوا عنصريين ينظرون إلى الآخرين نظرة استعلاء. ولا تزال هذه النظرة الغربية للآخرين هى السائدة رغم كل ما يطفو على السطح من قيم يروجها الإعلام وليست من الواقع فى شئ!!.

وإذا كان ذلك كذلك فإن الحوار لا يمكن أن يقبله الغربيون إلا فى ظل وجود القوى المتكافئة فإن كنت قويا بما فيه الكفاية فهناك مساحة للحوار وللتفاهم وإلا فلتقبل ولتذعن لكل ما يقال لك بدون مناقشة أو إبداء رأى آخر!!.

وهذا هو ما نراه اليوم ببساطة وبدون أى مواربة أو خجل. ولعلنا بذلك نكون قد فهمنا الدرس. فالحوار لا يكون إلا بين قوى اقتصادية وعسكرية متكافئة. هذا هو المنطق الوحيد الذى يفهمه

(*) راجع المقالة الثانية عشر من هذا الكتاب .

الغربيون. فهل نحن قادرون على تحقيق هذا التكافؤ حتى يسمعنا الطرف الآخر الذى لا يؤمن إلا بعدالة الأقوى؟! هذا هو السؤال ونحن دائما فى انتظار إجابة من لا يزالون يؤمنون بسذاجة بقيم العولمة والكوكبية الأمريكية!!

❁ ولكى أساعدهم على الإجابة الصحيحة. فإن عناصر القوة اليوم لا تقف عند حد القوة العسكرية، كما لا تقف عند حد القوة الاقتصادية، وإن كانت أهم عناصر القوة وأشدها تأثيرا وأكثرها مساعدة فى فرض الهيمنة على الآخرين؛ فعناصر القوة اليوم قد اتسعت لتشمل قوة المعلومات والإنترنت بما تشتمل عليه من قنوات فضائية ضخمة ووكالات إخبارية ترصد دبة النملة على أرض الغير، وصحف عابرة للقارات وخلافه!، واتسعت لتشمل أيضا العديد من الاتفاقيات الدولية التى وضعت جميعا لتسهيل مهمة الهيمنة الغربية على بقية شعوب العالم كاتفاقية الجات الاقتصادية واتفاقيات الحد من الأسلحة النووية والبيولوجية وغيرها!!.
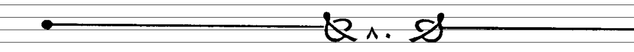
إن وسائل الهيمنة على الآخرين وفرض الرأى الغربى عليهم قد تتغير من عصر إلى عصر لكنها تصب دائما فى تحقيق نفس الهدف. هدف وجود الرأى الواحد والثقافة ذات البُعد الواحد والخبرات التى تصب فى معين واحد. إنه دائما "الغرب" سواء قادته

اليونان قديما أو أوربا حديثا أو أمريكا فى العصر الحالى. ونحن نعيش فى أسوأ عصور الهيمنة الغربية لأننا كما قلت نعيش فى عصر تعددت فيه صور القوة الغربية، لدرجة جعلت البعض منا يتصور أنه إنما يفكر معبراً عن استراتيجية عربية مختلفة وهو فى الواقع مجرد آلة فى ترس الدعاية للاستراتيجية التى يريد أن يهاجمها ويقف ضد مخططاتها!!.

❁ وعلى ذلك فليس أمامنا من سبيل للمواجهة إلا سبيل رفض قيم العولمة والكوكبية والجات وعصر المعلومات لأنها جميعا كما قلت تصب فى إطار فرض الهيمنة الغربية على شعوب العالم؛ فما المقصود بالعولمة إلا "غربنة" العالم أجمع وجعلهم شعوباً ما سخة لا هوية لها ولا استقلال، فلا هى قد حافظت على أصالتها ودافعت عن قيمها الثقافية وهويتها الحضارية المستقلة وتمسكت بها، ولا هى بقادرة على أن تكون غربية كالغربيين!!.

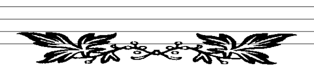
إن رفض قيم العولمة الغربية ليس مجرد كلاما نقوله وكفى، بل ينبغى أن يتحول إلى واقع يبدو فى مخططاتنا الثقافية والاقتصادية والسياسية .. إلخ. إن قوة أى أمة إنما تنبع من داخلها ومن إعادة البناء الذاتى لثقافتها واقتصادها وليس بالاعتماد على الآخر خاصة إذا كان هذا الآخر هو "الغرب الرأسمالى"؛ فالتاريخ العام للحضارات وللشعوب يؤكد هذا كما سبق وأشرت إلى ذلك.

إن الاعتماد على الغرب لبناء الذات هو محض خرافة. علينا من الآن إذا ما أردنا أن ننجو بأنفسنا قبل فوات الأوان أن نعيد بناء الذات الثقافية باستعادة قيمنا الأصيلة دينية واجتماعية واقتصادية، وإعادة بناء قوتنا الاقتصادية والسياسية بل والعسكرية مستعينين بأمم الشرق الأخرى. فبناء القوة الذاتية يبدأ من بناء القوة العربية الاقتصادية والسياسية والعسكرية المشتركة ويتسع ليشمل بناء القوة الإسلامية المشتركة وهكذا فهذا هو المجال الوحيد الذى ينبغى أن نتحرك فيه قبل أن تبتلعنا عولمة الغرب وآلاتها الجهنمية !.



(٥)

نحن وعصر المعلومات والإنترنت (*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام في ٢٧/٧/١٩٩٧م.

نحن وعصر المعلومات والانترنت

" معلومات .. انترنت ..

ياتبقى حياتكم زى الزفت "

لا أدرى لماذا يرّن هذا الهتاف فى أذناى كثيرا فى الفترة الأخيرة لدرجة جعلتنى أتصور أن ذرات الهواء قد تحولت إلى أشخاص تهتف بهذا الهتاف طوال النهار والليل!! وقد بلغت قوة الهتاف درجة لم أعد قادرا معها إلا على التفكير فى حالنا المتدهورة ونحن بعد لم ندخل عصر المعلومات والانترنت!! ولكم تأملت الأمر مليا: هل نحن حقا جديرون بالدخول فى هذا العصر؟! وهل من الضرورى أن ندخله باعتباره البوابة الملكية لدخول القرن الحادى والعشرين كما يقولون؟!

وكم قرأت عن ملامح هذا العصر الجديد وأدواته التكنولوجية التى تتلخص فى كم هائل من المعلومات تحملها رقائق الكمبيوتر بدلا من التقارير والكتب والملفات.. إلخ وتنساب هذه المعلومات إلى كل من يريدها بمجرد أن يضغط بإصبعه على ذر صغير. وما إن عرفت ذلك حتى قلت فى بلاهة: إذا كان ذلك هو المدخل إلى القرن القادم فما أسهله وما أبسطه إذ أن كل ما نحتاجه هو مجرد أجهزة

نستوردها واشتراكات ندفعها ورقائق تحمل المعلومات وما علينا بعد قليل من التدريب على استخدام هذه الاجهزة إلا أن نضغط على ذلك الذر أو ذاك فتنساب أمامنا المعلومات فى سهولة ويسر!.

لكن سرعان ما أعادنى هيراقليطس الفيلسوف اليونانى القديم إلى وعيىَ المفقود حينما أعدت قراءة قوله: "إن المعلومات الكثيرة لاتكفى للفهم"!. وقلت: حقا إن المسألة ليست مجرد معلومات. فكم جامع للمعلومات هو فى حقيقة أمره "كالحمار يحمل أسفاراً" وهو لايدرى شيئا عما يحمل!!.

وحينئذ كان السؤال الذى ألح علىَ: أى معلومات نجمع وبأى طريقة يمكن تحليل وفهم هذه المعلومات للاستفادة منها؟! وهنا أدركتُ كما أتمنى أن يدرك كل من يدعوننا إلى سرعة الدخول فى هذا العصر الجديد، أن المسألة ليست مسألة كثرة معلومات. وإنما مسألة كيف نتلقى هذه المعلومات، وعلى أى محك سيكون هذا التلقى؟ وما الذى يمكن أن نستفيده من هذا السيل المعلوماتى؟!

والأخطر من ذلك أنه لابد أن ينتبه السادة الذين يلحون علينا فى أن نكون معلوماتيين، أنه ينبغى التمييز بين المُنتج والمُستهلك للمعلومات تماما كما فى عالم السلع والصناعات. فهل هى دعوة من جانبهم لنكون مجرد مستهلكين! إذا كان ذلك كذلك فبئس الدعوة

وبئس الداعى! فهو يريد أن يجلعنا "كالحمير نحمل أسفارا" ونحن لم ولن نكون كذلك إن شاء الله.

إن الــتدفق المعلوماتى حتى الآن هو من جانب الغرب. وهو لايــتيح لنا منها إلا ما يسمح به وما يريد أن نعرفه، لا ما نريد نحن أن نعــرف؛ فهــل يمكنك أن تعرف أسرار صناعة الطائرات أو أى صــناعة غيــرها عبر "الانترنت"؟! وهل يمكنك أن تعرف عبره أى سر من أسرار نظرية علمية أو مُخترع مُهم؟!.

إن المــتاح مــن المعلومات أيها السادة هى المعلومات عديمة المــنفعة أو الفــائدة عــلى الصعيد الاستراتيجى. إنها مجرد معلومات التســلية والترفيه ولا أقول معلومات الدعوة إلى الفساد والإفساد!. إنها المعــلومات الــتى يمكــن أن تغرق فيها فتقتل فيك فى معظم الأحيان القــدرة على الإبداع والابتكار!. ولذلك فإن تلقى المعلومات ينبغى أن يكــون بقدر وأن يتوقف عند حدود معينة ليتيح الفرد لنفسه التفكير فى هــذه المعــلومات، وفى جدواهــا، وفى كيفية الاستفادة منها، هذا إذا كانت بالفعل هامة ومفيدة!!.

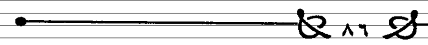
ومــن جــانب آخر، فإن السؤال الأكثر إلحاحا: هل يمكن أن نتحول فى هذا المجال المعلوماتى من الاستهلاك إلى الإنتاج؟!.

أعــرف أنــنا نستطيع ذلك فى بعض المجالات مثل مجالات الاقتصـــاد والـــتجارة والسياحة. وقد بدأنا فعلا فى هذا الطريق. لكن إلى أى مـــدى يهــتم الآخـــرون بمـــا نسجله من معلومات فى هذه المجـــالات أوفى غيـــرها، وإلى أى مدى يمكن أن تعود علينا بالنفع والفائدة؟!.

إنها تساؤلات ينبغى أن نفكر فيها جيدا. وقبل أن يسارع المتحمسون إلى الصياح والاحتجاج، أسارع أنا قبل أن يضعوننى فى خانة المتخلفين والانهزاميين والرجعيين غير القادرين على الاستفادة من أعظم منجزات العصر، أسارع إلى القول:

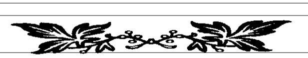
انظروا فى مجال واحد مهم من مجالات حياتنا المعاصرة، بل إلى جزئية واحدة من جزئياته؛ انظروا فى نشرة أخبار التاسعة لتجدوا بعض الإجابة على تلك التساؤلات! فنحن لا نزال نذيع أخبار العالم المتقدم والمتخلف بما فيها أخبار الرياضة من واقع ما يأتينا من معلومات عبر الشبكات الإخبارية العالمية؛ فأخبار الدورى الاسكتلندى والبرتغالى وغيره تأتينا ونذيعها فورا، فى الوقت الذى قد لا نهتم فيه بإذاعة نبأ عن مباراة جرت عصر نفس اليوم فى الدورى المصرى بعيدا عن القاهرة!!

إلى هذا الحد أيها السادة بلغت سيطرة التدفق المعلوماتى للآخر على إعلامنا!! فما بالكم بالأفراد والهيئات الأخرى التى لاتملك نفس الإمكانيات والقدرات الهائلة التى يملكها الإعلام عندنا!!.
إذن فلنخلع عنا أولا "بردعة الحمار" ولننمى مهارات الفهم والتحليل والنقد والتأويل والمراجعة عند شبابنا من خلال نظام تعليمى متطور قبل أن نقذف بهم فى أتون عصر المعلومات والانترنت والعولمة والكوكبية والما بعد حداثة .. إلخ ..



(٦)

التنويريون العرب
ورسالتهم الحقيقية (*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ١٩٩٤/١/١٦م.

التنويريون العرب
ورسالتهم الحقيقية

يربط الكثيرون خطأ هذه الأيام بين التنوير والعلّمانية؛ فكل تنويرى ينبغى أن يكون علمانيا بل لابد أن يكون كذلك، وكل علمانى يعد داعية للتنوير!! وفى إطار هذا الخطأ يتجه التنويريون – العلمانيون أو العلمانيون – التنويريون إلى الهجوم المستمر على ما يصفونه بالتيار السلفى الإسلامى الجامد!! فبينما يعتبرون أنفسهم قادة للتنوير ودعاة للتقدم يعتبرون الإسلاميين دعاة الجمود والعودة إلى الوراء!!.

ومن عجب أن هذه النغمة أصبحت هى السائدة الآن فى الكثير من الأجهزة الاعلامية العربية المختلفة دون إدراك لما يترتب عليها من نتائج خطيرة ومؤسفة. ولعل أبسط هذه النتائج هو وقوعنا فى براثن التغريب والتبعية وهذا ما هو حادث الآن بالفعل؛ فلقد دهشت حينما تصفحت العدد الأخير من مجلة النقد الأدبى المصرية "فصول"، وبعض أعداد مجلة "القاهرة" ووجدت أنهما – رغم صدورهما عن واحدة من أعرق وأكبر الأجهزة الثقافية الحكومية فى العالم العربى – أصبحتا بوقا لنشر الفكر والآراء النقدية الغربية سواء بأقلام الكتاب الغربيين أنفسهم أو بأقلام الكتاب العرب الذين يتباهون بنقل هذه الأفكار والآراء الغربية بحذافيرها، وكأنه لم يعد يكفينا ما نحن فيه من سيطرة غربية على العقل العربى عبر

أجهزة التليفزيون والإذاعة، وعبر نظام البعثات والمراكز الثقافية المنتشرة فى أرجاء العالم العربى، وعبر الأجهزة الاستشارية المختلفة، فبادرنا بتسليم مجلاتنا الثقافية أيضا فأفردنا صفحاتها للمزيد من هذه الهيمنة الفكرية والنقدية للغربيين!!.

إن هذه المجلات الثقافية العربية والتى تصدرها المؤسسات والهيئات العربية سواء كانت حكومية أم شعبية قد أسست لنشر الوعى وبث الفكر العربى أساسا، ولم تنفق الشعوب والحكومات العربية عليها لتصبح أداة لنشر الفكر والآراء الغربية وتدشينا لهيمنتها وفرض سيطرتها على عقول شباب المفكرين والأدباء العرب!!

إن التنوير والعلمانية يا من توحدون بينهما من أصلين مختلفين وإن ارتبطا معا فى فترة من فترات النهضة الغربية الحديثة؛ فقد ظهرت العلمانية – بفتح العين وتشديد اللام – فى الغرب كدعوة للفصل بين الدين وبين شئون الحياة خاصة الشئون السياسية والعلمية على يد مجموعة من الفلاسفة والمفكرين من أمثال دانتى ومكيافيللى وبرونو منذ أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وكان لظهور العلمانية فى الغرب العديد من الأسباب التى يعرفها الكثيرون وأهمها هيمنة الكنيسة الغربية فى ذلك الوقت على كل شئون الحياة فى الغرب ووقوفها عقبة أمام التطور والتجديد فى كافة مجالات العلم والفلسفة والسياسة .. إلخ.

فكان لابد من أن يكسر المفكر والعالم الغربى طوق الحصار المفروض عليه وأن يتخلص من الجمود - الذى ظل لأكثر من عشرة قرون كاملة - عبر هذه الدعوة إلى الفصل بين الدين وبين كافة الشئون الدنيوية؛ وقد استند المفكرون الغربيون فى هذا على القول الدينى المأثور "أعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله"!.

وكلنا يعلم أن هذه الدعوة قد آتت ثمارها فى الغرب، وبدأ التطور الفكرى والعلمى وبدأت النهضة الغربية الحديثة على يد أعلامها المشاهير من أمثال بيكون وديكارت فى الفلسفة وكبلر ونيوتن فى العلوم، وهكذا انساب تيار التجديد الغربى فى مجالات الفلسفة والعلم أولا ثم أعقبه التطور والتجديد السياسى الذى كان داعيته جون لوك مؤسس الفلسفة الديمقراطية الليبرالية، وقد استند المفكرون الذين لقبوا بالتنويريين من أمثال فولتير وديدرو وروسو ومونتسكيو على فلسفة ديكارت العقلية، وفلسفة بيكون وهوبز التجريبية، وعلى آراء لوك الليبرالية، ودعوا إليها وطوروا فيها وأضافوا إليها فكانت الحركة التنويرية الداعية إلى الحرية والمساواة والإخاء فى فرنسا ومنها انتشرت فى أرجاء أوربا ثم أمريكا.

ومن هنا ارتبطت الحركة التنويرية بالدعوة العَلْمانية الداعية إلى الفصل بين الدين وبين كافة الشئون الدنيوية فى الغرب. ورغم



ما حققه هذا الارتباط التاريخى بين العلمانية والتنوير من تطور فى الغرب استمر حتى منتصف القرن الماضى أو حتى آواخره، إلا أن النتائج السلبية لهذا التطور الذى ركز على اشباع الجوانب المادية للإنسان وأهمل الجوانب الروحية بدأت تظهر بقوة خلال القرن العشرين. وهاهو الغرب الآن يرزح تحت أعباء المادية المفرطة فى كل نواحى الحياة، وهاهم فلاسفته من أمثال اشبنجلر وتوينبى واشفيتسر يعودون إلى المناداة بضرورة إعادة التوازن بين التطور المادى للإنسان وبين تنمية الجوانب الروحية والأخلاقية فيه !! وإلا فإن انهيار الحضارة الغربية قادم لا محالة!.

وهكذا فإن التنوير الغربى فى القرن العشرين لم يعد يستند على الأفكار العَلّمانية التى فعلت فعلها فى القرون السابقة وانتهت، إن التنوير الغربى الآن – وعلى التنويريين العلمانيين العرب أن يتحققوا من ذلك – بدأ يتجه نحو إبراز دور الفكر الدينى والأخلاقى فى حياة الإنسان، وأصبح تنمية الحس الدينى والروحى أساساً من أسس التربية الحديثة لدى التنويريين الغربيين المعاصرين.

وليس ببعيد عن هذا الاتجاه المعاصر فى الغرب ما نراه من اتجاه المفكرين الغربيين المعاصرين إلى الدعوة إلى "الحوار بين الحضارات" وبالذات إلى الحوار بين الحضارة الغربية وحضارات

الشرق الروحية، وهم يستهدفون من ذلك افراغ الحضارات الأخرى من مضمونها الروحى والاستفادة من ذلك فى تغذية الحضارة الغربية التى أصبحت جسدا بلا روح، وقد نجحوا فى فعل ذلك من قبل مع الاشتراكية الماركسية التى أفرغوها من مضمونها الاجتماعى وغذوا به شريان الرأسمالية، فبقت الرأسمالية واستمرت بينما انهارت الماركسية لوقوف أصحابها عند مبادئها الجامدة دون أن يسعوا إلى تجديدها وتطويرها!!

وليس ببعيد عن ذلك أيضا ما نراه من اتجاه بعض المفكرين الغربيين الآن إلى الإيمان بالاسلام كدين أسمى لأنهم وجدوا أنه الدين الوحيد الذى يوازن بين مطالب الإنسان المادية وبين مطالبه الروحية، ووجدوا أنه الدين الذى يحث الإنسان على ضرورة البحث والتمحيص فى جنبات الكون بغرض المعرفة والاستفادة من إمكانياته المادية بدون اعتداء صارخ على الطبيعة وكائناتها الأخرى، ووجدوا أنه الدين الذى فتح الآفاق أمام العقل الإنسانى ليكون أساسا للايمان وأساسا للعلم فى آن واحد.

ومن المؤسف حقا أنه فى الوقت الذى أدرك فيه المفكرون الغربيون ذلك فآمنوا بالإسلام، نجد أن التنويريين العرب يشنون حملة علمانية ضد الإسلام والإسلاميين ويدعون أنهم إنما يحاربون فقط بعض الإسلاميين المتطرفين وأفكارهم الهدامة!!.

والحق أن هذا الكلام ظاهره حق وباطنه باطل؛ لأن ما نراه فيما يكتبون إنما هو اتجاه صارخ نحو تغريب كل شيء، ودعوة إلى محاذاة النموذج الغربى فى كل شيء! إن أجهزة الدعاية الغربية التى تتناقل أبواقها هذه الحملات لا تفرق بين الاسلام وبين الاسلاميين المتطرفين، بل هما فى نظرها شيء واحد!! ولذلك فإن المتلقى عن هذه الأجهزة ينظر إلى الاسلام وإلى المسلمين ككل على أنهم دعاة للتخلف والجمود.

إن ما أتمناه من التنويريين العرب هو أن يتوقفوا عما يكتبونه الآن ليعيشوا لحظة صدق مع النفس. وليتأملوا معى هذه التساؤلات: هل يحق لمفكر عربى أن يكون أداة لنشر بضاعة غربية ثبت فسادها وفشلها؟! هل يحق لمفكر عربى أن يكرس التبعية والتغريب فى الوقت الذى ينبغى أن يكون فيه رائدنا فى الخروج من أسرهما؟! وهل يجوز لمفكر عربى مخلص - وتحت تأثير بعض ظواهر الانحراف الفكرى أو الفهم الخاطئ لبعض شباب المسلمين - أن يكون أداة تشارك فى الحملة على الإسلام وعلى كافة المسلمين ونحن فى عصر اشتدت فيه هذه الحملة ولم يعد أمام الغرب من عدو يحاربونه سوى الإسلام والمسلمين؟!

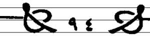
وأخيرا، هل يجدر بمفكر عربى مخلص أن يكتب ويردد أفكارا غربية عن الإسلام دون أن يضطلع هو بدور مستقل فى

دراسته دراسة متأنية واعية وبيان جوهره الحقيقى كدين يدعو للعقل وللعلم وللحرية، كدين يكرم إنسانية الإنسان ويقدس حرماته ويرعى حرياته؟!

إن التنوير الحقيقى الذى ينبغى أن نتبناه وندعوا إليه هذه الأيام هو التنوير المستند على بيان الإسلام فى وجهه وصورته الحقيقية أمام دعاة تشويهه وتشويه من يؤمنون به!!

إن التنوير الحقيقى الذى ينبغى أن نكون دعاته لا يكون إلا بعد أن يتخلص دعاة التنوير العَلْمانى من تبعيتهم التى طالت والتى طالما انتظرنا أن يتخلصوا منها، وأن يفتحوا عقولهم ويفسحوا صدورهم وصفحات مجلاتهم وصحفهم لكتاب جدد ولآراء جديدة أصيلة، وأن يسعوا إلى اكتشاف المواهب الأدبية والنقدية والفكرية العربية الواعدة بمستقبل أفضل يكون أكثر أصالة، لا أن يسدوا أمامها المنافذ فى الوقت الذى يفتحوها على مصراعيها أمام الكتابات والآراء الغربية!!.

والحق أن أخشى ما أخشاه الآن وبعد أن يقرأوا تلك السطور أن تتهافت الأقلام وتتعالى الأصوات متهمة صاحبها بأنه ضد التنوير - كما يفهمونه - وبأنه من دعاة التخلف والعودة إلى الوراء، وهذه مقولة طالما رددوها وسجنوا فيها كل من يخالفهم فى الرأى!



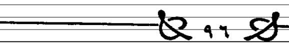
والواقع أننى وغيرى من دارسى الفلسفة الغربية وعشاقها أبعد ما نكون عن ذلك، وكل ما هنالك أننى أرى وفى هذا الوقت بالذات أن على المفكر العربى أن يكون مخلصا وموضوعيا فى تناول قضايا وطنه، وألا يكون تحت أى ظرف خاضعا لأى سلطة سوى سلطة عقله الواعى والاخلاص لدينه ولأمته.

وليس معنى ذلك أننى أدعو إلى الانغلاق أو الانكفاء على الذات أو أننى أدعو إلى "قطيعة معرفية" مع الغرب، لا وألف لا. إن ما يعنينى هنا هو أن نكون أكثر التزاما بالتعبير عن قضايانا، وأن ندافع فيما نكتب عن مصالحنا وهويتنا الحضارية، وألا تعمينا الهيمنة الإعلامية الغربية عن إدراك جوهر الصراع الحضارى القائم والذى يديره الغربيون بنجاح وبدهاء شديدين وفق مصالحهم دون أن يضعوا فى الاعتبار أى مصالح للآخرين.

إننا كمفكرين دائما ما نعيب على رجال السياسة والاقتصاد تبعيتهم وعدم قدرتهم على بناء الذات المستقلة سواء فى إطار سوق عربية أو إسلامية مشتركة، أو فى إطار صورة من صور الوحدة السياسية!!، بينما ينبغى أن ندرك نحن أولا أن بناء الذات المستقلة سياسيا أو اقتصاديا إنما يبدأ من قدرتنا نحن على بلورة عناصر تلك الذات على الصعيد الفكرى أولا بالكشف عن عناصر هويتنا

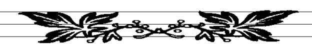
الحضارية المتفردة بمختلف تجلياتها الدينية والفلسفية والعلمية والاجتماعية والأدبية والفنية.. إلخ، وبعد ذلك يأتى دون شك دور الساسة ورجال الاقتصاد!!

إننى أعتقد صادقا أن دور المفكرين العرب وخاصة الكبار منهم؛ أولئك الذين يمتلكون القدرة على التأثير من خلال سيطرتهم على أدوات التأثير – من مجلات وصحف وإذاعة وتليفزيون .. إلخ – يفوق فى أهميته فى الوقت الحاضر دور الساسة ورجال الاقتصاد؛ لأن السياسى والاقتصادى مقيد فى تبعيته بشبكة لا يستطيع الفكاك منها بسهولة، بينما المفكر والأديب والفنان يستطيع التخلص من التبعية إذا ما أحسن التأمل وأمعن الفكر وأخلص النية فى التعبير عن قضايا وطنه ودينه مراعيا مصالح أمته العليا واستقلاله الحضارى.



(٧)

الحداثيون العرب ..
والعيش بين الكلمات (*)



(*) نشرت بجريدة "البيان" اليومية الإماراتية التى تصدر عن إمارة دبى بدولة الإمارات العربية المتحدة فى ١٩/١١/١٩٩٣م.

"الحداثيون" العرب
والعيش بين "الكلمات"

لا يزال تيار "الحداثة" فى الأدب العربى المعاصر هو التيار الأعلى صوتا والأكثر ضجيجا بين "النخبة" المثقفة فى العالم العربى.

ورغم ذلك الانتشار وهذا الضجيج، ورغم أننى من قراء الأدب العربى قديمه وحديثه، إلا أننى مازلت لا أفهم معظم ما يكتبه شعراء "الحداثة" العرب، وإن سئلت بعد قراءتى لأى قصيدة من قصائد هؤلاء الشعراء - الذين يمثلون أبناء جيلى - لقلت نفس ماقاله سقراط فيلسوف اليونان الشهير حينما سُئل عن رأيه فيما كتبه هيراقليطس - وكان مشهورا بأنه الفيلسوف الغامض الملغز - "إن ما فهمته يبدو عظيما وما لم أفهمه يبدو أعظم"!!

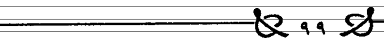
ولذلك فأنا فى حيرة شديدة من أمرى؛ هل أنا عاجز - رغم محاولاتى الجادة - عن أن أفهم، بعد هذا العمر الطويل فى القراءة والفهم والتحليل ومعرفة أسرار لغتنا العربية، شعراء عصرى، والمفروض أن أكون الأقدر على فهمهم ومتابعة ما ينتجون لأنهم إنما يعبرون عنى وعن مشاكلى وهمومى وآلامى وأفراحى.. إلخ.؟! أم أنهم هم العاجزون عن أن يصلوا إلىّ وفضلوا على ذلك العيش وسط

كلمات متراصة هى أولا وأخيرا عاجزة عن أن تصل إلى متلقيها اللهم إلا إن كان المتلقى هو نفسه الكاتب؟!!

والأمر الذى يحيرنى أكثر هو أننى أجدهم وفى كل مناسبة يقولون: أنهم شعراء ثوريون، وحاولت أن أفهم معنى هذه الثورية؛ أهى ثورية التمرد على الشكل القديم فى الشعر! قد يكون ذلك! وإن كان ذلك هو معنى الثورية فأنا معهم وقد تفهمت ذلك منذ بداية السبعينات وعبرت عنه فى مجلة "الجديد" التى كانت تتبنى ذلك الاتجاه الحديث فى الشعر! لكن لا أتذكر فى ذلك الوقت أنه كانت هناك كتابات "حداثية" أو شىء مما يسمونه الآن "الحداثة"!!

لكننى شيئا فشيئا اكتشفت أنهم يقصدون بالثورية معنى آخر؛ لأنهم يرون "أن الشعر الثورى لا يكون فعالا إلا فى جمهور يمارس العمل الثورى"، وهذا ما قاله زعيمهم أدونيس فى كتابه "زمن الشعر"؛ فالثورية عندهم إذن هى ثورية التأثير فى الجمهور!!

وحينما اكتشفت ذلك الهدف الذى يسعون إليه، وتلك الثورية التى يريدونها لم أتمالك نفسى من الدهشة والعجب ووجدتنى أضرب كفا بكف!! إذ كيف يتصور هؤلاء أن شعرهم هذا يمكن أن يكون له أى تأثير ثورى على الجمهور!! وكيف يتصورون أنهم بهذا الشعر الذى تكمن "حداثته" فى التقوقع داخل الكلمات يمكن أن يكون له تأثير جماهيرى من أى نوع!!



إن هذا الشعر "الحداثى" الذى ينتجونه لا يعبر إلا عن ترهات فى نفس صاحبه وفى إطار عالم لغوى خاص يصطنعه ويعيش فيه!! إنه "الشعر" الذى لا يفهمه ولا يتفاعل معه سوى من ينتجونه، فكيف تجرأوا على وصفه بالثورية المؤثرة فى "الجماهير التى تمارس العمل الثورى"!!

على كل حال، لقد خرجت مؤخرا من تلك الحيرة وتلك التساؤلات التى أرقتنى منذ زمن، وذلك حينما قرأت للدكتور شكرى عياد كتابه الأخير "المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين"، ووجدته - وهو الناقد الكبير وصاحب الدراسات الأدبية الكثيرة والعميقة - يعبر عما يحيرنى ويشاركنى فيه وهو يتساءل متعجبا فى إطار تقييمه لتيار "الحداثة" العربية:

"هل نقول إن الحداثة العربية انطوت على شيء من خداع النفس؟ هل نقول إن هذه الحداثة إذ تصف نفسها بالثورية لا تريد فى الحقيقة إلا أن تتخذ واجهة مناسبة أمام النظم "الثورية " فى العالم العربى؟ هل نقول إن شعراء الحداثة العربية وهم شعراء النخبة إنما يقدمون زاداً كلامياً لهذه النخبة تغذى به سخطها على واقع اجتماعى تعلم - رغم تمتعها فيه - أنه فاسد ومرشح للانهيار؟ هل نقول - أكثر من هذا - إن دعوى " عربية" الحداثة - هذه الحداثة - دعوى

زائفـــة لأنهـــا لا تزيد على أن تنقل إلينا مفاهيم الحداثة الغربية، بل مفاهيم "حداثة" معينة، حداثة الغريب واللافت والمثير بعد أن انقضى عهـــد رواد الحداثـــة الحقيقيين أمـــثال بودليـــر ورامبو وازرباوند و د. هـــ. لورنـــس وو . ب بيـــتس وجيمس جويس و ت . س. اليـــوت، الذين شككوا أبناء الحضارة الغربية فى قيم هذه الحضارة، وهى نفســـها التى يبشر بها حداثيونا هؤلاء باسم الحضارة الإنسانية، وهى بـــالفعل حضارة إنسانية لأنها جعلت الإنسان مصدر القيم كلها، فانـــتهت بأن أصبحت الآلة التى اخترعها الإنسان لتهيئ له مزيداً من القوة أو مزيداً من السعادة، سببا لشكائه وربما لدماره؟!

و "النخـــبة" عـــندنا – حـــتى فى مجـــال الثقافة – تقنع عادة بــــــ "آخـــر ما أنتجته المصانع الأوربية أو الأمريكية" وقد تضع فى أعـــز مكـــان من "الصالون" ما يلقيه الغربيون على جانب الطريق". (ص ٦٨ – ٦٩).

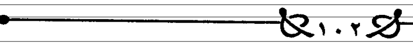
صدقت يا ناقدنا الكبير فى كل تساؤل وفى كل كلمة من هذه الكلمات القوية المعبرة، والناقد الكبير لا يكون كبيرا إلا حينما يواجه القضايا بمثل هذا العمق وذلك الشمول.

ولم يبق إلا أن أدعو صادقا كل "الحداثيين" العرب أن يقرأوا هذا الكلام السابق جيدا لعلهم يقتنعون بأن الخروج من "دائرة

الكلمات" أصبح أمرا ضروريا إذا ما أرادوا أن يعبروا عنا حقا!!
ولعلهم يقتنعون أيضا بأن "الحداثة" الحقيقية فى الشعر العربى المعاصر إنما تبدأ حينما يعبر الشاعر العربى عن الإنسان العربى وقضاياه الحقيقية بلغة يفهمها هذا الانسان ويتفاعل معها لا بلغة مستغلقة حتى على من يستخدمونها!!

إن "اللغة" في كل فنون الكلام كما فى الشعر هى أداة لتوصيل المعاني والأفكار وليست هي "المعانى" أو "الأفكار" ذاتها!

وإذا ما عجز الشاعر العربى عن استخدام أداته الفنية – أى اللغة – فى توصيل ما يريده من أفكار ومعان إلى المتلقى، فليس شاعرا وليس عربيا كذلك!!.



(٨)

الشرق أصل العلم والفلسفة (*)

(*) نشرت بجريدة الأهرام تحت عنوان "الشرق والمعجزة العلمية في الغرب"، ٦ أكتوبر ١٩٩٦م.

الشرق أصل العلم والفلسفة ..
طاليس ليس أول الفلاسفة
ولا أول العلماء !!

لن ينقطع النقاش حول العلم؛ معناه وأصله طالما أننا فى الشرق عموما وفى الشرق العربى خصوصا ننحاز فى أغلب الأحوال إلى الرأى السائد لدى مؤرخى الغرب ونرتاح دائما إلى حججهم وأسانيدهم رغم ما فيها من تحيز واضح للمعجزة الغربية وتعصب بغيض – وإن بدأت تخف حدته عند المنصفين منهم – لكل ما هو غربى لدرجة أنهم لا يرون الآخر ولا يقيمونه إلا بمعاييرهم هم وكأن على جميع الشعوب والأمم أن تدخل فى إطار المقولات الغربية فى الفلسفة والعلم والسياسة والاقتصاد .. إلخ. وإلا فستكون خلوا – فى نظر صُناع المعجزة – من كل ذلك حتى إشعار آخر!!.

والحقيقة أن لهذه المناقشات أهميتها البالغة؛ لأن تحديد معنى العلم ومعرفة موطن ظهوره وبداياته، وكذلك لمعنى الفلسفة ومنشأها إنما يتحدد على أساسه فى اعتقادى: هل نحن مبدعون بالأصالة؟! وهل لنا مشاركتنا الفاعلة فى تاريخ الفلسفة والعلم قديما ووسيطا، وبالتالى هل يمكننا الآن وصل ما انقطع والمشاركة بإيجابية فى ركب الحضارة (علما وفلسفة وأخلاقا ..إلخ)؟! أم أننا قوم كنا

وسنظل هامشيين ننتظر كل ما يبدعه الإنسان الغربى لنتلقفه دراسة وتمحيصا واتباعا دون أن يطالنا فى كل ذلك القدرة على الإبداع والإضافة والابتكار؟!

إن الكثيرين أصبحوا يرفضون الآن المعجزة الغربية فى نشأة الفلسفة والعلم، وينحازون إلى جعلهما ميراثا إنسانيا عالميا شاركت فيه شعوب الشرق، بل وأبدعته فى الوقت الذى لم يكن فيه للغرب وجود على ساحة التاريخ؛ حيث لم تظهر الأمة اليونانية – وهى الجد والأصل لكل ما هو غربى – إلا فى حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد على أبعد تقدير بينما يرجع التاريخ المكتوب للحضارة المصرية القديمة مثلا إلى القرن الأربعين قبل الميلاد!

وبالطبع فإننا إذا ما أدركنا تلك الحقيقة وحدها، لأدركنا بالبداهة أنه لا يمكن أن يظل الإنسان الشرقى القديم سواء كان مصريا أم بابليا أم هنديا أو فارسيا أو صينياً بدون علم ولا فلسفة حتى يأتيه اليونانى بالعلم والفلسفة من عدم!!

إن الحجة الأساسية لأنصار المعجزة الغربية فى إبداع العلم والفلسفة تقوم على أن العلم بمفهومه النظرى المجرد الذى يعنى اكتشاف القانون العلمى الذى يفسر الظاهرة ويفسر كل الجزئيات الأخرى المشابهة لها، إنما هو إبداع يونانى لأن العلم فى الشرق القديم كما يدعون كان علما تجميعيا تجريبيا يعتمد على التفسير من

خلال الخبرة، وليس التفسير من خلال النظر المجرد، والحقيقة التى أود أن ألفت الانتباه إليها هى أن صاحب هذه الرؤية للتمييز بين علوم الشرق وفلسفاته وبين علوم اليونان وفلسفتهم إنما هو فيلسوف اليونان الأشهر أرسطو الذى كان أول من أرخ للعلم وللفلسفة وبث فى ثنايا ذلك تلك الرؤية التى ترسخ المعجزة اليونانية وتعتبر أن الإنسان اليونانى هو مبدع العلم والفلسفة، بل هو الإنسان بمعنى الكلمة فهو "ذلك الحيوان العاقل الحر"، أما بقية الناس فهم أجانب أو بالاصطلاح اليونانى "برابرة" لا يصلحون إلا للرق والعبودية، ومن ثم فهم لا يصلحون إلا للأعمال اليدوية الخسيسة التى من شأنها فى نظره وفى نظر اليونان عموما أن تفسد العقول وتجعلها غير صالحة للتأمل أو للفكر النظرى!

وكان أرسطو هو الذى اختار أن تكون بداية التأريخ للفلسفة (وكانت آنذاك هى اسم العلْم الذى يجمع فى إطاره كل العلوم) من طاليس فى القرن السادس قبل الميلاد، وربما جاء اختياره ذلك مستندا على أن طاليس كان فى عصره أحد الحكماء السبعة الذين اشتهروا بالحكمة والعلم بين اليونانيين.

والحقيقة التى ينبغى أن نعلمها جيدا حتى لا نقع فى شرك التأريخ الأرسطى أنه لم تجمع الروايات إلا على عبارة واحدة قالها طاليس وهى "إن الماء أصل العالم الطبيعى"، وهى عبارة لا شك فى

أنه نقلها عن التراثين المصرى والبابلى؛ فقد كانت كما أكد فرانكفورت فى كتابه "ما قبل الفلسفة" وكما أكدت المكتشفات الأثرية والبرديات القديمة إحدى نظريات الخلق القديمة التى راجت لدى المصريين القدماء ولدى البابليين أيضا. وهاكم نص النظرية المصرية: فى البدء كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كان آتوم وحده الإله الأول صانع الآلهة والبشر والأشياء. أما النظرية البابلية فتقول: فى البدء وقبل أن تسمى السماء وأن يُعرف للأرض اسم كان المحيط مكان البحر. فأى جديد بعد ذلك يمكن أن ننسبه إلى طاليس فيما قاله؟!

وإذا ما قيل – كما يقول أنصار المعجزة اليونانية دائما – إن طاليس كان له فضل التنظير وتحويل تلك الأساطير القديمة إلى ما يشبه الحقيقة العلمية المبرهن على صحتها، لأنه برر اختياره للماء بحجج وبراهين، لقلنا أن تلك الحجج والبراهين قد جاءت على لسان أرسطو ومن صياغته!! وحتى إذا ما اعتبرنا أن هذه الحجج صحيحة النسبة بنصها إلى طاليس فهى ليست كما يعرفها كل دارسى الفلسفة بالحجج الدقيقة التى تبرهن على حقيقة علمية أو فلسفية!!

ومن جانب آخر فقد اعتبر طاليس من جانب مؤرخى العلم أول علماء الفلك الأفذاذ لأنه تمكن على حد زعمهم من التنبؤ بكسوف الشمس الذى حدث فى عام ٥٨٥ قبل الميلاد، وهو الحدث



الذى تدور معرفتنا بطاليس وبحياته حوله، وهو الذى من أجله اشتهر وعُد أحد الحكماء السبعة. والحقيقة التى كشفت عنها الدراسات الحديثة وأكدها برتراندرسل - الفيلسوف الانجليزى الشهير - فى تأريخه للفلسفة رغم أنه من المؤمنين بالمعجزة اليونانية الغربية، أنه لا عبقرية لطاليس فى ذلك لأنه إنما استقى هذا العلم بالفلك من مدينة بابل التى كانت على علاقة وثيقة بليديا التى يرجح أن طاليس قد زارها لما لها من علاقات بملطية مدينته وبالساحل الأيونى الذى تقع عليه، وقد كان البابليون يمتلكون جداول معروفة للظواهر الفلكية، كما كان لديهم قانونا فلكيا يقول إنه كل تسعة عشر عاما يحدث كسوف للشمس، فما كان منه إلا أن تساءل: متى حدث الكسوف السابق؟! فأجابوه. فما كان منه إلا أن أضاف ١٩ سنة، وأعلن حينما عاد إلى ملطية أن كسوفا للشمس سيحدث فى ذلك العام (٥٨٥ ق.م) وقد حدث الكسوف فعلا، فطارت شهرته فى الآفاق!! فأى عبقرية فلكية يمكن أن ننسبها إلى طاليس حينما نعلم ذلك!. إن الحقيقة التى أعلنها أرسطو نفسه فى كتابه "السماء والعالم" أن علم اليونان بالفلك إنما هو ميراث بابلى نقله اليونان!!

ومن ذلك يتضح لكل من يفضلون أن يبدأوا تاريخ الفلسفة والعلم بطاليس جريا على عادة الغربيين منذ أرسطو وحتى الآن، أن طاليس لم يكن لا فيلسوفا ولا عالما أصيلا، بل كان فى كل ما ينسب إليه من نقلة الفكر والعلم الشرقيين. والأمر أيها السادة لا يتوقف عند

طاليس وحده، بل إن معظم ما ينسب إلى فلاسفة اليونان بعد طاليس إنما هو ميراث شرقى اقتبسه فلاسفة اليونان وتجاهلوا كثيراً ذكر مصادرهم الشرقية. وقد حاولت أن أكشف عن الكثير من ذلك فى كتابى الذى سيصدر قريبا عن تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (*) .

أما إذا أردنا أن نعرف نقطة البداية الحقيقية للعلم وللفلسفة فلنرجع إلى تراثنا المصرى القديم، فالحضارة المصرية كانت بحق كما قال جون ولسون مؤلف كتاب "الحضارة المصرية" هى الجديرة بلقب الحضارة المعجزة لأن المصريين هم الذين أبدعوا كل فكرهم وآدابهم وعلومهم على غير مثال سابق. فالتأريخ الحقيقى للعلم ينبغى أن يبدأ من برديتى كاهون وجاردنر (حوالى ٢٠٠٠ ق.م) وبرديتى سميث وايبرز (القرنان السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد) وكلها برديات فى العلوم الطبيعة. وبردية رايندا وبردية جولينشف وغيرهما فى الهندسة والرياضيات. فقد فعل ذلك جورج سارتون وغيره من مؤرخى العلم الكبار الذين تحلوا بالموضوعية العلمية إلى حد ما. والعجيب أننا لا نزال رغم مصريتنا ورغم انتمائنا الشرقى نجرى وراء خرافة البداية المعجزة للعلم فى العصر اليونانى!!.

أما التأريخ الحقيقى للفلسفة فينبغى أن يبدأ من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد حيث عاش مفكر مصرى قديم هو بتاح حوتب

(*) لقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب فعلاً عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، بالقاهرة ١٩٩٨م. وصدر الجزء الثانى عن نفس الدار عام ٢٠٠٠م.

صاحب "مخطوط الحكمة" الذى كشف عنه الأثريون وكما أسماه برستيد فى "فجر الضمير". وما علينا إلا أن نعود إلى ما يعرف ببردية "بريسى" لنحلل ما ورد فيها من أقواله لنجد أنفسنا أمام أول فيلسوف مصرى قديم اتخذ من الأخلاق والسياسة ميدانا لحكمته فكان بحق كما أسميته فى كتابى "نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة – دراسات فى الفلسفة المصرية واليونانية" رائدا للفكر الأخلاقى فى مصر القديمة. وقد انساب تيار الحكمة بعده فى مصر القديمة فكان ايبوور وإخناتون وامنموبى وغيرهم. كما ظهر فى بلاد الشرق القديم الأخرى العديد من المفكرين المشاهير أمثال زرادشت وبوذا وكونفشيوس ولاؤتسى وجميعهم سبقوا ظهور الفلسفة عند اليونان.

إن التأريخ الحقيقى لظهور العلم بمعناه النظرى والعملى وكذلك الفلسفة ينبغى أن نعود بهما إلى الشرق القديم وهذا ما يفعله الآن المؤرخون المنصفون من الغربيين وبقى أن نعى نحن هذه الحقيقة الناصعة ونعمل بمقتضاها. ولنجعل الأعوام الباقية من هذا القرن العشرين أعواما للتوجه نحو الشرق والاهتمام ببحث تراثه وتحليله لنربط ماضيه بحاضره. ولعلنا بهذا نمهد لدخولنا القرن القادم التمهيد الصحيح، فالقرن القادم فى اعتقادى سيشهد دورة حضارية جديدة تسودها أمم الشرق. ولكن أى شرق وبأى مفاهيم، هذا موضوع آخر ومقال جديد.

(٩)

حقا .. لقد آن أوان الاتجاه نحـو الشـرق (*)

(*) كتبت تعليقا على كلمة كتبها الأستاذ سامح كريم بجريدة الأهرام، ولم تنشر.
وللآن لم أعرف سببا لذلك!!

حقا .. لقد آن آوان الاتجاه نحو الشرق

أسعدنى كثيرا أن أقرأ تلك الكلمة القيمة التى كتبها "المتابع" الأستاذ سامح كريم بعنوان "ثقافتنا .. والاتجاه شرقا". فقد وضع يده على قصور كبير فى ثقافتنا العربية المعاصرة، وفى توجهنا الفكرى بشكل عام. فمنذ وضعت مناهجنا الدراسية بمعرفة الأساتذة الغربيين الأوائل ومن تتلمذ على يديهم من أساتذتنا الأفاضل اصطبغت هذه المناهج جميعا بالاتجاه نحو الغرب بحيث تمركزت كل دراستنا حول الغرب أدبه وفلسفته وفنونه وعلومه .. إلخ. ونسينا أن الغرب لا يمثل إلا جزءا ضئيلا من العالم المعروف سواء كان ذلك فى الزمن القديم أو فى العصر الحاضر.

والطريف أنه فى الوقت الذى يتجه الغربيون أنفسهم نحو الشرق لدراسة أديانه وفلسفاته وآدابه وفنونه بحيث لا نبالغ إن قلنا إن دراسات الغربيين عن الشرق - عبر المعاهد المتخصصة التى أسست خصيصا لذلك - قد فاقت فى كثرتها ودقتها ما يكتبه الشرقيون عن أنفسهم، نجد أن الشرقيين وخاصة العرب لا يزالون يؤمنون بالمعجزة الغربية فى كل شىء ويقيسون كل ما ينتجونه من آداب وفنون وفكر على ما ينتجه الغرب.

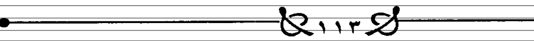
والحقيقــة أنه إذا جاز ذلك فى ميدان العلوم الدقيقة التى لابد فيهــا مــن مــتابعة الــتطور الغربى، فإنه لم يعد جائزا فى مجال

الإنســـانيات ســـواء كانت علوما أو آداب أو فنون ففى هذه المسألة لابـــد من أن ندرك أن الشرق شرق والغرب غرب . وأن مجتمعنا العـــربى الإســـلامى له خصوصيته التى لابد من مراعاتها وقياس التقدم فى كل الدراسات الإنسانية من خلال هذه الخصوصية ومدى تعبيرنا عنها فى شتى هذه المجالات.

والجدير بالانتباه أن أمم الشرق المعاصرة مثل اليابان والصين والنمور الأسيوية المختلفة قد حققت تقدمها من خلال البحث عن تلك الخصوصية ومراعاتها والاستناد عليها فى الإبداع والتجديد فى مختلف المجالات بالإضافة إلى الأخذ بكل أسباب التقدم العلمى والتكنولوجى فى الغرب.

ومن هنا فإنى أرى أنه إذا ما أردنا أن نحقق أى تقدم أو أن يكون لنا أى إسهام حضارى حقيقى فى هذا العصر، فإن ذلك لابد أن يتم عبر الاتجاه نحو معرفة أنفسنا أولا ومراعاة خصوصيتنا الحضارية، ومن ثم يكون الامتداد الطبيعى لنا أولا نحو الشرق فنحن أولا وأخيرا شرقيون فى الأساس. وإن ارتباطنا بالغرب لا ينبغى أن يلهينا عن هذه الحقيقة البديهية.

والأمر ينبغى أن يبدأ من النظر فى تعديل مناهجنا الدراسية فى مختلف التخصصات بحيث نعطى لدراسة الشرق سواء الأقصى أو الأدنى الوزن الذى يناسبه من حيث الارتباط الحضارى الوطيد



بيننا وبين حضارات الشرق المختلفة منذ القرون السابقة على الميلاد. ومرورا بتلك الصلات الحضارية الوطيدة بيننا وبين بلاد الشرق المختلفة فى فترة الازدهار الحضارى للعالم الإسلامى فى عصر الدولة الاسلامية العظمى التى ضمت الكثير من هذه البلاد ولا يزال بعض أهل هذه البلاد يدينون بالإسلام ويعتزون بانتمائهم إلى الحضارة الإسلامية ويتمنون لو أعيدت هذه الصلات الحضارية الوطيدة بيننا وبينهم!

إن الاهتمام بالشرق لا ينبغى أن يقتصر كما هو حادث الآن على العلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية بل الأهم من ذلك والأبقى أن يمتد إلى العلاقات الثقافية والفكرية. فعلى المترجمين أن يهتموا بنقل عيون الثقافة الشرقية فى الفلسفة والآداب والفنون المختلفة بقدر ما ينقلون إلينا ثقافة الغرب. وعلى مفكرينا وأدبائنا وعلمائنا أن يهتموا بقراءة فلسفات وآداب وفنون وعلوم الشرق بقدر اهتمامهم بقراءة نظائرها الغربية.

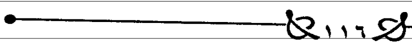
ولقد حاولت منذ مطلع الثمانينات أن نبدأ خطوة على هذا الطريق الطويل فى مجال الفلسفة، فطالبت بإدخال دراسة الفكر الشرقى ضمن المقررات الدراسية التى انصب ٩٥% منها على دراسة الفكر الغربى والخمسة الباقية على الفكر الفلسفى الإسلامى. ورغم معارضة البعض إلا أنه قد تم إدخال هذا المقرر فعلا إلى

الدراسات الفلسفية فى جامعة القاهرة وفى معظم الجامعات المصرية. بل وامتد ذلك إلى بعض الجامعات العربية مثل جامعة الإمارات العربية المتحدة وجامعة السلطان قابوس بعُمان. وأتمنى أن تأتى التعديلات للمناهج الدراسية فى تخصص الفلسفة فى المرة القادمة متضمنة دراسة الفكر الفلسفى الصينى، والفكر الفلسفى الهندى، والفكر الفلسفى المصرى، إلخ. كل على انفراد. وهكذا أتمنى أن يتم ذلك فى كل التخصصات التى تسمح طبيعتها بذلك حتى تتكامل شخصية الدارس العربى فيعرف أن عروبته تقتضى الاهتمام بمحيطه الحضارى الطبيعى وهو الشرق، إذ لا يصح أن تتوقف معرفتنا لبلاد الشرق عند حد معرفة أسماء الدول والعواصم على أقصى تقدير!!

ولاشك أن الإعلام العربى عامة والمصرى خاصة - باعتباره الإعـــلام الرائد فى المنطقة - ينبغى أن يلعب دوره فى هذا المجال؛ فإن كنا نطالب بأن يتم تعديل المناهج الدراسية فى كل مراحل التعليم بحيـــث يعبر عن هذا الاتجاه نحو الشرق. فإن دور الإعلام بأجهزته المختلفة - سواء المقروءة أو المرئية أو المسموعة - ينبغى أن يكمل دور المـــناهج الدراسية فى هذا المجال. إذ لا يصح ونحن فى القرن العشـــرين الـــذى شـــهد فى أواخره عودة الشرق الأقصى بقوة إلى منافســـة الغـــرب فى شتى المجالات، أن تتجاهل هذه الأجهزة أخبار الشـــرق وما يجرى على أرضه من تقدم مذهل فى تلك المجالات فى

الوقت الذى تنقل إلينا فيه كل ما تتناقله وكالات الأنباء الغربية الغث منها قبل الثمين!، ولا شك أن الإقبال الذى شهده رجال الإعلام التليفزيونى من الناس على مشاهدة مسلسل شرقى هو "أوشين" قد برهن بما لا يدع مجالا للشك أن الإنسان العربى يشتاق إلى معرفة أخلاق وقيم واتجاهات وآراء أبناء عمومته من الشرقيين ! وأنه قد ملّ من مشاهدة أفلام الكاوبوى الدعائية الداعية لقيم غير قيمه وعادات غير عاداته وياليتها كانت عادات وقيم نتمنى غرسها فى أعماق شبابنا!! إنها تركز على إيقاظ أسوأ ما فى الإنسان من غرائز الحرب والقتل.. إلخ!!

إن توجهاتنا الفكرية والتعليمية والإعلامية فى حاجة فعلا إلى وقفة تأمل طويلة قد تقودنا إلى الطريق الأصوب الذى لم أعد أشك لحظة فى أنه يبدأ من التوجه نحو الشرق حتى نكتشف عبر ذلك امتدادنا الحضارى الطبيعى، ونعدل كفة الميزان التى مالت بشدة منذ الاستعمار الغربى لبلادنا العربية نحو الغرب، ولاتزال بفعل عوامل عديدة تميل نحوه. إن هذه الوقفة التأملية ينبغى أن تقودنا إلى تجاوز هذا الميل المرضى نحو الغرب. فالتقدم لم يعد حكرا عليه، كما أن التقدم لا يبدأ من التبعية العمياء التى بلغت عند بعضنا حد التقديس للحضارة الغربية!! بل يبدأ من معرفة هويتنا القومية الذاتية وامتداداتها الطبيعية فى بلاد الشرق أولاً.



(١٠)

"المنهج" بين الغزالى وفلاسفة الغرب المحدثين (*)

(*) ورقة ألقيت فى ندوة عن "دور العلماء العرب فى مناهج البحث العلمى" عقدت بجامعة الإمارات العربية المتحدة بالعين.

ونشرت بمجلة "المنتدى" التى تصدر بدبى بدولة الإمارات العربية المتحدة، العدد ٧٤ ــ سبتمبر ١٩٨٩م.

"المنهج" بين الغزالى وفلاسفة الغرب المحدثين

لقد أصبح من الحديث المكرر والمعاد الإشادة بدور العلماء العرب فى تشكيل العلم الغربى الحديث، فتاريخ العلم لا يعرف الحدود الجغرافية ولا التقسيمات الحضارية، فهو تاريخ متصل الحلقات يأخذ اللاحق فيه عن السابق، بل هو لايستطيع أن يبدأ بحثه العلمي إلا من حيث انتهى سابقه.

ومن هنا فإنه لم يعد لدى أحد أى شك فى أن نقطة انطلاق العلم الغربى منذ عصر النهضة كانت من العلم العربى فى مختلف الفروع سواء اعترف العالم الغربى بذلك أو لم يعترف؛ إذ لم يكن باستطاعة العالم الغربى أن يبدأ من فراغ ولم يكن بمستطاعه كذلك أن يبدأ من العلم اليونانى إلا عبر العرب، فرغم أن مؤلفات أرسطو كانت معروفة لدى الغربيين منذ القرن الثانى عشر تقريبا إلا أن ترجماتها الرديئة كانت تحول بين الناس وبين مافيها، كما أن الكتب المقدسة لم يكن يقرأها أحد فى ذلك الزمان، ولم يكن هناك لديهم أى علم طبيعي يستحق هذا الاسم. وعلاوة على كل ذلك، فقد كان الجهل متفشيا بينهم لدرجة كبيرة قبل أن يتصلوا بالحضارة الإسلامية.

ولم يكن غريبا فى إطار ذلك أن يعلن أعظم عالم ومفكر غربى فى القرن الثالث عشر وهو روجر بيكون الانجليزى الذى

سواء حيث كانت قاعدة البداهة والوضوح[١] التى ارتضاها أساساً لليقين العقلى مبنية على أسس المنهج الرياضى الدقيق بعمليتيه: الحدس والاستنباط.

لقد كانت بداية الصحوة العلمية الغربية إذن بداية فلسفية قادها هذان الفيلسوفان حينما اكتشفا أهمية المنهج فى التقدم الحضارى سواء فى ميدان الفلسفة أو فى ميدان العلوم، حيث قاد بيكون علماء الطبيعة إلى المنهج الاستقرائى التجريبى، كما قاد ديكارت علماء الرياضيات إلى المنهج الاستنباطى وقدم لهم اكتشافه الجديد فى "الهندسة" وهو "الهندسة التحليلية".

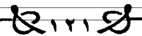
إذن، لقد كان التطور فى المنهج الفلسفى لدى بيكون وديكارت أساسا لما قدموه من تطوير فى مناهج العلوم. ومن هنا تبدو أهمية التوقف عند أثر الفكر العربى الإسلامى فى هذين الفيلسوفين على وجه الخصوص. ولما كان المجال لا يتسع إلا لذكر أثر مفكر عربى واحد فى مفكر غربى واحد، فقد اخترت التوقف عند أثر الإمام الغزالى على ديكارت؛ حيث توقفت شهرة الغزالى بيننا على أنه حجة الإسلام وصاحب الكتاب العظيم "إحياء علوم الدين"، وفى الحقيقة أن للإمام صولات وجولات فى ميادين أخرى عديدة أهمها المنطق والفلسفة ولا أعنى بذلك أنه قد تفرغ لهما وإنما أقول إنهما كانا ضمن اهتماماته المتعددة. فنحن نعرف أن همّ الغزالى الأول كان إحياء العقيدة

درس اللغات خاصة اللغة العربية وكان من حملة الإنتاج العربى فى مختلف العلوم إلى الأجيال الأوروبية التالية، أقول لم يكن غريبا أن يصيح قائلا: "أعجب ممن يريد أن يبحث فى الفلسفة والعلم وهو لا يعرف اللغة العربية"!. وليس أبلغ من تلك العبارة تعبيراً عن حاجة الإنسان الغربى فى ذلك الوقت للتعرف على كل نتاج العرب العلمى والفلسفى سواء الذى نقل إلى اللغة اللاتينية التى كانت اللغة المتداولة بينهم حتى القرن السادس عشر أو من اللغة العربية التى كانت لغة الفكر والعلم فى ذلك الزمان.

ولقد أثرت أن أتحدث هنا عن موضوع لم يتناوله الباحثون كثيرا من قبل وهو تأثير العرب فى المنهج الفلسفى ولا ينبغى أن نتسرع بالقول: وما علاقة المنهج الفلسفى بالمناهج العلمية؟!، فالعلاقة بينهما وثيقة جدا، فقد بدأت الصحوة الغربية الحقيقية فى منتصف القرن السادس عشر على يد الفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون F.Bacon أول من أعلى شأن الاستقراء العلمى بعد سلفه روجر بيكون فى مشروعه الضخم "الاحياء العظيم" الذى أصدر منه "الأورجانون الجديد Novum Organum " محتويا على أسس المنهج الاستقرائى التجريبى الجديد وتطبيقات له. كما كان الشق الثانى لهذه الصحوة المنهجية العلمية على يد الفيلسوف الفرنسى الكبير رينيه ديكارت R. Descartes الذى انطلق ليجدد فى المنهج الفلسفى على أسس رياضية، فكان فيلسوف المنهج الفلسفى الرياضى على حد

الدينية فى نفوس معاصريه بصورتها النقية الخالصة من مماحكات المتكلمين ومناقشات الفلاسفة وشطحات متفلسفة الصوفية وتطرف الفرق الباطنية.

وقبل أن نتوقف أمام المنهج بين الغزالى وديكارت يجدر الإشارة إلى أن للغزالى مناقشات مطولة حول قضايا هامة فى ميادين البحث العلمى أخص بالذكر منها قضية السببية، فالإيمان بمبدأ السببية أو العلية بين الظواهر أحد مصادرات البحث العلمى الأساسية وقد أدرك العلماء والفلاسفة هذا منذ أرسطو ولكن كان الغزالى أول من ناقش هذا المبدأ بصورة غير مسبوقة حينما قال فى "تهافت الفلاسفة": "إن الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا، وما يعتقد مسبباً ليس ضروريا عندنا، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمناً لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمناً لنفى الآخر، فليس على ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل الرى والشرب، والشبع والأكل، والشفاة وشرب الدواء .. وهلم جرا .. إلى كل المشاهدات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف. وأن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوى لا لكونه ضروريا فى نفسه غير قابل للخرق."[٢]. وهو يشرح ما يقصده هنا بقوله فى نص آخر "وليس لهم من دليل إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار، والمشاهدة تدل على الحصول عنده، ولا تدل على الحصول به وأنه لا علة سواه"[٣].



وخلاصة ما يعنيه الغزالى فى هذه القضية الهامة هو أننا نشاهد تعاقب حادثتين فتسمى الأولى منهما سببا والأخرى مسببا، لكن هذا التعاقب الذى اعتدنا مشاهدته ليس دليلا على أن الأولى علة لوجود الثانية أو سببا فى وجودها كما يقول القائلون بالسببية إذ لايمكن أن نستدل من تعاقب شيئين بانتظام فى مشاهداتنا حتى الآن على أن ذلك يجب أن يكون دائماً ومستمراً دون أن يتصور تغيره أبدا(٤).

وبالطبع فإن الدافع الدينى وراء هذا التحليل الغزالى لمبدأ السببية واضح، فهو يريد أن يترك مجالا للمعجزات. ولكنه كان يعنى أن هذا الدافع الدينى فى إنكار السببية قد يساء فهمه من قبل العلماء فقال: "إن الله تعالى خلق لنا علما بأن هذه الممكنات لم يفعلها، ولم ندع أن هذه الأمور واجبة بل هى ممكنة يجوز أن تقع ويجوز أن لا تقع"(٥).

إذن فرغم نقد الغزالى لمبدأ السببية على ذلك الأساس الدينى، إلا أنه كان يعى أن انكارها قد يسبب خللا وارتباكاً عقلياً فيؤدى بنا إلى ارتكاب محاولات شنيعة حتى يجوز عندنا انقلاب الكتاب حيواناً وجرة الماء شجرة تفاح وغير ذلك" (٦).

ولذلك أكد الإمام على أن الله خلق لنا علما بأن هذه الممكنات لم يفعلها. وليس من قبيل الجديد أن نشير إلى أن رأى الغزالى هذا قد ردده الفيلسوف الانجليزى دافيد هيوم D. Hume فى القرن الثامن عشر حيث انتقد مبدأ السببية وقال كالغزالى أنه لا يوجد دليل عقلى

على ضرورة وجود علاقة بين العلة والمعلول وإنما هى العادة التى جعلتنا نرى المعلول يعقب العلة بانتظام فى جميع مشاهداتنا، فالعادة هى التى أدت بنا إلى إدعاء أن الأول علة وجود الثانى. وهذه المشاهدات لا تكفى لإثبات وجود علاقة ضرورية بينهما كما ينص مبدأ السببية، فمبدأ السببية أو العلية فى رأى هيوم "إنما نشأ عن غريزة وعادة طبيعية فى البشر تجعلنا نتيقن يقينا باطنيا أن كل حوادث العالم لا يمكن أن تخالف النظام الدائم الثبات(٧).

ولكن رغم هذا الانتقاد فإن هيوم ظل يعتقد بضرورة التمسك بمبدأ السببية الذى لا يمكن أن تقوم العلة بدونه. وهذا نفس ما انتهى إليه الغزالى رغم اختلاف المنطلقات لدى الاثنين. ولسنا نملك دليلا حتى الآن على أن هيوم قد نقل عن الغزالى، وربما كان هذا من قبيل تماثل التفكير بين مفكرين فى عصرين مختلفين فى نفس المشكلة فهذا يحدث كثيرا، وأن كان التماثل لا يمكن أن يصل إلى أن يكرر الثانى ما قاله الأول بنفس ألفاظه وحججه تقريباً!

إن من الأهمية هنا بمكان أن نعرف أن ما أثاره الغزالى فى القرن الخامس الهجرى وهيوم فى القرن الثامن عشر الميلادى أصبح الآن مثارا للجدل وللحوار الدائم بين علماء مناهج البحث من الفلاسفة وبين علماء الطبيعة فيما يتعلق بمشكلة الحتمية واللاحتمية فى العلم المعاصر.

لقــد كان الامام الغزالى من الفقهاء الإسلاميين المؤمنين إيمانا قاطعــا بأهمية العلوم والبحث العلمى، وليس أدل على ذلك من قوله بصورة واضحة فى معرض نقده لبعض فقهاء عصره ممن ينكرون عــلى الحكمــاء كل علومهم: لقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإســلام ينصــر بانكــاره هذه العلوم، إذ ليس فى الشرائع تعرض للأمور الدينية(٨). فقد تحدث الغزالى عن أقسام العلوم واعتبرها ستة هى: العــلوم الرياضــية والمــنطقية والإلهيــة والطبيعية والسياسية والخــلقية. أما العلوم الرياضية، فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيا واثباتا بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها(٩).

وموقفــه هذا من العلوم الرياضية يبين فهمه لطبيعة قضاياها المجردة القائمة على البرهان، وأنها قضايا مطلقة ولا يمكن التشكيك فى صدقها.

أمــا المــنطق فقد أكد الغزالى أهميته وأنه لا يتعلق شيء منه بــالدين نفيــا أوإثــباتاً واعتبر أن موضوعه "النظر فى طرق الأدلة والمقــاييس وشــروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها وشروط الحد الصــحيح وكيفيــة ترتيبه، وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان(١٠).

ولقد أدى الغزالى خدمة جليلة للمنطق حينما استطاع أن يمرره ويكسبه الشرعية رغم الحملة الشديدة عليه من بعض الفقهاء. وذلك من خلال إلباسه ثوباً إسلامياً فى "القسطاس المستقيم" باستنباط أنواع الأقيسة من القرآن الكريم[١١].

أما العلوم الطبيعية فهى فى نظره "بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام كالماء والهواء والتراب والنار وعن الأجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها[١٢] أما موقفه من البحث فيها فيبدو فى قوله: "وكما ليس من شرط الدين أيضاً إنكار علم الطب فليس من شرطه انكار ذلك العلم إلا فى مسائل معينة[١٣]. أما تلك المسائل التى يرى فيها مخالفة للدين فهى تتلخص فيما كان يراه بعض الفلاسفة إن الشمس والكواكب والنجوم تتحرك بذاتها فى حين يرى الغزالى أن الأساس هنا أن نؤمن " بأن الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها، بل هى مستعملة من جهة فاطرها.. ولا فعل لشىء منها بذاته عن ذاته"[١٤].

ولننظر الآن فى رحلة الغزالى الفكرية لندرك كيف وضع لبنة المنهج العقلى الاستنباطى قبل أن ينتقل منه إلى مرحلة التصوف ويتفرغ تماماً للعبادة فى أواخر حياته. فلقد كان رحمه الله شغوفاً بالإمساك بالحقيقة أيما شغف وهو يعبر عن ذلك الشغف فى مطلع " المنقذ من الضلال" حيث يقول: " لقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى

وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد شره الصبا[١٥].

أما الطريق الذى سلكه الإمام للوصول إلى حقائق الأمور فهو طريق العقل، فلقد اتبع منهجاً عقلياً يقوم على فكرتين أساسيتين هما: فكرة " الشك" وفكرة " الحدس الذهنى" وهو يعبر عن ذلك فى قوله " إن العلم اليقينى هو الذى يكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى منه ريب[١٦]، فهو يقيس العلم اليقينى بالانكشاف أى بالحدس الذى لا يبقى معه ريب. لكن كيف الوصول إلى هذا الحدس؟! إنه لا يأتى إلا بعد بحث طويل وعناء شديد. إنه يأتى بعد النظر فيما نعلم والتشكيك فيه، فقد فتش الإمام فى علومه فوجد نفسه عاطلاً عن علم موصوف بهذه الصفة إلا " فى الحسيات والضروريات"، لقد وثق فى المحسوسات وعلق عليها أمل الوصول إلى ذلك العلم اليقينى ولكنه سرعان ما تشكك فيها قائلاً: " فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضاً .. وأخذ هذا الشك يتسع فيها ويقول من أين الثقة بالمحسوسات؟ وقد عبر الغزالى عن هذه الشكوك من خلال إبراز التناقضات التى تقدمها لنا أدوات الحس وخاصة حاسة البصر " فهى تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفى الحركة! ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم

تكن له حالة وقوف . وتنظر إلى الكوكب فتراه فى مقدار الدينار. ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار"[١٨].

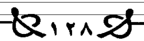
ولما كان ذلك كذلك، فقد انتقل إلى البحث في العقل ومعارفه " فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التى هى من الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشيء الواحد[١٩]. وسرعان ما ثارت الشكوك حول قيمة هذه الأوليات العقلية، إذ يصور لنا الغزالى الصراع الذى ثار بين الحس والعقل فى نفسه، فإن كان العقل قد شكك من قبل فى قيمة الحس فإن الحس يتشكك فى الثقة فى العقل حيث يتخيله الغزالى يقول: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بى فجاء العقل فكذبنى ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى؟!، فلعل وراء العقل حاكما آخر إذا تجلى كذب العقل فى حكمه[٢٠].

وقد تمهل مفكرنا فى الحكم على العقليات وأخذ يتأمل المشكلة حيث يقول: توقفت النفس فى جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت أما تراك تعتقد فى النوم أموراً وتتخيل أحوالاً وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا شك فى تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل. فيم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق الإضافة إلى حالتك التى أنت فيها. لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى

منامك، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها[٢١].

كان ذلك هو موقف الغزالى الشكى من الحس والعقل كأداتين للمعرفة، وهذا الموقف لم يقتصر التعبير عنه فى " المنقذ" بل عبر عنه أيضاً فى "مشكاة الأنوار" حيث قدم كأبرع الفلاسفة العقليين سبعة حجج ضد صدق المعرفة الحسية ممثلة فى إحدى هذه الحواس حاسة الإبصار[٢٢] ومن ثم فقد نصر عليها المعرفة العقلية بل قال بكل وضوح إن "العقل أولى بأن يسمى نورا"[٢٣]، وأضاف أن العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هى عليه[٢٤].

ولا يظـــنن أحـــد أن تـــلك الـــتجربة المعرفية التى عبر عنها الغزالى كانت مجرد تجربة نفسية خرج منها إلى يقين الصوفية دونما إعـــلاء لشأن العقل الإنسانى ومقدرته على الوصول إلى اليقين، فلقد كـــانت تـــلك الـــتجربة رغم أبعادها الشعورية والنفسية التى وصفها صـــاحبها تجربة واعية بأهمية دور الحواس والعقل فى المعرفة، لقد كان على وعى كامل بضرورة إعمال العقل الفردى فى كل ما ورثه الإنســـان مـــن معتقدات وآراء مهما كان مصدرها طالما هو إنسان مـــثله. أليـــس هو القائل فى "ميزان العمل" : "من الناس من يقولون الـــرأى عن هوى ثم يتعللون بأنه مذهب فيلسوف معروف كأرسطو



وأفلاطون والأغلب أن من يسمع لهم لا يطالبهم ببرهان لموافقة قوله لطبعهم.. إنه لمن العجب أن السامع للخبر المنقول له على هذا النحو لا يطـــالب الناقل ببرهان أكثر من نسبة الخبر إلى صاحبه مع أنه لو كـــان يحدثـــه عـــن أمر يتعلق به خسران درهم لكان لا يصدقه إلا ببرهان"[٢٥].

ولو أننا أمعنا النظر فى ذلك النص لوجدنا أن هذا هو نفس النقد الذى كتبه فرنسيس بيكون تحت ما أسماه " أوهام المسرح"[٢٦]، حينما كان يتحدث عن الأوهام المنهجية التى يقع فيها الناس فى إطار حديثه عن الجانب السلبى من منهجه الفكرى.

ولقد لخص الغزالى إصراره على المنهج العقلى فى التفكير والفهم والتفسير فى عبارة واحدة حينما قال: "من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال"[٢٧]. فالشك العقلى لديه إذن أول مراتب اليقين.

ولقد عبر الغزالى عن انتقاله من حالة الشك التى استمرت " قريباً من شهرين" إلى حال اليقين بقوله: "وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة[٢٨].

إذن لقد عبر الغزالى حالة الشك إلى اليقين من خلال ذلك النور الذى كشف للنفس عن صحة البديهيات والحقائق العقلية الأولية: إن ذلك النور هو الحدس، فتلك الأوليات والحقائق البديهية لاتدرك بنظم الكلام وترتيب الحجج بل بالحدس المباشر الذى هو مفتاح المعرفة اليقينية ولولاه لما رجع اليقين إلى النفس.

لقد وصل بنا الغزالى هنا إلى أرقى الدرجات المعرفية وأعلاها مرتبة، إنها درجة الحدس التى تتضاءل إلى جانبها المعرفة الحسية أو المعرفة العقلية الاستدلالية. إن الحدس يتيح للإنسان معرفة ما لايستطيع بالوسائل الأخرى الوصول إليه. ولايختلف فى ذلك الحدس العقلى عند الفلاسفة عن الحدس الصوفى الذى يتحدث عنه الغزالى هنا. فقد جعل الفلاسفة الحدسيون وعلى رأسهم ديكارت الضامن لصدق الحقائق هو الله، على حين اعتبر الغزالى أن ما أتاه من يقين عبر ذلك الحدس من قبيل رحمة الله الواسعة.

وعلى كل حال، فتلك كانت رحلة الغزالى الفكرية ورؤيته المنهجية من خلال كلماته نفسها، وبين ذلك الموقف المنهجى للغزالى وبين موقف ديكارت فليقارن المقارنون ما وسعتهم المقارنة، فيقارنوا بين حالة الشك التى عاشها ديكارت وعبر عنها فى "التأملات" وبين حالة الشك التى عبر عنها الغزالى كما رأينا فى "المنقذ من الضلال"، وليقارنوا بين كيفية انتقالهما منها إلى اليقين، حيث سيجد المقارن أن

فقرات بأكملها من "تأملات" ديكارت أحياناً ومن "مقاله عن المنهج" أحياناً أخرى تكاد تتشابه تشابهاً حرفياً مع فقرات " منقذ" الغزالى، خاصة تلك الفقرات التى يتحدث فيها ديكارت عن نقده للحواس ووصفه للحيرة التى انتابته فى الخلط بين حال النوم وحال اليقظة، والفقرات التى يتحدث فيها عن ضرورة التشكيك فى كل ما هو موروث وإفراغ الذهن منه. وكذلك تلك الفقرات التى تحدث فيها عن انكشاف الحقيقة له عبر الحدس وإثباته وجود النفس كذات مفكرة، وكذلك تلك الفقرات التى تحدث فيها عن الضمان الإلهى لما وصل إليه الإنسان من حقائق(٢٩).. إلخ

ولما كنت قد انشغلت بقضية تأثر ديكارت بالغزالى فترة طويلة لدرجة أننى كثيراً ما كنت آتى بنصوص ديكارت وأضعها أمامى حين أقرا منقذ الغزالى لأرى مدى هذا التشابه وقوته.. فقد سعدت سعادة بالغة حينما وقع فى يدى كتاب للدكتور محمود حمدى زقزوق بعنوان " المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت"، ولم أندهش حينما وجدته قد انشغل بنفس القضية، قضية تأثر ديكارت بالغزالى وقد بحثها المؤلف بحثاً مفصلاً وساعده فى ذلك أستاذه الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، وكشف عن نتائج هذا البحث فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابه هذا، حيث وجد أن أحد الباحثين التونسيين ويدعى الكعاك قد شغلته نفس القضية لدرجة أنه ذهب إلى باريس وزار مكتبة ديكارت الخاصة فوجد بين محتوياتها ترجمة لكتاب "المنقد من الضلال"

للغزالى، ووجد أن ديكارت قد وقف عند عبارة الغزالى " الشك أول مراتب اليقين" ووضع تحتها خطا أحمر ثم كتب على الهامش ما نصه " يضاف ذلك إلى منهجنا"[٣٠].

ولست أجد أى مجال للتشكيك فى هذه الرواية حيث إن ذلك واضح للعيان إذا ما وضعنا نصوص الغزالى السابق الإشارة إليها ونصوص ديكارت بعضها إلى جوار بعض ولعل قائلا يقول: ولماذا لم يذكر ديكارت ذلك فى مؤلفاته ويقر بهذا التأثر؟! لكانت الإجابة: إن تلك عادة غربية قديمة قدم الفكر اليونانى الذى لم يذكر فلاسفته أى تأثر لهم بفكر الشرقيين الذين أخذوا عنهم رغم أن الفكر الشرقى القديم يمثل بالنسبة لهم الأب الشرعى الذى لا وجود لهم بدونه، وليس ديكارت إلا أحد هؤلاء المفكرين الغربيين. إنه لم يكتف بإهمال من تأثر بهم من المفكرين الإسلاميين. بل امتد ذلك إلى السابقين عليه من المفكرين الغربيين أنفسهم؟ فقد ادعى أنه لايدين بشيء لأحد من المتقدمين وأن الآراء المشتركة بينه وبينهم مؤسسة عنده على نحو مغاير[٣١] وبالطبع فإن أحداً من دارسى ديكارت لم يصدقه فى ذلك، فلم يولد بعد ذلك المفكر الذى لم يتأثر بسابقيه حتى ولو كان يختلف معهم كل الاختلاف.

الهوامش

١) يقول ديكارت فى هذه القاعدة: " أنا لا أقبل شيئاً على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك، بمعنى أن أبذل الجهد فى اجتناب التعجل وعدم التشبث بالأحكام السابقة وأن لا أدخل فى أحكامى إلا ما يتمثل لعقلى فى وضوح وتميز يزول معهما كل شك". (انظر:" مقال عن المنهج" لديكارت، الترجمة العربية لمحمود الخضيرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ أو " فلاسفة أيقظوا العالم" من تأليفنا "الفصل الخاص عن "ديكارت وشيطان الشك". ص ٢٢٧، وهو صادر عن دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٨).

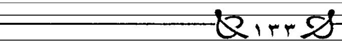
٢) أبو حامد الغزالى: تهافت الفلاسفة: ص ٥٦.

٣) نفسه، ص ٦٦.

٤) انظر عرضاً مسهباً لنظرية السببية عند الغزالى فى كتاب د. أبو يعرب المرزوقى عن " مفهوم السببية عند الغزالى" دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، بدون تاريخ .

٥) الغزالى: تهافت الفلاسفة: ص ٦٧ -٦٨.

٦) نفسه ٢ ص ٦٨.



٧) نقلاً عن: مقدمة د. جميل صليبا ود. كامل عياد لتحقيقهما لكتاب أبى حامد الغزالى: المنقذ من الضلال: دار الأندلس للطباعة والنشر الطبعة العاشرة، بيروت ١٩٨١م ص ٢٠-٢١.

٨) الغزالى: المنقذ من الضلال: طبعة بيروت بتحقيق جميل صليبا وكامل عياد ص، ١٠٢.

٩) نفسه، ص ١٠٠.

١٠) نفسه، ص ١٠٤.

١١) انظر: د. مصطفى النشار: فلاسفة أيقظوا العالم: ص ١٥٩-١٦٠.

١٢)الغزالى: المنقذ من الضلال: ص ١٠٥.

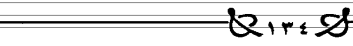
١٣) نفس المرجع السابق، ص ١٠٥.

١٤) نفسه، ص ١٠٦.

١٥) نفسه، ص ٨١.

١٦) نفسه، ص ٨٢.

١٧) نفسه، ص ٨٤



١٨) نفسه، ص ٨٤.

١٩) نفسه.

٢٠) نفسه، ص ٨٥.

٢١) نفسه.

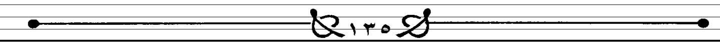
٢٢) الغزالى: مشكاة الأنوار: تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا فى: "القصور العوالى من رسائل الغزالى"، الجزء الثانى، مكتبة الجندى بالقاهرة، طـ (٢)، ١٩٧٠م، ص. ص ٨ – ١٠.

٢٣) الغزالى: نفس المصدر السابق، ص ٨.

٢٤) نفسه، ص ١١.

٢٥) هذا النص نقلاً عن، د. زكى نجيب محمود: المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى: دار الشروق، القاهرة ــ بيروت، بدون تاريخ، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

وانظر فى هذا المجال تأكيد د. زكى على أن الغزالى صاحب منهج علمى يكاد يجمع كل أطراف المنهج الرياضى عند ديكارت والمنهج التجريبى عند بيكون. إذ " يكاد لا يكون فى منهجيهما نقطة واحدة لم يوردها الغزالى شرطاً من شروط النظرة العلمية



التى نثر أصولها على صفحات كتبه نثراً" ص ٣٢٠ من نفس الكتاب.

٢٦) انظر : د. مصطفى النشار: نفس المرجع السابق، الفصل الثانى عشر" بيكون والأوهام الأربعة"، ص ٢٢٠ – ٢٢١.

٢٧) هذا النص أيضاً نقلاً عن: د. زكى نجيب محمود: نفس المرجع السابق، ص ٣٢٩.

٢٨) الغزالى: المنقذ من الضلال: ص ٨٦ – ٨٧.

٢٩) انظر: ديكارت: التاملات فى الفلسفة الأولى: ترجمة د. عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة.

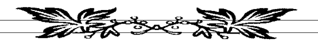
وكذلك: ديكارت، مقال عن المنهج، الترجمة العربية السابق الإشارة إليها.

٣٠) انظر: د. محمود حمدى زقزوق : المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ص ٦.

٣١) انظر: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة: دار القلم ببيروت، بدون تاريخ، ص ٦٩.

(١١)

جمال الدين الأفغانى..
رائد التنوير الشرقى(*)



(*) دراسة أعدت، وألقى ملخصها فى الندوة التى عقدها المجلس الأعلى للثقافة. بمناسبة مرور مائة سنة على وفاة جمال الدين الأفغانى، بالقاهرة يومى ٢٨ و٢٩ يونية ١٩٩٧م. ونشرت بمجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ المجلد ٥٧ ــ العدد ٤ ، اكتوبر ١٩٩٧م.

جمال الدين الأفغانى..
رائد التنوير الشرقى

تمهيد:

يوافق هذا العام مرور مائة سنة على وفاة جمال الدين الأفغانى حيث توفى عام ١٨٩٧م[١].ومع ذلك لايزال الاختلاف حول آرائه وأفكاره ومواقفه مستمراً بين الدارسين والمؤرخين!. وليس فى ذلك ما يشين الرجل أو يقلل من دوره الإصلاحى الكبير؛ فهذا الاختلاف لم يلحق به وحده، وإنما هو قاسم مشترك عانى منه وعاش فى إطاره كل المصلحين فى كل زمان وفى أى مكان!

ولعلنا نتذكر سقراط ذلك الفيلسوف الآثينى العظيم الذى أوقف حياته على إصلاح أحوال بلده آثينا والدعوة إلى إعادتها إلى سيرتها الأولى من سيادة الآخلاق القويمة والسياسة المستقرة والمعرفة التى تصل إلى لب الأشياء ولا تقف عند حدود ظواهرها الفجة، ومع ذلك فقد أساء الأثينيون فهم رسالته الإصلاحية وحكموا عليه بالإعدام. واختلف تلاميذه بعد ذلك حول تفسير مذهبه الفلسفى فظهرت مدارس فلسفية عديدة أثرت الحياة الفكرية في بلاد اليونان وتطور معها الفكر الفلسفى. وهكذا الأمر دائماً؛ فالاختلاف حول ما يقدمه المفكر يكون فى معظم الأحيان دافعاً إلى التقدم وعلامة صحة تشير إلى قوة التفاعل بين المفكر ومجتمعه.

إن جمال الدين الأفغانى كان من ذلك الطراز من المفكرين الذين عاشوا فكرهم وعبروا بصدق وإخلاص عن قضايا مجتمعهم وبلوروا مواقف الناس فى عصرهم. وإذا كان قد حدث اختلاف بين الدارسين والشراح حول تفسير بعض أفكاره ومواقفه، فإن ذلك قد لا يبرر ذلك التناقض التام فى تقدير قيمة الرجل بين من يعتبرونه موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام وداعية الأمة إلى النهضة الجديدة(٢)، وبين من يقللون من دوره ومن شأن حصيلته الفلسفية والعلمية ويعتبرون أن البحث عن خيط يربط بين أفكاره مضيعة للوقت(٣).

أولاً: تساؤلات تطرح إشكالية البحث حول "الشرق"عند جمال الدين:

وعلى أية حال فإن القضايا التى أثارها الأفغانى ويختلف الباحثون حولها كثيرة ومتشعبة. لكن ما يربط بين هذه القضايا فى اعتقادنا هو تلك الدعوة التى وهب حياته لها وركز حولها جهاده، الدعوة إلى نهضة الشرق.

وقد اخترنا أن نتوقف فى بحثنا هذا عند رؤيته للشرق وعوامل يقظته على اعتبار أن هذا هو الموضوع المحورى لرسالته الإصلاحية. وهو البؤرة التى تتحلق حولها كل القضايا الأخرى التى أثارها وأبدى رأيه فيها.

لقد كثر استخدامه لاصطلاح " الشرق" فى خطابه الاصلاحى سواء المكتوب أو الشفاهى، فقد كتب عن دهري الشرق، وعن

المسألة الشرقية، وعن الحكومات الشرقية، وعن الغرب والشرق، وعن مصر والمصريين وحكم الشرق، وعن سياسة انكلترا فى الشرق. كما شارك فى تأسيس صحيفة " مرآة الشرق". ولما تمرد عن المحفل الماسونى أسس محفلاً وطنياً شرقياً. ولما أسس "العروة الوثقى" هو وتلميده محمد عبده جعلاها موجهة إلى الشرق وداعية إلى اتحاد الشرق وأوطانه. وكثرت أحاديثه وكتاباته فيها عن الجامعة الإسلامية والخلافة الإسلامية وضرورة اتحاد الشرقيين تحت إمرة حاكم عادل. وبدا فى حديثه متفائلاً بصدد مستقبل الشرق رغم أن الظروف التى عايشها جميعاً كانت تشهد بداية لحركة الاستعمار الأوروبى للكثير من دول الشرق!

فماذا يعنى الشرق عند الأفغانى وفى فكره؟! إن للشرق مفاهيم عديدة منها الشرق القديم وحضاراته، ومنها الشرق العربى، والشرق الإسلامى، والشرق الأوسط، والشرق الآسيوى.. الخ . فأى شرق يقصد جمال الدين؟! وبأى معنى يفهمه؟! وماهى حدود الشرق عنده؟! وفى مواجهة من يدعو لاتحاد الشرقيين؟! وضد من يدعو إلى يقظة الشرق وإلهاب وعى أبنائه؟! وما علاقة الشرق عنده بالإسلام والعروبة: هل هى علاقة تقاطع أم علاقة تكامل؟! وما هو المستقبل الذى ينشده للشرق الذى يدعو إلى اتحاده وتقدمه؟!

إن هذه الأسئلة وغيرها كثير تتداعى إلى الذهن كلما ذكر جمال الدين الأفغانى وذكر معه مصطلح " الشرق". ولعلنا من خلال

الإجابة عنها نكشف عن جوهر جهوده الإصلاحية. ونكتشف بعد مرور قرن على وفاته أنه لايزال يعبر عن جانب كبير من الهم "القومي" و"الشرقي" الذى لايزال جاثماً على عقول المهتمين بالمسألة الشرقية فى مواجهة الهيمنة الغربية والاستعلاء الغربى.

ثانياً : المقصود "بالشرق " عند الأفغانى :

يغلب على معظم الباحثين الظن بأن الشرق عند جمال الدين يقصد به فقط الشرق الإسلامى، وأن الشرقيين عنده هم فقط المسلمون[٤].

لكن الحقيقة أنه لم يقصر كلمة الشرق على الشرق الإسلامى، ولم يقصر كلمة الشرقيين على المسلمين وحدهم، لأنه كان يدرك أن بلاد الشرق لا يقطنها المسلمون فقط، بل بها أيضاً المسيحيون واليهود وأصحاب الديانات الوثنية. والأفغانى لم يكن فى يوم من الأيام ممن يفرقون بين مواطنى الشرق بسبب العقيدة الدينية التى يدين بها أولئك أو هؤلاء وإنما كان أكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة وميلا للعمل بها فعلاً بين نوع الإنسان، خصوصاً فى الحقوق العامة التى لا يصلح لها معنى إلا بالحرية المعقولة.. كما أنه كان شديد البعد عن التعصب نفوراً منه وان ذكر المسلمين فى أكثر من مقالة فما ذلك إلا لأنهم العنصر الغالب بأكثريته فى الشرق، والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها ولهذا أكثر من ايقاظهم"[٥].

يؤكد ذلك فهم الأفغانى لجوهر الدين، ذلك الفهم الذى لايفرق فيه بين الأديان – رغم ايمانه العميق بالدين الإسلامى ودعوته الدائبة إلى صحوة المسلمين – فالدين فيما يقول قد " أكسب عقول البشرثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها.. العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوقات. والثانية يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعل ضلال وباطل. والثالثة جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى.. إلى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها"[٦].

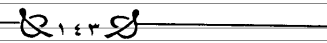
كمـــا أن الـــروح الدينية التى تحلى بها الأفغانى نفسه ودعى الجميـــع إلى التحـــلى بها " لا ترى فى الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجمـــوع البشـــرى، بـــل على العكس تحضه على أن يعمل الخير المطـــلق مـــع أخيـــه وقريبه وتحظر عليه عمل الشر مع أيا كان[٧]" والمقصـــود بالأديان الثلاثة هنا بالطبع هى الأديان السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والاسلام.

وقـــد أرجـــع الأفغانى الاختلافات فى الأديان إلى ما يصنعه "بعـــض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين ويشترون بآياته

ثمناً قليلاً ساء ما يفعلون"[٨]. "إن الأديان فى مجموعها – فى رأيه – هى الكل وأجزاؤها هى الموسوية والعيسوية والإسلام.. فمن كان من هذه الأديان كلها الحق فهوالذى يتم له " الظهور والغلبة" لأن الظهور الموعود به إنما هو دين "الحق" وليس دين اليهود ولا النصارى ولا الإسلام إذا بقوا أسماء مجردة، ولكن من عمل من هؤلاء بالحق فهناك" الدين الخالص". قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[٩].

ويبدو من ذلك بما لايدع مجالا لشك أن الأفغانى كان ممن يؤمنون بالتقريب بين الأديان السماوية وردها جميعاً إلى " الدين الخالص" بنص القرآن الكريم. وهناك نصوص كثيرة للأفغانى تشير إلى احترامه لكل صاحب دين أيا كان طالما أن دينه يدعوه إلى احترام الآخرين وإلى سلوك الطريق القويم والعيش فى سلام مع الآخرين.

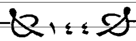
لقد كان تصور الأفغاني للشرق بعيداً عن ربطة بالصراع الدينى، فعلى الرغم من أنه عرف المسألة الشرقية بقوله إن مختصرها " هو العراك بين الغربى والشرقى وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين. فالغربى تذرع بالنصرانية، والشرقى بالإسلامية"[١٠] إلا أنه كان يرى أنه " إذا كان للضغينة الدينية شيء من الدخل فى إيجاد المسألة الشرقية والاحتفاظ بها، فإنها ليست هى كل أسباب المسألة بدليل أن سلاطين آل عثمان فتحوا وتوغلوا



وضموا الممالك وكانوا يدينون بالإسلام، ومن دخل فى ملكهم وتحت سيطرتهم كانوا نصارى وأشد تمسكاً بالنصرانية مما هم الآن. فلو كان الدين هو الباعث على كل هذا الحقد والمناهضة لكان الأولى أن يظهر إذ ذاك وعدم ظهوره بل رضوخ الطوائف والإمارات النصرانية للحكم العثمانى الإسلامى أكبر دليل على أن مسألة الدين لم تكن هى وحدها الفاعلة فى أمر المسألة الشرقية"(١١).

ومن جانب آخر فإن الأفغانى حينما ينتقد الشرق والشرقيين لايختص المسلمين وحدهم بنقده؛ فهو يأسف غاية الأسف على أمراء الشرق ويخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا فى موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم فى بطون بيوتهم. بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم فى ممالكهم"(١٢).

ونلمح نفس هذه الرؤية العامة للشرق والشرقيين فى خطاب الأفغانى الإصلاحى التحررى فى قوله حينما احتلت مصر " إنه قد بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته خصوصاً فى المسلمين منهم؛ فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جورا وذوو حقوق فى الأمرة حرموا حقوقهم ظلماً وأغنياء أمسوا فقراء.. الخ حتى لم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين فى أطماعهم(١٣)".



ولعـــل خطابـــه الثورى إلى الهنود لكى يثوروا على المحتل الـــبريطانى يعد أبرز دليل على اتساع مفهوم الشرق عنده ليشمل كل أمـــم الشـــرق المســـتعمرة بصرف النظر عما يؤمنون به من أديان وحفـــزها جميعـــاً على الثورة على الغربى المستعمر، ذلك الخطاب الـــذى قـــال فيه" يا أهل الهند وعزة الحق وسر العدل لو كنتم وأنتم تعـــدون بمـــئات مـــن الملايين ذباباً مع حاميتكم البريطانيين، ومن اســـتخدمتهم مـــن أبـــنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثرواتكم وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف. ولو كنتم أنتم مـــئات الملاييـــن كمـــا قلت ذباباً! لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظـــمى ويجعـــل فى آذان كبيرهم المستر " غلا دستون" وقراً ولو كنـــتم أنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم ســـلحفاة وخضـــتم البحر بجزيرة بريطانيا العظمى لحررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحراراً"[١٤].

إن الحديث عن الشرق إذن كان المقصود به عند الأفغانى عموم الأمم الشرقية بكافة طوائفها وبلادها ودياناتها دون أن يقتصر الأمر على المسلمين وحدهم.

وإن كنا نلمح أنه ركز فى حديثه أكثر على الأمة الإسلامية من بين الأمم الشرقية الأخرى، فإن ذلك كان لضرورة يحتمها انتماؤه الدينى والوطنى؛ ذلك الانتماء الذى جعله يتنازل عن حلم

إيقاظ البشرية جميعاً وأهل الأديان جميعهم، إلى الدعوة إلى إيقاظ بلاد الشرق الإسلامية وحدها. وها هو يعبر عن انكسار حلمه الطوباوى العالمى وتحوله إلى حلم متواضع – وإن ثقل حمله – لإيقاظ الشرق الإسلامى بقوله: " ثم جمعت ما تفرق من الفكر ولممت شعث التصور ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفنى الأفغان وهى أول أرض مس جسمى ترابها، ثم الهند وفيها تثقف عقلى، فإيران بحكم الجوار والروابط وإليها كنت صرفت بعض همتى، فجزيرة العرب من حجاز مهبط الوحى ومشرق أنوار الحضارة، ومن يمن وتبابعتها وأقيال حمير فيها، ونجد وعراق وبغداد وهارونها ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فيها، والأندلس وحمراؤها. وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام فى الشرق وما آل إليه أمرهم فيه اليوم. فالشرق! الشرق! وقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه"(١٥).

لعلنا لاحظنا حتى الآن مما سبق، أن الشرق عموماً كان الهاجس الذى أرق جمال الدين الأفغانى ولم يكن يفرق فيه بين مسلم ومسيحى أو بين مسلم ويهودى، فكلها أديان الله التى تعود إلى "الدين الحق الخالص" بمفهومه القرآنى الشامل !

ولكن لما كان الانتماء إسلامياً والإسلام هو آخر الأديان السماوية الثلاثة وهو من عاش أهل الأديان الأخرى فى كنفه سعداء آمنين، ولما كان المسلمون هم العنصر الغالب فى بلاد الشرق فضلاً

عن أنهم الملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها فى ذلك العصر، فقد وجه الأفغانى خطابه الإصلاحى إليهم وركز همه فى ايقاظهم.

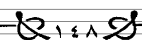
وبهذه اللغة المفعمة بالعاطفة المغلفة بالرمز الغنى بالدلالات التاريخية، حدد وجهة تركيزه على كل ما هو شرقى مسلم. وتحدث أحياناً عن الكل وقصد الجزء، أو عن الجزء وقصد الكل؛ فالكل يتضمن مجموع أجزائه، والجزء إشارة إلى الكل الإسلامى – الشرقى الذى ينتمى إليه وينضوى تحت لوائه. فلقد تحدث ووحد فى حديثه أحياناً بين العربى والشرقى(١٦)" وأحياناً أخرى بين الشرقى والمصرى(١٧)، الخ لكنه فى كل الأحوال كان يخاطب الإنسان الشرقى المسلم بصفة عامة دون أن يميز بين الطوائف أو بين البلدان. فالكل عنده كانوا فى الهم سواء!

ولعله يجدر بنا الآن أن نتساءل عن الكيفية التى أدى بها الأفغانى رسالته الإصلاحية للأمم الشرقية وخاصة الإسلامية منها؟!

إنه قد أدى هذه الرسالة مستخدما كل الوسائل المتاحة أمامه؛ فقد جاب العالم شرقه وغربه، استقبل كبطل هنا وكمنفى منبوذ هناك، قوبل بترحاب فى أماكن عديدة، وقوبل فى غيرها بالسجن والاستهانة به وبمكانته. وكان فى كل مكان يحل فيه لا هدف له ولا عمل يؤديه إلا محاولة كشف المستور من هموم الشرقيين وما يعانونه من استعمار واستعباد وهوان، وهو يكشف عن ذلك المستور بعقليته

التحليلية الناقدة الثاقبة فيظهر أمام القارئ أو السامع علل هذا الهوان وذلك التخلف الذى يعانى منه أهل الشرق. ولا يتوقف عند حد تشخيص الداء وبيان أسبابه وإنما يقدم لكل داء الدواء المناسب بحسب الحالة التى يشخصها ومستوى المخاطب الذى يخاطبه. وصدق الإمام محمد عبده حينما وصفه قائلاً " كأنه حقيقة كلية، تجلت فى كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله[١٨]". لقد كان الأفغانى يؤدى رسالته فيما يكتب أو يقول محافظاً على مستويات الخطاب ومراعياً مكانة ومستوى المخاطب.

أما المضمون الذى حمله خطابه فكان دائماً على صورتين؛ صورة سلبية يكشف فيها عن الداء محدداً المرض الذى يعانى منه المجتمع الشرقى وأفراده حكاماً ومحكومين، وصورة إيجابية يحدد فيها الدواء لهذا المرض محاولاً إقناع المريض بشتى الوسائل أن يتجرعه وأن كان طعمه مراً . فلقد كان الأفغانى مدركاً أن الأمراض والعلل التى يعانى منها الإنسان الشرقى فى مختلف البلدان أمراضا فتاكة وعللا طال بها الزمن وتخللت أركان المجتمع فاستسلم لها وتكيف مع أضرارها!! وكان مدركاً فى ذات الوقت أن علاج هذه العلل والأمراض ليس مستحيلاً؛ فإن كان من الصعب على المريض تجرع الدواء؛ فإن جسده لا يزال قادراً على التحمل. وإن كان الجسد منهكاً فإن الروح لا تزال موجودة وقادرة على أن تتيقظ وتوقظ معها الجسد وتتغلب على أمراضه وخموله!!



لقد حدد الأفغانى لنفسه الهدف وهو النهوض بهذه الأمة الشرقية المسلمة. أما وسيلة تحقيق الهدف فهى تحليل الأسباب التى أدت إلى إخفاق الشرق عموماً والشرق الإسلامى خصوصاً، ثم النظر فى كيفية التخلص من هذه الأسباب والتغلب عليها ليعود الشرق إلى بهائه، ويعود المسلمون إلى السيادة والوحدة. وهاكم بعض التفاصيل.

ثالثاً : أسباب تخلف "الشرق" وكيفية نهوضه :

تحدث الأفغانى عن أسباب كثيرة لتخلف الشرق منها ما يتعلق بما يجرى داخل بلاد الشرق ولدى مواطنيه، ومنها ما يدبر لها من خارجه وإن كان قد أدرك أن الارتباط بين الأسباب الداخلية والأسباب الخارجية ارتباط لا تنفصم عراه. ولذلك تحدث عن هذه الأسباب بشكل متداخل وحدد مع كل منها كيف يمكن التغلب عليه لتحدث النهضة المرجوة. ويمكننا إجمال هذه الأسباب وعوامل التغلب عليها فيما يلى:

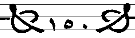
(أ) من " الإحساس بالدونية" إلى الإحساس بالحمية والقوة:

لقد أدرك الأفغانى أن من أشد الأشياء وطأة على الإنسان الشرقى هو ذلك الإحساس بالدونية الذى ينتابه إذا ما نظر إلى تخلفه وتردى أوضاعه بالقياس إلى تقدم الغرب وما ينعم به أفراده من سعادة ورخاء. ويزداد الأمر خطورة إذا ما استشرى هذا الاحساس

بالدونية بين الشباب الذين هم عدة المستقبل والأمل فى غد أفضل. وقد لاحظ الأفغانى أن " الناشىء الشرقى يعتقد أن كل الرذائل ودواعى الحطة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه[١٩]". ويترتب على ذلك أن هذا الناشىء " يجرى مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية ومن كل مشروع وطنى تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده ويأنف من الاشتراك فى أى عمل لم يشارك فيه الأجنبى ولو اسما ويسارع لتقديس وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب ويسهل له كل صعب ويطلعه على هنات قومه وزللهم وموقع الضعف منهم. وبالإجمال يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب فى جسم قومه"[٢٠].

ولاشك أن الاحساس بالدونية حينما يسيطر على أمه يكون إيذانا بخمولها وإصابة أفرادها بالإحباط وعدم القدرة على الفعل والإبداع!. ولكن إذا كان هذا الاحساس بالدونية قد استشرى فعلاً بين أفراد الأمة وسيطر على شبابها ــ وما أشبه اليوم بالأمس ــ كما ألمح إلى ذلك وكشف عنه جمال الدين، فكيف يرى الخروج من هذا الإحساس؟!

إنه لايرى مخرجاً من هذا الإحساس الذى يعانى منه أصحابه" إلا باشتداد الأزمة وقوة الضغط حتى يفقدوا بقية ما ترك لهم من شبه الراحة التى أخلدوا إليها أو سعة العيش الضيق الذى سول لهم الخمول والرضاء به وحتى يزاحموا على مالا يخطر لهم ببال، من



دين لا يتمكنون من التعبد به كما يرومون، ومن تجارة لا يجدون لها مالا أو مجالا، ومن حرية شخصية يفقدونها، ومن قهر وإذلال الأعزاء وتعزيز الأذلاء السفهاء وحتى يحيق بالمجموع بلاء يساوى بين الكل ويكون فيه المسلم الشرقى وأخوه المسيحى سواء[٢١].

وحينما يشتد البلاء وتعم الأزمة الجميع ويحسون بوطأة الاحتلال وفقدان الاستقلال والحرية بكافة أشكالها، حينئذ يمكن لأى أمة أن تنهض وتتولد الحمية لدى مواطنيها ويتحدوا فى مواجهة ما يجابههم من مشاكل وتحديات.

وفى رأيه ربما يكون فى العودة إلى درس الماضى، ماضى هذه الأمة علاجاً لأمراضها الحاضرة وخروجاً من مهانة الاستكانة وذل الحاجة وحالة الخمول والكسل الذى يحس به أبناءها. وهو يقول فى ذلك: " أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً ثم انشق عنها عماء العدم فإذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام، قوى الأركان، شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدى مدبريها عقد المشاكل، نمت فيها أفنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى إليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها وأحست مشاعرها سواها من

الأمم بأن لا سعادة إلا فى انتهاج منهجها وورد شريعتها. وصارت وهى قليلة العدد كأنها للعالم روح وهو لها بدن عامل[٢٢].

إن الأفغانى هنا يذكر شباب الأمة بماضيها الذى انتقلت فيه من عماء العدم إلى أن أصبحت المثل الأعلى الذى تطمح إلى محاذاته بقية الأمم. ورغم ادراكه لصعوبة العودة إلى محاذاة ذلك الماضى العظيم لأنه " ليس من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم .وهو يعتقد أن الخلاص فى سلوك سواه[٢٣]". إلا أنه لا يملك إلا التأكيد على أن ذلك هو العلاج الوحيد الذى على الأمة أن تسلك طريقه؛ "فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان فى بدايته وإرشاد العامة بالمواعظ الوافية وتهذيب الأخلاق وإيقاد نار الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة ولا سبيل لليأس والقنوط[٢٤]".

ورب قائل يقول: وهل العودة إلى الماضى القديم يعد طريقا قويما للنهضة الحديثة المطلوبة؛ أليس فى ذلك كما يقول دعاة التنوير والعصرانية من العلمانيين اليوم – عودة إلى الوراء ودعوة للجمود والتخلف؟!

وعلى ذلك التساؤل والتعجب يجيب جمال الدين الأفغانى وكأنه يقرأ ما يجول فى أذهان البعض منا بعد مرور مائة عام على وفاته، يجيب قائلا "من يعجب من قولى إن الأصول الدينية الحقة، المبرأة من محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل،

وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهى بها إلى أقصى غاية فى المدنية فإن عجبى من عجبه أشد!! ودونك تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات وإتيان الدنايا والمنكرات حتى جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقلها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف. وبعد أن كانت عقول أبنائها فى غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا إلى ديارهم طب بقراط وجالينوس، وهندسة إقليدس وهيئة بطليموس، وحكمة أفلاطون وأرسطو وما كانوا قبل الدين فى شىء من هذا[٢٥]".

وإذا استمر قائلنا فى حجاجه قائلا: إن العودة إلى أصيل الدين ليس هو دائما الطريق إلى نهضة الأمم. واستدل على ذلك بنهضة دولة شرقية مثل اليابان التى ارتقت وتقدمت بتقليد الغربيين وبدون توسط الدين!!

لأجاب الأفغانى فى تجرد وموضوعية وفهم عميق للتجربة اليابانية: "نعم إن الدولة اليابانية وهى أمة شرقية لا تختلف عن أهل الصين فى شىء لا فى المذهب والإقليم، ولا فى العوائد والأخلاق واللسان. وقد عزت ونمت وارتفعت وما كان الفاعل فى كل ذلك إلا

أخذها بالأحسن والسير فى تقليد المرتقين فى المدنية على أحسن خططهم وانتهاج أقوم صراطهم ومناهجهم... فظفروا ببغيتهم ووجدوا ضالتهم بأقرب الأوقات وأقصر الأزمنة(٢٦)"، "إن اليابان لم ينتفعوا بالوثنية من حيث هى دينهم لأن الديانة الوثنية وإن كانت لا تخلو من آداب وأخلاق فليس فى أصولها ما ينفع فى أحكام أمور الدنيا(٢٧)".

أما إذا كان الدين هو الدين الإسلامى الذى "فى أصوله ما ينفع فى الأمور الدنيوية أيضا، فلابد أن يكون من جملة أصوله الحث على التحلى بالفضائل والاستكثار من مكارم الأخلاق والصفات الحميدة والاستزادة من نافع العلوم والفنون(٢٨)"، وإذا كان الدين الإسلامى كما جاء فى القرآن فعلا قد حث على العلم وأبان عن جليل فضله وعظيم منفعته، فما أحوجنا لأن نأخذ به ونعود إلى التمسك بأصوله مستلهمين كل ما فيه من دعوى للتقدم ومن وسائل للارتقاء والرفعة(٢٩).

إن ما يريد الأفغانى أن يلفت أنظارنا وانتباهنا إليه هنا هو أن التقدم لا يتم دائما عن طريق تقليد الآخرين، بل قد يتم أحيانا عن طريق العودة إلى الماضى واستلهام ما فيه من قيم إيجابية خاصة إذا كان هذا الماضى هو العصر الذهبى للمسلمين والعرب، ذلك العصر الذى نجح المسلمون فيه عن طريق العمل بموجب عقيدتهم الدينية الداعية إلى العلم والحاضة على الأخذ بكل أسباب الرقى والتقدم فى

أن يسودوا العالم ويؤسسوا حضارة رائدة استفاد منها الغربيون أنفسهم فى بناء نهضتهم الحديثة.

وليس كلام الأفغانى ببعيد عن الفهم أو التصديق حتى بالنسبة لأولئك العلمانيين العصرانيين؛ فالنهضة الغربية الحديثة قد قامت هى الأخرى على أساسين أحدهما وأهمهما هو العودة إلى التراث الغربى – اليونانى القديم ونقله إلى اللغات الغربية الحديثة والاستفادة من عناصره الإيجابية ونقد جوانبه السلبية. وثانيهما الاستفادة من إنجازات الحضارة العربية – الإسلامية فى مختلف جوانب الحياة المدنية والحضارية.

والسؤال الذى ينبغى أن يتوقف أمامه المعنيون بنهضتنا الحديثة هو: إذا لم يكن فى استلهام ماضينا العريق ما يعوق تقدمنا، واذا كان فيه ما يساعدنا على التقدم ويزودنا بأسبابه ودوافعه، فلماذا لا نعود إليه وإلى الأخذ به والعمل بموجبه وتطوير ما ينبغى تطويره فيه باستخدام ما استجد من آليات ووسائل نافعة!!

(ب) من التقليد الأعمى للغربيين إلى العودة إلى الأصول الدينية الحقة :

إن من أهم أسباب الدونية والتخلف التى يعانى منها الشرقيون كما لاحظ الأفغانى، شيوع ورسوخ عادة التقليد لكل ما هو غربى بدعوى أنه الأكثر مدنية وحداثة ودون وعى بمخاطر التقليد والجمود عند حدود كل ما يأتى من الآخر وتقبله فى خمول وسلبية.

وحتى لا نسيء فهم الأفغانى نسارع إلى القول بأنه لا يرى فى تقليد النافع أيا كان مصدره أى غضاضة. بل على العكس؛ فقد قال "إن تقليد النافع الذى ثبتت منفعته أولى من التقيد بمألوف ثبتت مضرته"، و "إن ثمرة العقول لا تُجتنى إلا باطلاقها من قيود الأوهام"، و "أن من قال إن الدين يأمر بالعسر دون اليسر وبالضار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف فهو كذاب(٣٠)".

وقد تأكد لنا صدق أقواله تلك من احترامه الشديد للتجربة اليابانية كما أوضحنا فيما سبق، تلك التجربة التى قيمها بقوله إنه تم لها "الفوز بالتقليد النافع وجلب المفيد اللازم من العلوم والفنون والصنائع فبرزت بين صفوف الدول العظام دولة شرقية لها من بأسها منعة، ومن علمها واتحادها قوة تُخشى وحدا يُتقى والناس أبناء ما يحسنون ولله فى خلقه شئون(٣١)".

ولكن هذا التقدير للتقليد النافع – الذى يعد استثناء فى التجربة اليابانية قد لا يقبل التعميم – لم يمنعه من إدراك مضار التقليد الأعمى لإنجازات الآخرين وخطورة ذلك على ضياع فرصة الإبداع لدى أبناء المُقلدين.

وقد عبر عن ذلك خير تعبير حينما قال عن المقلدين "علمتنا التجارب ونطقت مواضى الحوادث بأن المقلدين من كل أمة، المنتحلين لأطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء

إليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤما على أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت... ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم(٣٢)".

ولا يتوقف الأمر عند حد كون المقلد هو البوابة التي يعبر منها الغازي والمستعمر إلى الأمم التي غلب على أبنائها التقليد وعز عليهم الإبداع. بل إن المقلدين يحولون أنفسهم وغيرهم من أبناء وطنهم إلى مجرد مسوخ تقلد المظاهر، وتقف عند حدود الضار دون استجلاب النافع!

وقد دلل الأفغاني على خطورة التقليد وأوضح الاضرار التي يجلبها المقلدون دون وعي إلى أوطانهم من النظر في التجربة المصرية والعثمانية وتحليل النتائج التي وصلت إليها. وقد عبر عن تأملاته في هاتين التجربتين بقوله:

"شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والاداب وكل ما يسمونه "تمدنا" وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة

وسير الاجتماع الإنسانى! فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟! هل صاروا أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الخبل الجديد؟! هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة!! ... الخ.

نعم ربما وجد فيهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية (القومية) وما شاكلها ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم زعماء الحرية أو بسمة أخرى من السمات ووقفوا عند هذا الحد! ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المأكل والملبس والفرش والآنية وسائر الماعون وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهاة فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم واعتاضوا أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين فى المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة من الحاجيات الجديدة وأيديهم لم تتعود على صنع الجديد وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها. وما كان هذا إلا لأن العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفاجأتهم قبل أوانها[٣٣]".

وبالطبع فإن هذا التحليل الأفغاني لمضار التقليد قد انصب على بيان المظاهر السلبية التى ينقلها المقلدون إلى أوطانهم مما يساعد الأمم الغالبة على السيطرة على الأمم المغلوبة وإفقادها صناعاتها وصُناعها وثرواتها؛ فقد عاب الأفغانى على المقلدين تركيزهم على المظاهر الاستهلاكية وضياع ثرواتهم وثروات بلادهم فى استيرادها، كما كشف النتائج المدمرة للتقليد على الصناعات المحلية ووقف نموها وتطورها الطبيعى!

وكان أبرز ما أدركه الأفغانى من عيوب للتقليد هو تركيز المقلدين على نقل الصنائع والسلع دون الاهتمام بأسرار صناعتها. إن لكل صنعة الأساس العلمى النظرى الذى تقوم عليه، وإن غاب عن المقلد معرفة ذلك الاساس العلمى لسر الصناعة وكيفية إحكامها سينتج السلعة مشوهة، مليئة بالعيوب، مما يترتب عليه بالضرورة شعوره بالدونية والإحباط، فضلا عن الأضرار العامة التى تلحق بأمته ككل ففى ذلك عموما "جدع لأنفها وتشويه لوجهها وحط من شأنها"!

ولا شك أن إدراك الأفغانى لهذا الأمر مما يحمد له إذ لا نزال نعانى منه حتى اليوم وبعد مرور مائة عام؛ فلا زلنا ننقل التكنولوجيا دون العلم. ولا زلنا نشعر بالإحباط والدونية نتيجة عدم مشاركتنا الفاعلة فى التاريخ النظرى للعلم، وعدم قدرتنا على استيعاب كل

القدرات التكنولوجية للأجهزة الحديثة التى نستخدمها!! وما ذلك إلا لأننا لم نهتم بالتطوير الذاتى للعلم باستخدام مناهج البحث العلمى والآليات الحديثة للتطوير. وانصب كل اهتمامنا منذ البداية على استيراد الأجهزة والاستمتاع الوقتى بها دون معرفة أسرار صناعتها ودون القدرة على تطوير أى شيء فيها[٣٤]!

ولعل السؤال الذى يراودنا الآن هو: إذا كان تقليد الغربيين ليس الطريق الأمثل وليس الطريق الصحيح لنهضة الشرق الإسلامى. فما الطريق الذى يراه الأفغانى صالحا لهذه النهضة المأمولة؟!

يبدأ هذا الطريق فى رأيه بإصلاح دينى ضرورى وشامل لأننا "معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق[٣٥]".

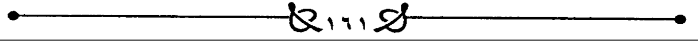
أمـــا أبرز معالم هذا التجديد والإصلاح الدينى فيحددها بقوله "لابـــد مـــن حركة دينية تهتم بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجههـــا الحقيـــقى وبعـــث القـــرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشـــرحها عـــلى وجهها الثابت من حيث ما يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرة. ولابد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتباتنا ووضع مصنفات فيها

قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على الوصول إلى الرقى والنجاح[٣٦]".

إن الاصلاح الدينى إذن فى نظره هو أساس النهضة الحديثة. وهو يفهم هذا الاصلاح بصورة أكثر ما تكون وضوحا وبساطة؛ إنه يتمثل فى العودة إلى صحيح الدين فيما يتعلق بإصلاح أحوالنا الدنيوية ويسعدها. والطريف أنه اعتبر أن هذا الإصلاح الدينى لا ينفصل بالضرورة عن اصلاح ضرورى ومماثل للعلوم وتجديد للمكتبات الوطنية بما يدعم هذا الإصلاح العلمى ويقوده إلى النجاح.

ولكن كأن بجمال الدين يشعر بأن البعض ربما يثور عليه ويحتجون بأن النهضة الأوربية قامت بعدما تم فصل الدين عن شئون الحياة والعلم، فيسارع إلى التذكير بأن "سبب انقلاب حالة أوربا من الهمجية إلى المدنية لايتعدى الحركة الدينية التى قام بها "لوثر" وتمت على يديه[٣٧]".

وإن كان التوفيق قد جانبه فى عد ذلك الإصلاح الدينى الذى قام به لوثر هو السبب الأوحد فى انقلاب حالة أوربا من الهمجية إلى المدنية، فإنه لم يجانبه الصواب فى أن هذه الحركة الإصلاحية الدينية كانت أحد الأسباب الفاعلة فى قبول الأوربيين الأخذ بأسباب النهضة العلمية والفلسفية الجديدة.



على كل حال، فإن الأفغانى لم ينس التأكيد على أن هذا الإصلاح الدينى يمثل الدعامة الحقيقية للنهضة العلمية والعقلية المنشودة فى الشرق الإسلامى، حيث إن التجربة العربية الإسلامية فى السيادة الحضارية على العالم إبان العصر الزاهى لها كان دعامتها "القوة والعلم" وها هو يقول "إذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الإسلامية على الحكومات النصرانية لوجدناه منحصرا فى "القوة والعلم" وهكذا يدول أمر الدول انتصارا وانكسارا[٣٨]".

وها هو يضيف فى خطاب ملؤه التفاؤل بمستقبل الشرق الإسلامى اذا ما دارت الدورة الحضارية وأخذ الشرقيون اليوم بما كان فى ماضيهم المجيد من عقيدة نقية ومن علم نافع وعمل جاد مخلص، يضيف قائلا:

"هاتوا مكتبة بغداد والأندلس والقيروان وما ترجم فى عصر الخلفاء العباسيين، وما حقق علماء العرب من المباحث وما ألفوه من الكتب الفلسفية والطبيعية والكيمياء وبعد ذلك طالبونى وألزمونى الحجة بعدم استيفاء أولئك العلماء مواضيع ما نرى من المباحث فى العلوم والفنون الوافدة إلينا عن طريق الغرب اليوم. ودعوا عصر الجليد يستحوذ على أوربا مرة أخرى، ويدور الدور الفلكى بمفعوله وتأثيره ويجعل الحياة فى ذلك الإقليم متعددة كما كانت أولاً وانظروا إذ ذاك إلى نهضة الشرق خصوصا متى تغير شكل الحكم فى أهله فترون الشرق قد عاد مشرقا بالعلماء زاهرا بحقائق العلوم مثبتا لكل ما هو نافع ويصلح أن يبقى أثرا[٣٩]".

وبالطبع فإن حلم الأفغانى بعودة عصر الخلفاء العباسيين بالنسبة إلى المسلمين، وبعودة عصر الجليد إلى أوربا يعد ضربا من ضروب المستحيل لأن الزمن لا يعود إلى الوراء، إلا أن هذا الخطاب التفاؤلي يؤكد الثقة المطلقة لمفكرنا في قدرة الشرقيين على النهوض مرة أخرى لأنه لا مانع ذاتى يمنعهم من ذلك إذا ما أرادوه لأنفسهم.

ومع ذلك فقد أدرك الأفغانى فيما يتعلق بسبل النهضة المنشودة أمرين في غاية الأهمية أحدهما سلبى والآخر إيجابي؛ أما السلبى فهو إدراكه لحقيقة مؤداها "أن الغربيين – رغم تظاهرهم بغير ذلك – يمانعون بطرق خفية ترقية الشرقيين لأنفسهم على طريقة وطنية خاصة بهم ويعرقلون مساعيهم.. بأساليب غاية فى المكر والمغالطة والسفسطة والاستعانة ببعض أهل البلاد على ذلك(٤٠)".

أما الأمر الإيجابى فهو إدراكه لحقيقة أخرى مؤداها "أن حياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم والعكس بالعكس. إذن فلابد من تمام اليقظة والعمل بكمال الحكمة من الشرقيين للوصول إلى الغاية بدأب متواصل وهمم لا تفتر وعزائم لا تكل(٤١)".

وأعتقد أن إدراك جمال الدين الأفغانى لهاتين الحقيقتين معا وبهذه الصورة المتلازمة يعنى بما لا يدع مجالا لأى شك أنه كان

من دعاة التنوير العلمي الوطني بحق، ذلك التنوير الواعي بأن التقدم العلمي لابد أن ينبع من الذات ويقوم على تطوير القدرات الذاتية لعلمائنا وعلومنا؛ ذلك التطوير الذي يأخذ في الاعتبار أنه إذا جاز الاستفادة من خبرات الآخر ومن آليات تقدمه العلمي فإنه لا يجوز الارتكان عليه كلية، لأن صراع الذوات الحضارية يستخدم التقدم العلمي كسلاح فعال ومؤثر! ومن ثم فإن الآخر سيحاول اعاقة تقدمنا قدر استطاعته. أما إذا نجحنا نحن في تطوير قدراتنا الذاتية مع الاستفادة قدر الطاقة من تجارب الآخر ومن آليات تقدمه فإن هذا سيكون بداية لموت سيطرته علينا، وإيذانا بدورة حضارية جديدة تكون الغلبة فيها أيضا "للعلم والقوة"!

(جـ) من الفُرقة واستبداد الحكام إلى الوحدة والحكم بالعدل والشورى :

لقد كان من أبرز ما توصل إليه الأفغاني في تحليله لأسباب تخلف الشرقيين وانعدام فاعليتهم، تلك الفُرقة والانقسام إلى شيع ومذاهب متعددة بما يحمله ذلك من صراع بين بلدانهم واستبداد حكامهم. فركز جل التركيز في كل ما قال أو كتب على بحث أسباب هذه الفرقة، وحاول قدر طاقته البشرية أن يزيل هذه الأسباب. وقد أدرك بثاقب بصيرته وعميق تأملاته أن أول وأهم هذه الأسباب هو بُعد المسلمين عن الإسلام بصورته الصحيحة النقية(٤٢). ورد هذا البُعد إلى تقصير

العلماء فى الدعوة إلى الإسلام الصحيح الذى لا يفرق بين المؤمنين به إلا بالتقوى وينهاهم عن الخلاف والفرقة والضعف والركون إلى الراحة والخمول، كما رده أيضا إلى تقصير الحكام الذين لم يحكموا بين الناس بما أنزل الله ولم يحرصوا على إشاعة العدل والرحمة بينهم وسعوا إلى تحقيق مصالحهم الشخصية الأنانية وغلبوها على مصلحة الأمة ووحدة شعوبها[٤٣].

ولقد أخذ الأفغاني يعدد فى ثنايا ذلك الصور التى تجلت فيها تلك الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة. وكان من أبرز ما ركز عليه فى هذا الصدد، ذلك التمييز المصطنع بين السنة والشيعة، ذلك التمييز الذى كان سببا مباشرا فى كثير من صور الفرقة والضعف الذى عانى منه المسلمون.

وقد حاول قدر جهده واجتهاده إقناع الفريقين بضرورة العودة إلى الأصل وهو وحدة المسلمين ووحدة الإسلام. واتخذ فى هذا الإقناع منطقا عمليا واقعيا مباشرا يغلب المصلحة العامة على المصلحة الجزئية لأحد الفريقين وتأمل فى ذلك قوله:

"لو أجمع أهل السنة اليوم ووافقوا المُفضلة من الشيعة (من عرب وعجم) وأقروا وسلموا بأن على بن أبى طالب كان أولى بتولى الخلافة قبل أبى بكر فهل ترتقى بذلك العجم أو تتحسن أحوال الشيعة؟!

أو لو وافقت الشيعة أهل السنة بأن أبا بكر تولى الخلافة قبل الإمام على بحق، فهل ينهض ذلك بالمسلمين السنين وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان؟! آما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟! ومن هذا الموت قبل الموت؟!

يا قوم وعزة الحق إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يرضى عن العجم ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبى بكر وجميعهم يحسنون أمر دنياهم "والناس أبناء ما يحسنون" وكذلك أبو بكر فلا يرضيه أن تدافع أهل السنة عنه وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التى مر زمنها والتى تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا "كالبنيان المرصوص".

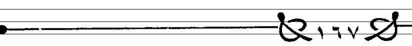
أما قضية التفضيل فلو استحقت البحث بعد تلك الأجيال لكفى أن يقال لحل اشكالها "أن أقصر الخلفاء الراشدين عمرا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرا"؛ فلو تولى الخلافة بعد النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين بما استطاعوا أن يخدموه به رضوان الله عليهم أجمعين حكمة الله فى خلقه وإن أكرمكم عند الله أتقاكم[٤٤]".

بهذا الجدال العقلى، وعلى هذا النحو العملى حاول الأفغانى إزاحة السبب الأول والأصلى للخلاف بين الشيعة والسنة من المسلمين

ليجمعهم على كلمة سواء فى خدمة دينهم الواحد وحول تحقيق هدفهم المشترك.

وقد استخدم جمال الدين نفس هذه الطريقة فى الاقناع فى إزالة أسباب الخلاف بين الدول الإسلامية بعضها البعض ليتوجهوا جميعا للتفرغ لمواجهة الأخطار الخارجية التى تحيط بهم من كل جانب؛ فهَا هو يدعو مثلا قومه من الأفغان وجيرانهم من الإيرانيين إلى العودة إلى "رابطة الدين الإسلامى" وهى أشرف الروابط وأن يزيلوا عبر ذلك تلك الاختلافات الفرعية بينهم لأن استمرار الخلاف بينهم يجلب الضرر عليهم وعلى اخوانهم من المسلمين الهنود. وقد عبر عن ذلك فى كلمة موجزة جامعة قال فيها "إن على الفارسيين والأفغانيين أن يراعوا الكلمة الجامعة والصلة الجنسية ولا يجعلوا الاختلاف الفرعى فى المذهب سببا فى خفض الكلمة الإسلامية وقطع الصلة الحقيقية"[٤٥]

وعلى هذا النحو نجده يدعو بشكل عام إلى تجاوز العصبيات والنزعات الإقليمية التى سادت بين المسلمين لأن هذه النعرة العصبية أو الإقليمية كانت أحد أسباب تخلفهم وتفرق كلمتهم. وفى هذا الإطار كان دائما ما يذكر الجميع بأن الأصل الذى يجمع بينهم هو الرابطة الدينية الاسلامية، وأن هذه الرابطة هى السبيل إلى التجاوز عن هذه النزاعات. وقد نبه الجميع إلى أن استمرار الخضوع والاستسلام لهذه



النزاعات القائمة على دعاوى العصبية والمصالح الإقليمية الجزئية هو الذى سيقود الأمة الاسلامية كما قادها فى الماضى إلى الانهيار والضياع(٤٦).

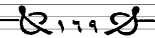
ولقد كان حرص الأفغانى كبيرا على أن يعى الجميع حكاما ومحكومين هذه الحقيقة. وأن لا يتوقفوا عند حد الوعى بها، بل دعاهم إلى ضرورة العمل بموجب هذا الوعى. وبداية هذا العمل يتلخص فى العودة إلى الاعتقاد الأصيل بأن الأصل الذى يجمع بين الشرقيين هو الإسلام الواحد وأن كل دولة من الدول الإسلامية تزداد قوتها ويتضح فضلها وترتفع مكانتها فى إطار ذلك الكل الواحد، "الاسلام" و "الشرق".

ومن هنا كان سعيه الدائب يدور حول العمل على عودة الخلافة الإسلامية. وقيل إنه ترك الإقامة فى أوربا عام ١٨٨٦م – ١٣٠٣هـ متوجها إلى الشرق وإلى شبه الجزيرة العربية بالذات على أمل السعى إلى إقامة خلافة إسلامية عصرية فى منطقة بعيدة عن النفوذ والاستعمار الأوربى، ومؤهلة للاستقلال عن الاتراك العثمانيين(٤٧).

ولم يكن هذا السعى إلى إقامة الخلافة الإسلامية أو الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ليتناقض عنده مع الدعوة إلى إقامة حكومات إسلامية تقوم على الشورى والعدل. لأنه كان مؤمنا أشد الإيمان بأنه "لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا اذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا يحكمه بأهله على غير طريقة التفرد بالقوة والسلطان، لأن بالقوة

المطلقة الاستبداد، ولا عدل إلا مع القوة المقيدة. وحكم مصر بأهلها إنما يعنى به الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح"(٤٨). إن الافغانى يرى أن الحكم العادل القائم على اختيار الناس للحاكم ولمن ينوب عنهم هو أساس الحياة الكريمة لهم وهو أيضا أساس نهضتهم. ولكن هذا الحكم العادل الذى يشارك فيه الناس ويختارون شكله لا يتحقق إلا لدى أمة نال أهلها استقلالهم وحريتهم، وبينما يمكن للناس أن يغيروا شكل حكوماتهم بالمناقشة والحوار والاقناع بينهم وبين بعضهم وبينهم وبين حكامهم فى ظل دولهم المستقلة الحرة فإنه لا يمكنهم ذلك بالطبع فى ظل الاحتلال أو فقدان الحرية والاستقلال. وقد كان الأفغانى ممن أدركوا هذه الحقيقة بشكل واضح وعبر عن ذلك بقوله أن الحرية والاستقلال للوطن لا توهبان وإنما "تحصل عليهما الأمم أخذا بقوة واقتدار يجبل التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء أولى النفوس الأبية والهمم العالية"(٤٩). أما "تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابى الشورى فهو أيسر مطلبا وأقرب مثالا إذ يكفى فيه أحيانا ارشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه فيفعله ويشرك معه أمته ورعيته"(٥٠).

ولكن يبدو أن الأفغانى حينما قال ذلك كان حسن الظن أكثر من اللازم بالحكام المحليين للإمارات الشرقية آنذاك؛ فقد جرب هو نفسه أن ينصح بذلك أمير مصر وشاه ايران ناصر الدين ولكنه فشل فى إقناعهما ولم تتم الاستجابة لدعوته للحكم النيانى لا من أمير مصر(٥١)، ولا من شاه ايران(٥٢).



على كل حال، فلقد كان الأفغانى مؤمنا بأن إعطاء الحرية للشعوب لتختار حكامها وتشاركهم فى الحكم مسألة ضرورية لإطلاق حريات الإبداع والمشاركة فى كل مجالات الحياة الحضارية وخاصة بعد المعاناة الرهيبة التى عاناها أبناء الأمم الشرقية طوال تاريخهم من استبداد الحكام واستعباد المستعمرين[٥٣].

لقد كان يرى أن هذه تمثل الخطوة الأولى على طريق اتحاد الأمم الشرقية الإسلامية فى مواجهة أطماع الغربيين الاستعماريين، وهى أيضا الخطوة الأولى نحو تأسيس النهضة المأمولة لأبناء الأمة الإسلامية تحت مظلة جامعة إسلامية أو خلافة إسلامية[٥٤] لا يهم الاسم وإنما الذى يهم هو العودة إلى الأصل الأصيل، ألا وهو وحدة الإسلام والمسلمين ففى وحدتهم قوتهم ونهضتهم، وفى تفرقهم ضعفهم وتخلفهم.

والحقيقة أن جمال الدين لم يؤسس جمعية العروة الوثقى فى مختلف البلاد الإسلامية إلا لخدمة هذا الهدف والعمل على تحقيقه[٥٥]. وقد ظهر ذلك جليا حينما أسس أيضا بالاشتراك مع تلميذه النجيب محمد عبده جريدة "العروة الوثقى" لتكون لسان حال الشرقيين فى توضيح هذه الأهداف والعمل بموجبها والدعوة إلى تحقيقها فى مختلف بلاد الشرق[٥٦].

لقـد كان إيمان الأفغانى بالوحدة راسخا لأنه اعتبر أن وحدة الأمة هـو الطـريق الوحيد لسيادتها وعزتها. وتأمل معى قوله فى ذلك: "أمران خطيـران تحمـل عليهما الضرورة تارة ويهدى إليهما الدين تارة أخرى، وقـد تفيدهمـا الـتربية وممارسـة الآداب. وكـل مـنهما يطلب الآخر

ويستصـــحبه بـــل يســـتلزمه وبهما نمو الأمم وعظمها ورفعتها واعتلائها وهما الميل إلى وحدة تجمع، والكلف بسيادة لا توضع"(٥٧).

فالوحدة والسيادة إذن أمران ضروريان لأى أمة تريد أن تنهض وتسود. والدعوة إلى تلازمها يحض عليها الدين، وتحتمها الضرورة ويساعد التعليم والتربية فى بث الإيمان بهما فى النفوس.

وقد بنى الأفغانى تفاؤله بمستقبل أى أمة على إيمان أبنائها وميلهم إلى تحقيق تلك الوحدة وهذه السيادة. وها هو يقول معبرا عن ذلك "فإذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم"(٥٨). وهو لا يشك فى أن أبناء الأمم الشرقية ــ الإسلامية لديهم هذا الميل إلى الوحدة وإن كان ينقصهم العزم على تحقيقها عبر الوسائل التى أشرنا إليها فيما سبق.

خاتمـــــة :

ونستطيع بعد هذه الإطلالة السريعة على تصور الأفغانى للشرق عموما وللشرق الإسلامى خصوصا ولأسباب تخلفه وإخفاقه من جهة ولعوامل نهوضه ويقظته من جهة أخرى أن نلخص رؤيته لخطوات هذه النهضة المرتقبة وأسسها فيما يلى:

أولاً: أن بداية هذه النهضة تكمن فى نفض غبار الاحساس بالدونية واستجلاء الوجه الإيجابى للإنسان الشرقى الذى لا يقل فى قدراته العقلية وفى إنجازاته الحضارية عن الإنسان الغربى.

بل على العكس فقد كان الإنسان الشرقى هو الأعلى والأفضل؛ فهو الذى ساد حينما تمسك بالدين الإسلامى وعمل بموجب ما فيه من مبادئ دافعة للتقدم الحضارى فى كافة المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية.

وبامكان الإنسان الشرقى المسلم أن يعيد الكرة من جديد، فينهض ويتقدم إذا ما أعاد إلى وعيه كل هذه المبادئ السامية للدين والحضارة الإسلامية، وألزم نفسه بالعمل بموجبها رافضا كل دعاوى التقليد والتبعية ومُبعدا كل عوامل الإحباط والخمول والكسل عن عقله الخلاق وقدراته المبدعة.

ثانياً: أن هذه النهضة المرجوة تقوم فى رؤيته التنويرية الرائدة على دعامتين أساسيتين هما:

(أ) حركة للإصلاح الدينى تعود بالدين الإسلامى إلى جوهره الأصيل الداعى إلى وحدة الأمة بكافة طوائفها وقبائلها وعصبياتها الجنسية ومذاهبها الفقهية تحت راية واحدة ترفع شعار أن الاسلام فى جوهره واحد وأن الاختلافات المذهبية بين طوائفه المؤمنين به مصطنعة وينبغى التقريب بينها، وأن قواعد العمل الحضارى فيه واحدة ودافعة للتقدم والسؤدد وليس إلى الفُرقة أو الجمود والكسل.

(ب) حركة علمية شاملة تستنهض همم كل العلماء المسلمين فى مختلف التخصصات العلمية، بشرط أن يدرك هؤلاء العلماء أن النهضة العلمية الحقيقية ليست فى تقليد العلم الغربى ولا فى نقل نواتجه ومظاهره التكنولوجية البراقة التى لا تتفق مع بيئاتنا المحلية ولا مع عاداتنا وأخلاقنا الإسلامية، بل تقوم هذه النهضة على استخدام آليات التفكير العلمى ومحاولة الإسهام فى تاريخ العلم النظرى حتى تتولد لدى الأمة حركتها العلمية الذاتية التى تصل القديم بالجديد وتوجه العلم نحو خدمة الأهداف الاستراتيجية للأمة وحل المشاكل التى تعوق تقدمها ورقيها.

ويرى الأفغانى أن تعريب اللسان لدى كل الأمم الإسلامية يشكل خطوة ضرورية لنهضة الأمة سواء فى مجال الاصلاح الدينى أو فى مجال النهضة العلمية؛ فهو "يعيب على الأتراك أنهم أهملوا أمرا عظيما وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح وأحب أن يعمل بها السلطان سليم وهى قبول اللسان العربى لسان للدولة وتعميمه بين من دان بالاسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله. فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهرى فقط بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان"[٥٩].

ولا شك أن هذا من أعظم ما أدركه الأفغانى فى خطابه الإصلاحى التنويرى؛ فتعريب العلوم واتقان الناس للغة دينهم هى طريق النهضة سواء فى مجال العلم أو فى مجال الدين.

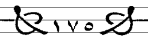
ثالثاً: أن النهضة المرجوة للأمم الشرقية وخاصة الإسلامية منها لا يمكن أن تتم فى ظل عوامل الفرقة والضعف التى عليها حال أبنائها سواء كانوا شعوبا أو دولا؛ فقد انقسموا فيما بينهم فرقا دينية متناحرة، ودولا متصارعة تسلط عليها حكام لا يسعون للصالح العام ولا يعملون على وحدة الأمة، وشعوبا أزلتها الحاجة وهدها الاستعباد وضاقت نظرة الأفراد منهم فلم يعودوا يروون إلا الردئ من الفعل ولا يرددون إلا السئ من الأقوال!

وإنما تتم النهضة بعد حصر عوامل الخلاف والاختلاف بين تلك الفرق المتناحرة وبين هذه الدول المتصارعة، وبين هذه الشعوب التى تفرقت رغم أنفها وتوزعت اهتماماتها دون إرادة منها. وإذا ما تم حصر هذه العوامل – وهذا ما فعله جمال الدين – يمكن العودة إلى أصولها الأولى فينكشف المستور وتتجلى الحقائق إذ سيتضح حينئذ أنها جميعا خلافات على مظاهر هشة يمكن التجاوز عنها، وصراعات على مصالح زائلة يمكن بصحيح الإيمان ووحدة الهدف التغلب عليها.

إن النهضة لا يمكن أن تتم إلا لشعوب حددت هدفها بوضوح وهو الاتحاد على أساس من وحدة العقيدة، وهى تتم إذا ما اقتنع حكام هذه الشعوب بأن الحكمة والعدل هما أساس الحكم الصالح، وأن من حق الناس اختيار حكامهم والمشاركة الفعالة فى إدارة شئون دولتهم. وحين تتحرر إرادة الشعوب وتنعم بالعدالة والمساواة، وتزال العوائق أمام مشاركتها السياسية تتفتح الأذهان للإبداع وتنشغل بصنع التقدم وتطمح إلى تحقيق السؤود والمجد.

وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى إعادة قراءة هذه الأفكار التنويرية الرائدة للأفغانى. فكأنى به يعيش بيننا رغم مرور مائة سنة على رحيله عنا، وكأنى به لا يزال بما كتب وما قال قادرا على كشف أسباب إخفاق الأمة، اذ لا تزال الأسباب التى ألمح إليها أو كشف عنها هى هى لم تتغير ولم يتبدل من أمرنا معها شيئا!. وكأن ما التمسه من وسائل للإصلاح والنهوض هى الوسائل التى إن آمنا بها وعملنا بما فيها نجونا من المصير الشائن الذى ينتظر أمتنا فى التحدى الحضارى الراهن.

إن توسيع الأفغانى لمفهوم الشرق ليجمع شمل الشرقيين جميعا مسلمين وغير مسلمين - رغم أنه كان إذ ذاك لأسباب سياسية تواكب ما شاع فى المرحلة من خطاب له شكله الخاص ومضمونه الخاص واصطلاحاته الخاصة - لا يزال أمرا متعدد الدلالات؛



فالشرقيون من غير المسلمين أو من غير الخاضعين لأغلبية إسلامية لا يزالون هم الأقرب إلينا وهم من لا تتعارض مصالحهم مع مصالحنا، بل تتكامل معهم المصالح وقد تتحقق بالاقتراب منهم والتماس عونهم كل الغايات!

إن الصراع اليوم لا يزال فى مجمله صراعا حضاريا بين غرب لا يزال عنصريا ومتعاليا وطامعا، وبين الآخر! والآخر بالنسبة للغربيين هو الشرق ولا فرق بين شرق عربى أو إسلامى، وبين شرق آسيوى وثنى. ولذلك فإن دعوة الأفغانى إلى وحدة الشرق عموما والشرق الإسلامى خصوصا فى مواجهة الغرب والاستعلاء الغربى لا تزال دعوة ينبغى أن ننظر إليها بعين الاعتبار على الصعيدين النظرى والعملى. فربما يكون فيها بداية الوعى بجوهر الصراع فى عالم اليوم، وبداية الوعى بما ينبغى فيه أن نتعامل مع الغرب ومن يتحالفون معه بالحذر المطلوب رغم كل ما يبدو على السطح من تقاربنا الزائف معه! فهذا التقارب معرض للانهيار فى أى لحظة ولأتفه الأسباب.

الهوامش

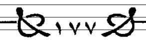
(١) عاش جمال الدين الأفغانى فيما بين عامى ١٨٣٨ و ١٨٩٧ ميلادية، ١٢٥٤ و١٣١٤ هجرية. وقد كانت حياته حافلة بالجهاد والتنقل بين أقطار العالم الإسلامى والغربى لتحقيق الهدف الذى سعى إليه طيلة حياته وهو وحدة المسلمين وتخليصهم من ربقة الاستعمار وتبصيرهم بأطماع الطامعين. (انظر تفاصيل حياته فى:

(أ) د. محمد عمارة: جمال الدين الأفغانى ــ موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، دار المستقبل العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٤م ،ص ص ١٧-٩٤.

(ب) د. على عبد الحليم محمود: جمال الدين الأفغانى، دار عكاظ للطباعة والنشر، الرياض ١٩٧٩م، ص ص ٣١-٥٨.

(٢) انظر من هؤلاء على سبيل المثال:

(أ) مالك بن نبى الذى قال عنه "أنه موقظ هذه الأمة إلى نهضة جديدة ويوم جديد". [نقلا عن: د. محمد عمارة، نفس المرجع السابق، ص٥].



(ب) شكيب أرسلان الذى قال عنه "أنه حكيم الشرق، فيلسوف الإسلام وعالم الكلام وكوكب الاصلاح الذى أطلعه الله فى أفق المشرق بعد أن استبد به الظلام". [نقلا عن: د. على عبد الحليم محمود، نفس المرجع السابق، ص٤٢].

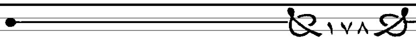
(جـ) ارنست رينان الفيلسوف الفرنسى الشهير الذى قال عنه بعد أن التقى به: "كنت أتمثل أمامى عندما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحدا من أساطين الحكمة الشرقيين" [نقلاً عن: نفس المرجع السابق، ص٤٢].

(٣) انظر: د. عاطف العراقى: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٥م، ص١٣٢.

(٤) انظر على سبيل المثال: د. على عبد الحليم محمود، نفس المرجع السابق، ص٣٧٤.

(٥) د. محمد عمارة، نفس المرجع السابق، ص١٢٧-١٢٨.

(٦) جمال الدين الأفغانى: الأعمال الكاملة، نشرها د. محمد عمارة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة بدون تاريخ، ص ١٤١.



(٧) نفسه، ص٣٢٤. وانظر أيضا: محمد عمارة: نفس المرجع السابق، ص١٢٩.

(٨) جمال الدين الأفغانى: الأعمال الكاملة، ص٢٩٢. وانظر أيضا: د. محمد عماره، نفس المرجع السابق، ص١٢٩ وما بعدها.

(٩) جمال الدين الأفغانى: الأعمال الكاملة، ص٢٩٤.

(١٠) نفسه، ص٢٢٨.

(١١) نفسه، ص٢٢٨-٢٢٩.

(١٢) نفسه، ص٤٠٠.

(١٣) نفسه، ص٤٨٥.

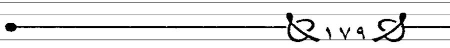
(١٤) نفسه، ص٥١٧.

(١٥) نفسه، ص٢٩٥-٢٩٦.

(١٦) انظر: نفس المصدر، ص ٤٥٣.

(١٧) انظر: نفس المصدر ونفس الصفحة.

(١٨) نقلا عن: نشرة محمد عمارة للأعمال الكاملة، الدراسة التى كتبها عن الأفغانى، ص٩.



(١٩) جمال الدين الأفغانى: نفس المصدر، ص١٩٠.

(٢٠) نفسه.

(٢١) نفسه.

(٢٢) نفسه، ص١٩١.

(٢٣) نفسه، ص١٩٢.

(٢٤) نفسه، ص١٩٨.

(٢٥) نفسه، ص١٩٨-١٩٩.

(٢٦) نفسه، ص١٩٩.

(٢٧) نفسه.

(٢٨) نفسه، ص١٩٩-٢٠٠.

(٢٩) انظر: نفسه.

(٣٠) جمال الدين الأفغانى، نفس المصدر، ص٢٧٦.

(٣١) نفسه، ص٢٠١.

(٣٢) نفسه، ص١٩٦-١٩٧.

(٣٣) نفسه، ص١٩٥-١٩٦.

(٣٤) انظر توصيفا حديثا لنفس المشكلة وما نعانى منه فيها فيما كتبناه بعنوان: "العقلية العربية بين إنتاج العلم واستيراد التقانة"، مجلة "المستقبل العربى"، التى يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية، العدد(٢٠٠) ـ اكتوبر ١٩٩٥م، ص١١٦-١٣٦.

(٣٥) جمال الدين الأفغانى: نفس المصدر، ص٣٢٧.

(٣٦) نفسه، ص٣٢٨.

(٣٧) نفسه.

(٣٨) نفسه، ص٢٢٩.

(٣٩) نفسه، ص٢١٨.

(٤٠) نفسه، ص٢٧٨.

وانظر بيانه لبعض هذه الأساليب فى إطار المقارنة التى عقدها بين الشرق والغرب فى نفس المصدر ص٤٥٤-٤٥٧.

(٤١) نفسه، ص٢٧٩.

(٤٢) انظر: د. على عبد الحليم محمود، نفس المرجع السابق، ص٣٣٠

(٤٣) انظر: نفس المرجع، ص٣٣٤-٣٤٤.



(٤٤) جمال الدين الأفغانى: الأعمال الكاملة، ص٣٢٥-٣٢٦.

(٤٥) نفسه، ص٣١٩-٣٢٠.

(٤٦) انظر: د. على عبد الحليم، نفس المرجع السابق، ص٣٤٩ وما بعدها.

وانظر أيضا: د. محمد عمارة، نفس المرجع السابق، ص١٣٣ وما بعدها.

(٤٧) د.محمد عمارة، نفس المرجع السابق، ص٧١-٧٢.

(٤٨) جمال الدين الأفغانى: نفس المصدر، ص٤٧٧-٤٧٨.

(٤٩) نفسه، ص٤٧٨.

(٥٠) نفسه.

(٥١) انظر: نفس المصدر السابق، ص٤٧٣.

(٥٢) نفسه، ص٤٧٥.

وانظر أيضا: د. محمد عمارة، نفس المرجع السابق، ص٧٣.

(٥٣) لقـد كان الأفغانى شديد التعاطف مع الشعوب التى عانت طويلا من ظـلم الحكـام والمستعمرين وكان فى كل ما قال أو كتب نصيرا لهم لـكى ينالوا حقوقهم فى الحرية والحياة الكريمة، وذلك على الرغم من

أنــه فى كــثير من الأحيان كان شديد القسوة على هذه الشعوب وكثير النقد لها لأنها سكتت طويلا على من استبدوا بهم وظلموهم. [انظر فى ذلــك على سبيل المثال: خطابه لأهل مصر، ذلك الخطاب الذى يبدو فى ظاهــره شــدة القســوة عــلى المصــريين لأنهم قبلوا بالاستبداد ورضـــخوا للاستعباد طوال العصور السابقة، إلا أنه فى باطنه الرحمة بهــم لأنه يتضمن تلك الدعوة التى لا تلين لأن ينهضوا ويشقوا صدور المســتبدين ليعيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء. (نص الخطاب فى: د. محمــد عمــارة: نفــس المــرجع السابق ص٦٠-٦١) وانظر أيضا الأعمــال الكامــلة لجمال الدين الأفغانى حيث يقول فى ص٤٧٩ "أن مصر أحب بلاد الله إلىّ"].

(٥٤) انظر ما كتبه محمد عمارة عن الجامعة الإسلامية وجهود الأفغانى فى الدعوة إليها فى نفس المرجع السابق، ص١١٥ وما بعدها.

(٥٥) انظر فى التعريف بهذه الجمعية وأهدافها: د. على عبد الحليم محمود، نفس المرجع السابق ص٧٦-٨٣.

(٥٦) انظر فى منهج "العروة الوثقى" وأهدافها ما كتبه جمال الدين فى نفس المصدر السابق، ص٥٣٣.

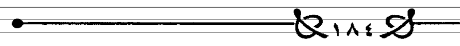
وانظر تعريفا بالجريدة وأهدافها فى د. على عبد الحليم محمود، نفس المرجع السابق، ص٨٣-٨٤. وقد صدقه أحد الباحثين حينما وصف دور هذه الجريدة وتأثيرها بقوله "أنها تعد أم

الجرائد الحاضرة على الإطلاق والتى لم يزل الناهضون من بنى الشرق يسيرون فى دعوتهم إلى النهوض على أثرها" [فيليب دى طرازى: تاريخ الصحافة العربية، بيروت ١٩١٣، ص٢٦١-٢٦٢. نقلا عن: د. على عبد الحليم، نفس المرجع، ص٨٤].

(٥٧) جمال الدين الأفغانى، الأعمال الكاملة، ص٣٥٣.

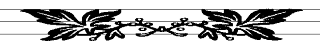
(٥٨) نفسه.

(٥٩) نفسه، ص٢٢٤ .



(١٢)

الحوار "المستحيل"
بين حضارات "الشرق"
وامبراطورية "الشر الأبيض" (*)



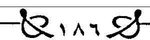
(*) دراسة نشرت على ثلاث حلقات بجريدة "البيان" اليومية الإماراتية التي تصدر عن إمارة دبى - يناير ١٩٩٣م.

الحوار "المستحيل"
بين حضارات "الشرق"
وامبراطورية "الشر الأبيض"

[١]

◆ المدنية الغربية وأسباب تفوقها :

ليس من شك أن الحضارة الغربية تمثل اليوم الحضارة السائدة فى العالم. والحق أن سيادتها ليس نتيجة قوة ثقافتها أو عظمة تراثها الفكرى أو العلمى بقدر ما هو نتيجة لتفوقها التكنولوجى والعسكرى؛ فقد أعطتها التكنولوجيا المتفوقة القدرة على غزو الشرق غزوا إعلاميا مكثفا عن طريق كل وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية. مما جعل الثقافة الغربية تخترق كل الثقافات الأخرى على أنها الثقافة الأكثر تقدما، فأصبح النموذج الثقافى الغربى بكل ما يحمله من قيم هشة وعادات مرذولة وسياسات عقيمة أساسها العنصرية والمصلحة، أصبح هذا النموذج هو السائد بين مثقفى العالم فاغتربوا عن ثقافاتهم وتناسوا عناصر تميزهم وتغافلوا عن دراسة واقعهم وقيمهم وأصبحوا تابعين لا مبدعين، سلبيين لا ايجابيين، منفعلين لا فاعلين!!.



أما قوتها العسكرية بقدراتها المتفوقة وتنوع أسلحة الدمار الشامل فيها، فقد مكنتها من فرض السيطرة، والتحكم فى مصير شعوب وحكومات العالم الشرقى، وقد تطورت صورة هذا التحكم العسكرى أخيرا حينما انتقل من صورة التلويح والتهديد إلى صورة العلن والتبجح منذ أعلنت أمريكا رأس العالم الغربى وذراعه القوية أن بامكانها التدخل العسكرى فى أى مكان فى العالم لفرض إرادتها تحت مظلة ما يسمى بهيئة الأمم المتحدة التى هو فى الواقع هيئة الولايات المتحدة وحليفاتها الغربيات!، وقد حدث هذا التدخل العسكرى لمصالح معروفة فى حرب الخليج الأخيرة، وها هو يحدث الآن فى الصومال ومنطقة القرن الأفريقى، وإن لم يحدث فى أماكن كثيرة أخرى مثل البوسنة والهرسك لتعارضه مع المصالح الأمريكية – الغربية بالطبع!!.

إن القوة العسكرية والتكنولوجية وتفوقها فى الغرب هى التى تفرض العدل بحسب ميزان المصالح الغربية وحدها ودون أى اعتبار لمصالح باقى البشر فى العالم. إن ما تتغنى به امريكا ودول الغرب عن العمل بمقتضى المصالح الإنسانية العالمية فى إطار ما يسمونه بالنظام العالمى الجديد إنما هو محض تمويه ومحض خرافة. وذلك لسبب بسيط هو أن القوة العسكرية والتقدم التكنولوجى لا يمكن بأى حال أن يكونا أداة لإبداع نظام عالمى جديد تحترم فيه إنسانية الإنسان.

إن إدراكنا لأسباب التفوق الغربى المتمثلة فى التفوق التكنولوجى والعسكرى وحدهما يعنى ضرورة أن ندرك حقيقة أخرى

هى أننا فى صراعنا مع الغرب لسنا فى صراع مع حضارة سائدة بمقومات حضارية حقيقية مثل التقدم الأخلاقى والدينى والاجتماعى والفكرى والسياسى والعلمى والأدبى.. الخ، بل بمقومات مادية تكنولوجية تسير بالبشرية إلى الفناء ولا تتجه بها إلى التعمير والبناء. وذلك يعنى ببساطة أننا أمام مدنية متحكمة ولسنا أمام حضارة متفوقة.

ولعل القارئ الآن يسأل: ما سبب هذا الحديث عن التمييز بين الحضارة والمدنية؟!، وما ضرورة هذا الكلام عن التمييز بين الحضارة بمقوماتها الإبداعية القادرة على البناء الإيجابى فى شتى الميادين، وبين المدنية بمقوماتها الاستهلاكية المادية التى تجرنا إلى الضياع والفناء؟!.

• جارودى وكتابه "حوار الحضارات" :

إن ما أثار هذا فى الذهن إنما هو قراءة كتاب "حوار الحضارات" للمفكر الفرنسى الكبير روجيه جارودى، الذى كان من قبل ماركسيا مسيحيا وأصبح الآن مسلما معروفا. لقد كتب جارودى هذا الكتاب التنويرى الهام قبل إسلامه بمدة طويلة وقد أثار فيه العديد من القضايا الهامة والمثيرة، وكان أبرز هذه القضايا هى قضية الحوار بين الحضارات التى يشير إليها عنوان كتابه، وهى قضية القضايا فى فكر جارودى الفلسفى منذ مدة طويلة. وسيجد القارئ أن حوارنا مع أفكاره حول هذه القضية سيكون من منظور ما طرحناه فى مقدمة حديثنا.

إن قضية علاقة الغرب بالحضارات الأخرى هى لب مسألة الحوار الحضارى الذى يدعو إليه جارودى، ومن ثم كان عليه دراسة الحضارات الأخرى وما يمكن أن تقدمه للحضارة الغربية أو ما يمكن أن يستفيده منها الغرب. وقد تمخض عن هذه الدراسةِ لدى مفكرنا عدة قناعات عبر عنها فى كتابه الذى بين أيدينا بوضوح تام. وكان أهم هذه القناعات:

• **الغرب عرض طارئ:**

أولاً : أن الغرب عرض طارئ فى تاريخ البشرية الطويل. وقد صور مفكرنا دور الغرب فى هذا التاريخ الطويل للبشرية بعبارة "الشر الأبيض" وقد أحسن صنعا بهذا التصوير، لأن معظم الآلام والأحزان والأهوال التى عانى منها البشر قد جاءت على يد الغربيين فى فترات سيادتهم على العالم سواء فى العصور القديمة أو فى العصر الحديث؛ فقديما حينما تعاظمت قوة الغرب اليونانى ثم الرومانى، وفرض سيطرته على العالم منذ غزوات الاسكندر الأكبر ثم اقتسام قواده لامبراطوريته من بعده، وما أعقب ذلك من ظهور الإمبراطورية الرومانية فى التاريخ شهد العالم الكثير من ألوان التزييف والخلط الفكرى، كما عانى الناس أشر ألوان العذاب والأهوال. وكلنا يذكر قصص أولئك الأباطرة الرومان الذين كانت متعتهم الكبرى تتمثل فى رؤية البشر وهم يتقاتلون ويقتلون ليس فى ميدان الحروب فقط، وإنما فى حلبات المصارعة إما بيد بعضهم

البعض أو فى صراعهم مع الحيوانات المفترسة، فكلنا يذكر على سبيل المثال مفاسد نيرون وطغيانه واحراقه لعاصمة بلاده روما، وقتله لكل من تسول له نفسه الخروج عليه أو مخالفته فى الرأى حتى أنه أمر بإعدام سينكا الفيلسوف والأديب الرواقى الشهير وهو أستاذه ومربيه بقطع شرايينه.

أما فى العصر الحديث، فكلنا يذكر ويعلم كيف تعاظمت قوة أوربا والغرب باستعمارها بلاد الشرق والاستيلاء على ثرواتها واستعباد أهلها وكلنا يعلم كيف قامت أمريكا على اكتاف أولئك العبيد المستجلبين من بلاد الشرق وخاصة من افريقيا السوداء، وكيف أقام مهاجرو أوربا هذه الامبراطورية الجديدة (أمريكا) عبر استيلائهم على أراضى المستوطنين الأصليين من الهنود الحمر وإبادتهم إبادة جماعية!!. ولا تزال ذكرى الحرب العالمية الأولى والثانية ماثلة للعيان نشاهد تاريخ مآسيها عبر شاشات التليفزيون، ونعلم كيف استعرت هذه الحروب المدمرة بين الغربيين من جراء الصراع والتنافس فيما بينهم وإحياء القوميات العرقية العنصرية ومحاولة كل منها السيطرة على الأخريات. لقد مات الملايين منهم فى هذه الحروب، وها هم الباقون يحيون على الذكريات الأليمة والميراث المأساوى الذى يحاولون تصديره الآن وبصور مختلفة إلى الآخرين، إلى ما يسمونه حسب تصنيفاتهم العنصرية البغيضة "العالم الثالث". حقا إنها "امبراطورية الشر الأبيض"!!.

• **وهم المعجزة الغربية:**

ثانياً: أما ثانى قناعات جارودى فيتمثل فى إدراكه أن تصوير الغرب على أنه "بدء مطلق" ــ أى على أنه قد صنع حضارته بنفسه وأنه صانع الحضارة الإنسانية فى كل العصور ـــ إنما هو "وهم".

وقد برهن مفكرنا على قناعته هذه بنجاح تام حينما أكد "أن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم "الغرب" إنما ولد فيما بين النهرين وفى مصر أى فى آسيا وافريقيا[١]". وكما أن الغرب القديم (أى اليونان) قد ولد فى أحضان حضارات الشرق القديم ونما من شربه لرحيق فكرها وعلومها المتقدمة، فإن الغرب الحديث قد ولد عبر نقل نهضة شاملة صنعها العرب والصينيون فى العصر الوسيط (وهو اصطلاح يعبر عن التقسيم الغربى للتاريخ بوصفه مركزا له) إذن فلم يبق عصر النهضة "معجزة"، كما لم تبق ثمة "معجزة يونانية[٢]".

وقد أفاض جارودى فى البرهنة على رفض المعجزة الغربية فى العصر الحديث وأكد على "إن شرط "نمو" الغرب إنما كان بالضرورة وليد نهب ثروات القارات الثلاث ونقلها إلى أوربا وأمريكا الشمالية[٣]". وأن "مولد الجشع فى الغرب وهو يستند إلى أساس الربح والسيطرة قد أتاح الإفادة على سلّم لم يسبق له مثيل فى الماضى من الاختراعات التى أخذتها أوربا من ناحية ثانية عن الصينيين وعن العرب: بحرية تفيد من أجهزة دفة السفينة ومن

البوصلة، وهى تيسر إمكان الملاحة البحرية إلى مسافات طويلة، وكذلك استخدام البارود والأسلحة النارية بوجه خاص[٤]". وعلى ذلك "فإن التفوق الأوربى لا يرجع إلى تفوق ثقافى، بل إلى النفع الذى منحته أوربا من قطاعين: البحرية والأسلحة[٥]"، وقد نقلتهما أوربا من العرب والصينيين.

ولقد تحلى جارودى بشجاعة عظيمة حينما كتب فى مؤلفه هذا ولأول مـــرة فى تـــاريخ الكـــتابات الغربية بوضوح شديد "إنما يدين الغــرب بعصـــر النهضة للـــ "غزو" العربى الذى عرف كيف يخلق الشروط اللازمة لتفتحه[٦]". ولاحظ وضع جارودى لكلمة الغزو بين أقـــواس؛ فهو لا ينظر إلى ما حدث من دخول العرب أوربا على أنه "غـــزو" بل على أنه كان فتحا عظيما أفادت منه أوربا بأكثر مما أفاد العرب، وهو يرد على من يسمونه غزوا بقوله: "إن ما يطلقون عليه اسم "غزو أسبانيا" لم يكن غزوا عسكريا؛ لقد كان عدد سكان أسبانيا فى ذلـــك الحيـــن زهـــاء عشرة ملايين نسمة ولم يزد عدد الفرسان العرب فى الأرض الأسبانية البتة على سبعين ألفا وإنما لعب التفوق الحضارى دورا حاسما[٧]".

• **التفوق الحضارى للعرب ونقل الغرب عنهم:**

ولقد أفاض جارودى فى بيان التفوق الحضارى العربى وعرض بشىء من التفصيل لاسهامات العرب والمسلمين الحضارية،

وقارن بينهم وبين الأوربيين فى ذلك الوقت، حيث أوضح أنه فى الوقت الذى لم تكن فيه أوربا قادرة فى مستهل القرن التاسع على معرفة القراءة. كان الخليفة المأمون يفتتح فى بغداد بمساعدة جيش من المؤلفين والمترجمين مكتبة ضخمة هى "دار الحكمة". وكان "الحاكم" وهو أحد الخلفاء الأمويين يمتلك فى قرطبة مكتبة تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد، بينما لم تضم مكتبة شارل الخامس ملك فرنسا الملقب بالحكيم – أى العالم – إلا ألف كتاب بعد أربعة قرون[٨]. كما أوضح أن العرب "قد سعوا وهم يبنون امبراطورية تجارية كبرى إلى التقنيات والعلوم التى قفزت قفزة كبرى إلى الإمام بتأثيرهم[٩]". كما كشف النقاب عن أن الجغرافيين والفلكيين العرب الذين كلفوا برسم الخرائط الضرورية لإدارة امبراطوريتهم قد أخذوا بعين الاعتبار كروية الأرض فى الوقت الذى كانت الكنيسة المسيحية تنكرها. كما أقر جارودى منجزات العرب البحرية وكشف زيف التاريخ الغربى فى هذا الصدد بقوله: "ولئن أذهلت ريادات ماركو بولو الغرب، فإن من الثابت أن مؤلفاً عربياً تحدث سنة ٨٣١م أى قبل ماركو بولو بأربعمائة وخمسة وعشرين سنة عن رحلة إلى الصين وصل خلالها إلى سدود كانتون بل بلغ بلا ريب كوريا واليابان. وقد وضع مسلم يسمى أحمد بن ماجد فى الوقت ذاته تقريبا كتابا عن الملاحة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين. وسيفيد البرتغاليون منه باعتباره أساس

دراساتهم البحرية فى عهد هنرى الملاح الذى يمثل بالنسبة إلينا نحن الأوربيين قمة فن الملاحة(١٠)".

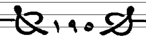
وقد تحدث جارودى أيضا عن منجزات العرب العلمية ومكتشفاتهم فى كل حقول المعرفة من الحساب والرياضيات إلى الكيمياء والطب، وكذلك العلوم الإنسانية التى أشاد فيها بريادة ابن خلدون فى اكتشاف المفهوم العلمى لعلمى الاجتماع والتاريخ وسبقه لمكيافيلى فى طرح مشكلات موقف الإنسان من السياسة والتاريخ. وأشار إلى سبق ابن خلدون فى اكتشاف نظريات فائض القيمة بالاستناد إلى العمل قبل الاقتصاديين الأوربيين الذين لم يستطيعوا — على حد تعبيره — الانعتاق من النظريات التجارية فى القرن الثامن عشر(١١).

- **المخترعات الصينية ونهضة الغرب:**

وقد أشاد جارودي كذلك بما قدمه الصينيون من علوم ومخترعات ساعدت كثيراً فى التقدم والتطور الإنسانيين، وأشار فى هذا الصدد إلى اختراعهم "المطبعة التى لعبت دورا حاسما فى انتشار عصر النهضة والاصلاح والرأسمالية(١٢). كما أشار إلى استخدامهم للثروة المعدنية واستخراجها من الأرض "بينما لم تعرف الصناعة الأوربية استخراج الصلب إلا حوالى ١٣٨٠م(١٣)" كما أوضح مدى تقدمهم فى ميادين استخدام قوة البحار والرياح، وأشار بعظمة

الأسطول الصينى الذى كان أقوى أساطيل العالم بين أعوام ١١٠٠ و١٤٥٠ م. وكذلك أشار إلى استخدامهم القوة الحيوانية فى التنمية، وإلى اختراعهم لبارود المدافع فى القرن التاسع الميلادى، وإلى كشوف علماء الصين فى مجال التغذية وعلم الحشرات وحماية النباتات ودراسة النبض وتقنيات وخز الإبر التى تنم عن علم بالتشريح متعمق جداً[١٤].

وبالطبع فلم يكن غريبا فى إطار تلك الأمثلة التى هى مجرد جزء ضئيل من اسهامات العرب والصينيين فيما قبل عصر النهضة الأوربية، أن يرد جارودى عصر النهضة الغربى إلى ما نقلته أوربا من منجزات الشرقيين من عرب وصينيين وغيرهم. بل إن الغريب والمدهش حقا هو ذلك التجاهل الذى ظل مسيطرا على كتابات المؤرخين العلميين الغربيين لتلك الانجازات والاسهامات الشرقية فى تاريخ العلم والتكنولوجيا طوال القرون السابقة. إنه باستثناء العلامة جورج سارتون فى كتابه الشهير "تاريخ العلم"، فقد درج المؤرخ الغربى دائما على أن يصور للناس أن تاريخ العلم هو تاريخ غربى محض، وأن الغرب هو صانع ومبدع كل المكتشفات السابق الإشارة إليها. وأن الغربيين لم يتأثروا بأحد ولم يأخذوا شيئا من أحد، وأنهم صانعو التقدم فى كل عصور التاريخ الذى يبدأ منهم (أى من اليونان القديمة)، وينتهى إليهم (أى إلى سيادة أوربا وأمريكا)!!.



[٢]

ويواصل جارودى تقديم قناعاته فى كتابه "حوار الحضارات" حول الحضارة الغربية بتحليل ما آل إليه حالها بعد كل التقدم الذى ظنت أنها أحرزته فى القرون السابقة.

- **التطور الصناعى فى الغرب والتأهل للانتحار الحضارى :**

ثالثاً : إن ثالث هذه القناعات يتعلق بنمط التطور الذى تمارسه الحضارة الغربية فى مجال التقدم الصناعى، إن ذلك النمط فى نظر مفكرنا إنما يقود البشرية إلى طريق مسدود. ويعبر عن هذه القناعة بقوله: "إن حضارة تقوم على هذه الموضوعات الثلاث: تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك – تحيل الفكر إلى ذكاء – تحيل اللانهائى إلى الكم، إنما هى حضارة مؤهلة للانتحار[1]".

ويفسر جارودى أسباب هذا التأهل للانتحار بقوله: "إنه انتحار لفقدان الهدف ويشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر فى الأصقاع الأغنى "وهو" انتحار لإفراط الوسائل ويبرهن على ذلك النضوب المتنامى للمصادر الطبيعية والتلوث وذلك نتيجة ضرورية لتصور لا يرى فى الطبيعة شيئا آخر سوى أنها مستودع ومعمل لمعالجة القمامة"، وهو انتحار بسبب "الرجحان السئ لمقولة التنمية اللانهائية الكم" إذ أنه باسم هذه

المقولة "تعمل مجتمعاتنا – يقصد المجتمعات الغربية طبعا – كما لو أن كل ما هو ممكن تقنيا أمر مرغوب فيه وضرورى سواء أكان ذلك فى صنع أسلحة نووية أكثر قوة باطراد أم صنع سيارات أو طائرات أكثر سرعة باطراد حتى ولو لم يستهدف الذهاب إلى أى مكان، أم إطالة الحياة أكبر قدر يستطاع حتى ولو كانت حياة نباتية خالصة تجعل المحتضر موضوع عرض علاجى مسرحى وضحيته.. إن مجتمعاتنا المسماه "متطورة" تعمل تبع المبدأ الذى كان فيما سلف مبدأ المغالطين: خلق حاجات ورغبات تتصف بأنها مصطنعة إلى أبعد مدى، ومؤذية أعظم الإيذاء من أجل اللجوء من ثم لانتاج وسائل إروائها[٢]".

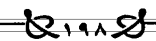
إن ما تدعوه "مجتمعاتنا الغربية الحالية نموا أو تطورا إنما يعرف بمعايير وحيدة الجانب معايير اقتصادية: الازدياد الكمى فى الإنتاج وفى الاستهلاك دون الرجوع إلى مشروع إنسانى أو إلى صفة الحياة ونحن إنما نقارن اليوم ونصنف تسلسل المجتمعات والشعوب بهذه المعايير التى تعتمد على الناتج القومى الخام[٣]".

إن المتأمل للفقرات السابقة التى عبر فيها جارودى عن قناعته بأن التطور الصناعى ونمط النمو الذى تقيس به المدنية الغربية ذلك التطور، إنما يؤدى بالحضارة الغربية إلى الانتحار ويقود البشرية معها إلى طريق مسدود. إن تلك الفقرات هى أصدق ما فى كتاب

جارودى وهى تكشف عن وعى عميق بأزمة ما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة والتى أصر من جانبى على تسميتها بالمدنية الغربية. لقد بلور مفكرنا هذه الأزمة حينما وعى واكتشف أن معيار القياس فى "الغرب" هو معيار الكم الربحى أى المعيار الاقتصادى المادى الذى لا يعنيه الإنسان فى ذاته ولا يشير ولا يأخذ فى الاعتبار حياته الاجتماعية، أخلاقه ودينه وصحته النفسية وانفعالاته.

إن قياس التقدم بالمعيار الكمى وحده هو الذى أفقد تلك الحضارة – التى كانت كذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر – قوامها الحضارى وحولها إلى مدنية بلهاء لا ترى فى الإنسان شيئا سوى عمله المادى ونتاج هذا العمل المادى من ثروات ومخترعات تسهل له الحياة وهى فى الواقع تدمرها، وتحول مُبدعها إلى موجود هامشى لا قيمة له ولا فاعلية.

لقد أصبح الإنسان الغربى – ونحن معه نسير على نفس الدرب – شيئا ككل الأشياء، أصبح شيئا غير مبدع، مات فيه الخيال وانعدمت الرؤية الشاملة، فقد أحاسيس الرؤية الواضحة، والقيمة الأخلاقية الرفيعة، ماتت فيه العاطفة الأخوية والأسرية والاجتماعية. لقد فقد الإنسان الغربى المعاصر القدرة على التفكير المجرد الشامل المتجاوز للواقع المادى، وماتت فيه القدرة على حب الطبيعة البكر، والتأمل فى آفاق الكون الرحب والالتحام بكل ما فيه بالحب والعطاء،



وليس بالنظر إلى كل ما فيه نظرة الأداه، نظرة السلب والنهب. إن ثورات الطبيعة الآن وفى كل مكان خير شاهد على ما فعله الإنسان فيها وتحديه إياها. إن ما نراه فى كل أنحاء العالم الآن من زلازل وبراكين – كانت خامدة منذ قرون وعادت تهز الأرض وتقذف إلينا بحممها – إنما هى خير رد من الطبيعة على ما يمارسه الإنسان الغربى ونحن معه من سلوك همجى تجاهها بدون وعى.

لشد ما ينبغى أن يتذكر الإنسان الغربى المعاصر كلمات الفيلسوف الرواقى القديم عن ضرورة التآخى مع الطبيعة والإنصات إليها واحترامها بنفس القدر الذى على البشر أن يتآخوا به فيما بينهم وأن يحترم كل منهم الآخر ويقدر دوره فى الحياة.

ولشد ما ينبغى أن يتذكر الإنسان الغربى المعاصر كلمات الفيلسوف الفرنسى العظيم جان جاك روسو الذى دق ناقوس الخطر منذ القرن الثامن عشر فى بحثه غريب العنوان عظيم المضمون "هل ساهم إنشاء العلوم والفنون فى تهذيب الأخلاق؟"؛ فقد قال فيه: "إنه بقدر ما كانت علومنا وفنوننا تتقدم نحو الكمال بقدر ما كانت أخلاقنا تفسد ونفوسنا تتعفن... إن البذخ هذا الشر الكبير نادرا ما يسير بدون العلوم والفنون وهذه لا تسير مطلقا بدونه[٤]"، وبالطبع فلم يكن قصد روسو من هذا البحث هو وقف تطور العلوم أو هدمها، وإنما كان يقصد إلى التنبيه إلى أن النمو المتتالى للحاجات البشرية كان شرا وأن تكاثرها الذى لم يكن ضروريا كان تهورا كبيرا من قبل البشر[٥].

• **الحضارة الغربية وضرورة الحوار مع الحضارات الأخرى :**

رابعاً: أما رابع قناعات جارودى فهى قناعته بضرورة الحوار بيـن الحضارات فى العصر الراهن حتى يمكن للحضارة الغربية أن تـتجاوز أزمـتها وكذلك حتى يمكن للعالم المسمى بالعالم الثالث أن يـتجاوز وضـعه الراهن. وقد تأكدت قناعته هذه من قناعاته السابقة الـتى كـان جوهرها إيمانه بأن "الغرب حادث عارض. وأنه أخطر عـارض طـرأ فى تـاريخ الكـرة الأرضية والذى يقود اليوم إلى فنائها[٦]"، وأن نجاة الغرب من هذا الفناء المحقق لا يمكن تجاوزه إلا بالقضـاء "على التصور التسلطى فى الثقافة الغربية" وأن "يستعاض عـنه بتصور سيمفونى" يتطلع فيه الغرب بأسئلته وبحلول لمشكلاته إلى حكمه "العالم اللاغربى"، وليس من سبيل إلى ذلك إلا "بالانخراط فى حوار حقيقى مع الثقافات غير الغربية[٧]".

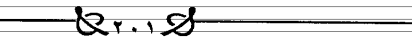
• **الفرص الضائعة للحوار بين الغرب والحضارة العربية الإسلامية:**

لقد كان هذا الحوار المنشود بين الغرب والحضارات الأخرى ممكنا فى مراحل سابقة من العصر الحديث لكن الغربيين أضاعوا فرصا كثيرة لهذا الحوار. وكان أبرز هذه الفرص الضائعة فرصة الحوار مع الحضارة الإسلامية التى كانت بالفعل تمد جسور هذا الحوار بما أقامته من صروح حضارية فى أوربا إبان عصر النهضة. وقد صور جارودى قوة تأثير هذا الجسر الحضارى بقوله:

"إن ما حققه العرب فى أسبانيا، يجعلنا نفكر فى الحرب الثورية التى نهض بها ماو (يقصد ما فعله ماوتسى تونج فى الثورة الصينية وبناء الصين الجديدة)؛ فقد جلبوا معهم نظاما اجتماعيا أعلى جدا من النظام الراهن، وسرعان ما ظهروا بمظهر محررين: أولا بانقاذهم الأقنان من وصاية ملوك (الفيزغوط) فى عصر انحطاطهم ثم بعدم امتلاكهم الأرض - والقرآن يمنع ذلك - ولكن الاكتفاء بالخراج. لقد أقام العرب فى بلد تمزقه الفوضى الإقطاعية أجمل منشآت الرى التى عرفها العصر، ولايزال المتحدثون يلهجون إلى اليوم بالكلام على حدائق مرسى حديثهم عن حلم[٨]".

"إن الحضارة التى أقامها العرب فى أوربا كانت حضارة نشر العلم"، "نحن ندين للعلم العربى بكليات الطب الفرنسية الأساسية" وقد ظلت كتب الطب العربية مثل كتب الرازى الشهيرة تنشر وتدرس حتى القرن السادس عشر فى فرنسا وحتى منتصف القرن التاسع عشر فى انجلترا "وقد توصل عمر الخيام إلى حل معادلات الدرجة الثالثة باستخدام نفس الطريقة التى استخدمها ديكارت بعد خمسة قرون وبذلك وضع أسس الهندسة التحليلية، وقد ظل كتاب الجبر الكبير الذى ألفه الخيام وترجمه إلى الفرنسية مرجعا معتمدا حتى سنة ١٨٥٧م[٩]".

إن جارودى يحاول فى الفقرات السابقة أن يعدد بعض ما قدمه العرب للغربيين من علوم كانت هى أساس نهضتهم، وهو



يستشهد فى هذا الصدد بما نشره الكاتب الفرنسى الكبير أناتول فرانس فى "الحياة الجميلة" حيث: "سأل السيد دوبوا السيدة نوزير عن أشأم يوم فى تاريخ فرنسا، ولكن السيدة نوزير لم تكن تعرف. فقال السيد دوبوا: إنه يوم معركة بواتيه عندما تراجع العلم العربى والفن العربى والحضارة العربية سنة ٧٣٢ أمام همجية الفرنجة(١٠)".

ويعلق جارودى على هذا النص الذى نقله قائلاً: بأن الكشف عنه كان سببا فى طرده من تونس سنة ١٩٤٥م بذريعة الدعاية المضادة لفرنسا(١١)".

ولقد أعفانا جارودى بتعليقه هذا من التعليق؛ فقد أوضح بصورة جلية أن الغربيين لا يقبلون الاعتراف بفضل أحد عليهم، فهم لم ولن يعترفوا بالحقائق التى أدركها هو والبعض ممن يعدون استثناءات قليلة فى تاريخ الفكر الغربى الحديث والمعاصر.

إن مفكرنا يحاول فى الصفحات التالية من كتابه الذى بين أيدينا، تصحيح بعض المفاهيم التى رسخت فى ذهن الإنسان الغربى عن وجود العرب فى أوربا وما كان يمكن أن يحققه الغربيون من مكاسب عظمى لو حافظوا على هذا الوجود الحضارى العربى واستفادوا منه بدلا من إماتته فى ذاكرتهم ونسبة انجازاته زيفا إلى أجدادهم من اليونانيين. لقد قيل من جانب الغربيين فى ذلك الوقت من عام ١٩٤٥ وأثناء الاستعمار الفرنسى للجزائر وغيرها من

البلدان العربية الإسلامية "إن العلم العربى الذى بلى ومات ميتة لا رجعة لها إنما قام على اقتباسات من مؤلفات يونانيين اختارها يهود فى العصور الوسطى(١٢)".!.

ويحاول جارودى تصحيح هذا الفهم الخاطئ بقوله متسائلاً: "لماذا هب هذا الإعصار القادم من الشرق وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين إلى المحيط الأطلسى؟ ان العامل الحاسم هو أن العربى قد جلب معه أشكالا أعلى فى مجال التنظيم الاجتماعى وحتى الاقتصادى. ولذا نجده يحظى بقبول الجماهير فى عالم يقر نظام الرق وهو فى حالة تفسخ تام(١٣)".

إن هذه المحاولة التصحيحية التى يقوم بها مفكرنا إنما هى جزء من كل يستهدف من وجهة نظره "ضرورة وضع التاريخ كله فى أفق رؤية لا تشوهها أحكام الغرب المسبقة، رؤية تقلع عن اتخاذ النظرة الأوربية مركزها(١٤)".

وبالطبع فإن هذه شجاعة عظيمة من جارودى حينما يقف فى مواجهة حقيقة كثيرا ما غابت عن وعى معظم المثقفين والكتاب فى العالم الغربى، وهى أن تاريخ الإنسانية قد شوهته هذه النظرة الأحادية الغربية التى يحاول دحضها والتقليل من سيطرتها على الوعى الغربى. وأكاد أقف معه فى خندق واحد لأدعو معظم المثقفين بل والمفكرين العرب أيضا إلى إدراك هذه الحقيقة بعد أن تشوه

وعيهم بما ينقلونه من فتات هذه النظرة الغربية العنصرية المحدودة إلى تاريخ الحضارات وفلسفاتها وعلومها. إنها دعوة إلى أن يقلل هؤلاء من تفاعلهم مع هذه النظرة الغربية والتأثر بها، دعوة إلى رفض هذه النظرية التى تعتبر أن الغرب هو مركز كل شيء وصانع كل شيء، إننى أنادى هؤلاء بأن يتعلموا الشك فى كل الرؤى الغربية العنصرية، وأن يثابروا ويصبروا حتى يكتشفوا كنه الحقيقة بالعودة إلى غير المألوف من كتب تراثنا الشرقى القديم وتراثنا الاسلامى، دعوة إلى أن ينظروا فى المصادر غير المألوفة من كتب الرحالة والمؤرخين غير الرسميين، إلى الوثائق غير الشائعة، تلك الوثائق المخفية عن أعيننا بفعل الاستعمار الغربى سواء حينما كان بصورته السافرة فيما مضى أو فى صوره الخفية غير السافرة الآن.

• الفرص الضائعة للحوار مع الحضارتين الصينية والهندية:

ولنعود إلى جارودى وشجاعته فى إبراز تلك الفرص المفقودة التى أضاعها الغربيون وكان من الممكن أن يستفيدوا منها فى الحوار مع الحضارات الأخرى، ومنها فرصة الحوار مع الحضارة الصينية التى تحدثنا عنها فيما سبق، وفرصة الحوار مع الحضارة الهندية التى أذهل جارودى فيها بوجه خاص ما تملكه من رؤية مختلفة للعالم ولحقيقة الوجود. وقد ضرب عدة أمثلة على مضمون تلك الرؤية من التراث الهندى القديم والمعاصر، ولعل من أبرز الأمثلة

ما ذكره عن الزعيم الهندى الشهير المهاتما غاندى الذى قاوم الاستعمار الإنجليزى الغربى لبلاده من منظوره الحضارى الهندى المميز. لقد قال غاندى موضحا فلسفته الحضارية: "قد لا تقوم الحضارة على مضاعفة الحاجات وإكثارها، بل على العكس تقوم على تقليصها بإرادة ووعى" إن إرادة خلق عدد غير محدود من الحاجات من أجل العمل على تلبيتها فيما بعد ليس سوى تتبع ريح "وأنا لا أضع أى حد دقيق يفصل الاقتصاد عن الأخلاق لشدة ما قمت بهذا التمييز(١٥)".

وبالطبع فإن هذه الروح الحضارية المتميزة إنما هى روح الحضارات الشرقية جميعا وقد استقاها غاندى من التراث الفكرى الهندى بتاريخه الطويل وقوته الروحية الهائلة.

لقد حدد جارودى هدفه من تعديد هذه الفرص الضائعة للحوار بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى فى الماضى القريب والبعيد.إنها محاولة منه لإعادة الحضارة الغربية إلى مكانها الصحيح فى تاريخ البشرية، فهى لا تشكل سوى الجزء الأكثر ضآلة وسطحية من تراث طويل عريق وعظيم.

إن الهدف من تلك الاستشهادات بإنجازات الحضارات الأخرى فى نظره "ليس القيام بما يقوم به المؤرخ أو عالم الآثار من بعث الماضى الغابر، ولا القيام بما يقوم به هاوى المعرفة الأجنبية،

بل إن كل شىء هنا يتجه شطر المستقبل، شطر اختراع المستقبل. ونحن لانستطيع إرجاع مشروع الإنسانية الروحى إلى المشروع الغربى عن العلم للعلم والتقنية للتقنية.. إن التربية السلبية وهى تميز الفكر الشرقى ينبغى بالضرورة أن تتدخل لتحديد هدف تقنيات مداولاتنا الغربية ونضدها باتجاه كل عالمى. وعلينا أن نتعلم الشىء الكثير من الحكمة الشرقية. وبالمقابل فقد يتفق لسكان افريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية الإفادة من دمج بعض الجوانب الإيجابية من علمنا وتقنياتنا. وليس بمحال إطلاقا حدوث مبادلة تتيح حوارا بين الحضارات. ولكن الحوار يفترض أن يكون كل طرف مقتنعا بأن ثمة شيئا يتعلمه من الطرف الآخر(١٦)".

[٣]

• الرد العربى على مسألة الحوار الحضارى:

لقد اتضح لنا فيما سبق أن ما يسعى إليه جارودى فى كتابه الذى بين أيدينا وفى معظم كتاباته الأخرى وخاصة المتأخرة منها(١)، إنما هو إقامة الحوار بين الحضارات لخير الإنسانية كلها، وهذا موقف فكرى عظيم نقدره له. وقد رد عليه الفكر العربى فى حينه، إذ كتب المفكر التونسى الأستاذ محمد مزالى فى مجلة "الفكر"

التونسية بعد صدور "حوار الحضارات" لجارودى بشهرين فقط، كتب مقالا بعنوان "نحو مستقبل أفضل أساسه حوار الحضارات" يشيد فيه بموقف صاحبه واعتبره "الموقف السليم الذى يمليه العقل المتبصر وتقتضيه الأخلاق السامية وتفرضه متطلبات السلم العادلة الدائمة[٢]" وقد أوضح الأستاذ مزالى أن تلك الدعوة إلى الحوار البناء بين الحضارات إنما هى دعوة طالما دعونا إليها على أن يكون ذلك الحوار وهذا التعاون الثقافى نزيها "يقوم على التقدير المتبادل مبرءا من عقد الاستعلاء والغرور وإرادة الهيمنة والاستغلال، محاط بأكثر قدر من الانتباه والتحرى للحفاظ على خصوصية كل ثقافة وإبراز طرافتها وصياغة عبقريتها[٣]".

إذن لقد كان أول رد عربى – إسلامى على تلك الدعوة إلى الحوار بين الحضارات يمثل الرد المتوقع منهم بحسب إرثهم الحضارى الطويل القادر على ادراك أن النماذج الفكرية لابد أن تتلاقح لخير البشرية جميعا، وأن حظوظ الأفراد والشعوب من الإبداع متساوية دائما، وأن ليس هناك ما يمكن أن يسمى بالشعب المعجزة أوبالفرد المعجزة؛ إذ أن للشعوب إرادة فكرية جمعية تبدعها وتنميها وتتفاعل بها مع الشعوب الأخرى، كما أنه لم يولد بعد الفرد المبدع إبداعا مطلقا؛ فالإبداع ليس خلقا للأفكار أو للنظريات العلمية والفكرية من عدم وإنما هو نتيجة حتمية للتأثر ببيئة فكرية ناضجة

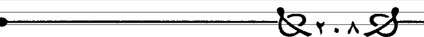
تأثرت بتراث سابق عليها أو معاصر لها. هكذا يعلمنا النظر إلى التاريخ العالمى للحضارات البشرية.

إننا يا سيد جارودى نؤمن بكل ذلك ولا أدل على إيماننا العميق به من أننا كأمة عربية – إسلامية قد فتحنا لحضارتكم ونواتجها العلمية والتقنية – بإرادتنا واختيارنا – الأبواب على مصراعيها، فمنذ بدأ أجدادنا يسمعون عن تقدمكم الحضارى الحديث، بدأوا منذ فجر نهضتنا الحديثة يرسلون إليكم البعثات العلمية، ويطلبون منكم التعاون فى شتى المجالات. ٠

• الرد الاستعمارى على طلب "الحوار الحضارى":

لكن ماذا كان رد الغرب؟!، لقد كان ردا استعماريا غازيا ناهبا مشتتا شمل الدول والامارات العربية الاسلامية، وتعلم يا سيد جارودى كيف بدأ ذلك العصر الإستعمارى من دول أوربا الغربية لدول الشرق وماذا كانت أهدافه! وكم كانت شجاعتك الفكرية عظيمة فى هذا الكتاب حينما كشفت بنفسك عما كان مخفيا على باحثيكم ومفكريكم، وكذلك على باحثينا ومفكرينا من حسنى الظن والمتغربين، عما فعله الغربيون فى الحركات الاستعمارية بالدول المستعمرة.

وسأسوق لهم من كلامك بعض فقرات تصف ذلك؛ فلقد نشر الغربيون إبان استعمارهم ظاهرة الرق سواء فى أفريقيا أو فى



أمريكا، وبخصوص أفريقيا قبل استعمارها "لم يكن الرق أبدا طرازا من طراز الإنتاج فيها قبل وصول الأوربيين إليها.. ولم يكن ثمة قبل الإلتقاء بأوربا إلافارق طفيف في مستوى الثقافة، وكان التفجير الأساسى نتيجة تفجير الرأسمالية الإنتاج تفجيرا كميا[٤]". وبالنسبة لأمريكا "كان أول انفصام كبير قد حدث بعد إبادة هنود أمريكا، وقد شرع غزاة كبار طغاة بهدم حضارات عظيمة عريقة وذبح الشعوب كما فعل هرمان كورتز بالازتك فى المكسيك، وبدرو دى ازفيدو بالمايا، وبيزار فى الآند[٥]".

ويحكى جارودى القصص الدامية للإستعمار الأوربى وكيفية استقدام الأرقاء من افريقيا دون مراعاة لأى ظروف آدمية، وتلك الإبادة الجماعية التى تعرض لها منذئذ الأفارقة سواء فى طريقهم للأرض الجديدة أو فى تلك الأرض نفسها لمدة ثلاثة قرون كاملة.

وقد لخص مآسى كل ذلك بقوله "إن الرأسمالية الأوربية وقد أصبحت مركز منظومة اقتصادية عالمية، هى التى أعادت الرق إلى الوجود، وفرضته خلال ثلاثة قرون من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر. وعلى هذا النحو ولدت الثروات العظمى للمشاريع الرأسمالية فى الوحل وفى الدم[٦]"، وحتى حينما نادى الأوربيون من المفكرين الأحرار بإلغاء الرق، لم يلغ الرق لقناعة كاملة من الأوربيين بذلك – كما يتغنى هم ومن يتابعونهم من



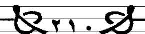
المفكرين والمؤرخين العرب من حسنى النية – بل إنه ألغى لأسباب اقتصادية بحتة.

وقد كشف جارودى عن الأسباب الحقيقية لإلغاء الرق بقوله "إن الرق لم يُلغ لأسباب أخلاقية فى الأزمنة الحديثة.. لقد ألغى لأسباب اقتصادية.. ففى الولايات المتحدة كان من الممكن عند الحاجة الاكتفاء بالقسر المباشر لتنفيذ الأعمال اليدوية لأن العبيد كانوا يلحقون الضرر بالأدوات وينظمون عمليات التخريب(٧)". أما فى أوربا فقد ألغى الرق "حينما ظهرت الثورة الصناعية وتناقص الريع الحاصل عن الرق شيئا بعد شىء. ونجم عن شروط العمل التقنية الجديدة ضرورة البحث عن حوافز أخرى غير الإكراه الجسدى وذلك لربط العامل بخوف اقتصادى من فقدان خبزه وخبز أسرته(٨)".

- **هدف الغرب : صيد البشر ونهب الثروات:**

والغريب فى ثنايا كل ذلك وبعده أن يعلن الأوربيون بتبجح واضح إبان عصر استعمارهم لبلدان العالم الأخرى إنهم إنما يحاولون إنهاء الرق فى العالم، وأنهم إنما يحاولون تمدين الافريقيين.. إلى أخر هذه الدعاوى المضللة!!.

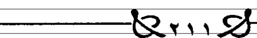
لقد كان الاستعمار الأوربى يستهدف دائما الاستيلاء على ثروات الدول الأخرى وتسخير كل ما فيها لخدمته وخدمة اقتصاده، وفى أحسن الأحوال كان الاستعمار يتم بحسب قول أحد ممثلى الدول



المستعمرة فى برلمان بلاده آنذاك "لخلق أسواق جديدة(٩)" لتصريف الصناعات الأوربية بأغلى الأسعار بعد أن سلبت موادها الخام من تلك البلاد المستعمرة!. وياليت الأمر فى الغرب الاستعمارى قد توقف عند حد النهب الاقتصادى وإفقار هذه البلاد المستعمرة!، فالأمر المخزى حقا هو المذابح التى ارتكبوها بحق المدنيين الأبرياء فى سبيل ذلك. ١

ولقد روى لنا جارودى بعض شهادات القواد العسكريين الميدانيين حول تلك المذابح التى يحكون عنها بفخر فى ذلك الوقت!. ويكفى الإشارة إلى ما رواه أحدهم ويدعى كونت دى هاريسون فى كتاب له بعنوان "صيد البشر(١٠)" عن حملات الإبادة التى كانوا يقومون بها ضد السكان المساكين فى الجزائر "ببرودة وعدم رحمه" وكيف كانوا "يبيعون آذانهم المقطوعة ويفترسون نساءهم" وكيف كانوا يحرقون قبائل بأكملها، وغير ذلك من فظائع يكاد لا يصدقها العقل(١١).

ولنتوقف عن الخوض فى تفاصيل تلك الفظائع التى ارتكبها المستعمرون الأوربيون لأننا نعلمها جيدا ولا تزال آثارها باقية فى أرض المغرب العربى والمشرق العربى على السواء. وإذا كان الوعى الأوربى ممثلا فى جارودى قد بدأ يزيح عنها الستار ستار النسيان ويذكر قومه بها، فنحن لم ننساها وإن كنا نحاول أن



نتناساها. إن ما حدث فى الماضى القريب قد تناسيناه رغم ارثه الطويل من آلام فى النفس لا تمحى، ومن أثار مدمرة على الإنسان العربى والشرقى لم يمحها الزمن بعد!.

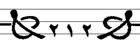
• **استحالة الحوار الحضارى مع الغرب وأسباب ذلك :**

ولعل السؤال الآن بعد كل هذا هو: أيمكن أن يكون هناك حوار حقيقى بيننا وبين ما يسمى خطأ الآن بالحضارة الغربية المعاصرة؟.

إن الإجابة على هذا السؤال صعبة وخطيرة، إذ لابد من أن نتساءل: على أى مستوى يكون هذا الحوار؛ هل على مستوى الفكر الحضارى النظرى أم على مستوى الواقع العملى المصلحى النفعى المرتبط بالمنافع المادية المتبادلة؟!

وإذا اعتبرنا أن المستويين متداخلان، وهما هكذا فعلا فى عصر اختلطت فيه المفاهيم وامتزج النظرى بالعملى امتزاجا لا انفصام فيه، فليس أصعب على نفس الإنسان الشرقى من أن يجيب – وهو يملك إرثا حضاريا عظيما وغنيا وهائلا – وهو فى أضعف حالاته أمام قوة الغرب وسطوته وعنفوان مصالحه وهيمنته!!.

إن قناعتى الشخصية أن هذا الحوار لم يحن وقته بعد، بل أكاد أقول إنه مستحيل فى ضوء المعطيات التى يقذفها الغرب فى وجهنا



كل يوم على الصعيد الواقعى العملى، وفى ضوء المعتقدات التى رسخت فى ذهن المفكر الغربى، مستحيل لأسباب كثيرة فى اعتقادى وأهم هذه الأسباب ما يلى:

أولاً : أن قيام الحوار بين الحضارات يفترض سلفا أن يكون لدى الجميع قناعة تامة بما أسميه "التكافؤ الحضارى" أى أن كل الحضارات الإنسانية المعاصرة سواء، وأن كل حضارة لديها بالفعل ما تعطيه للحضارات الأخرى من قيم تمتلكها وعلوم وفنون وآداب تبدعها، وأنه إذا امتاز شعب حضارة معينة بميزة نتيجة لظروف بيئية أو تاريخية معينة فإن شعوب الحضارات الأخرى لديها مميزات أخرى نتيجة لظروف بيئية وتاريخية مختلفة، كما أن الثروات الطبيعية التى يتمتع بها أبناء الحضارات والشعوب المختلفة إنما يمكن أن تصب جميعها فى خدمة البشرية كلها إذا ما خلصت النوايا وسادت المساواة الحقيقية والعدالة الحقة فى نظرة الجميع للجميع.

وفى ضوء ذلك أتساءل: هل يمكن أن تتوافر هذه القناعة لدى أبناء الحضارة الغربية (أو ما أسميه بالمدنية الغربية) المعاصرة؟!.

إن الاجابة على هذا التساؤل هى بالقطع بالنفى؛ فالناظر إلى تاريخ الحضارة الغربية فى أى عصر من عصورها يتأكد من أنها كانت دائما ولا زالت تنظر إلى أبناء الحضارات الأخرى نظرة استعلاء واحتقار؛ فمنذ الحضارة اليونانية ونظرة الإنسان الغربى

لإنسان الشرق هى هى لم تتغير: إنه ذلك "البربرى الذى لا يصلح إلا للرق والعبودية " وأنه " غير قادر على التحدى الحضارى" وأنه " لا يقدر على إنتاج الفكر الفلسفى او الإبداع العلمى" وأنه بشكل عام لايصلح إلا أداة تسيرها إرادة الغرب لتحقيق مصالحه التى كانت ولازالت – فى نظر الغربيين – هى دائما المصلحة العليا للإنسانية؛ فالإنسان الغربى هو الوحيد الذى يعرف أين المصلحة العليا للإنسانية، وهو الوحيد القادر على القيادة والريادة والإبداع.. الخ!! إن مهادنة الإنسان الغربى للإنسان الشرقى فى بعض فترات التاريخ لم تكن إلا للاستفادة من بعض انتصاراته الفكرية ومكتشفاته العلمية ونظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتطورة. إنها كانت دائما فى فترات التعلم والتلقى من حضارات الشرق سواء فى الزمن القديم أيام أن تعلموا الدرس الحضارى الأول على يد أبناء الحضارات الشرقية القديمة فى العصر اليونانى، أو فى عصر النهضة حينما تلقوا الدرس الحضارى الثانى على يد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية.

وأيا ما كان أمر المستقبل الذى لا أشك فى أنه سيحمل دروسا حضارية أخرى سيتعلمها الغربيون من الشرق، فإن نظرة الإنسان الغربى لم تتغير؛ فهو لم يعترف بتلك الدروس الحضارية التى تلقاها عن الآخرين على أساس مما أسميته الآن "التكافؤ الحضارى"، بل كان دائما يتناسى ذلك ويعيد النظر إلى ذاته بصورة متضخمة

مركزية متميزة.. إن الإنسان الغربى مريض بعبادة الذات، مريض بالنظر إلى نفسه دائما على أنه الإنسان "النموذج" وأنه "الفذ المتميز"، وإنسان هذه نظرته إلى ذاته حتى وهو فى أشد لحظات الضعف والتخلف الحضارى لا يمكنه أبدا أن يحسن الحوار مع غيره من منطلق "التكافؤ" خاصة وهو يعيش هذه الأيام أزهى انتصاراته، وينتشى كل يوم بمدى هيمنته وقوة سيطرته على الآخرين.

ثانياً : إنه من خلال كل ما عرضنا له من شهادات جارودى نفسه، ثبت له ولنا بالدليل القاطع أن الغرب لم يعد يمتلك الآن حضارة، بل هى مدنية بلهاء تقودها قوى الدمار والفتك والعنف لاقوى التفكير العقلى والمنطقى. إن كل الشواهد التى تأتينا من الغرب – باستثناء قلة قليلة من المفكرين المنصفين الواعين بأزمة حضارتهم – ومنذ عصر التوسع الاستعمارى الأوربى لا يلوح منها أى بادرة لإمكانية مثل هذا الحوار الحضارى!

إن الغربيين تركوا استعمار الأراضى، نعم! لكنهم لا يزالون فى غيهم الاستعمارى ماضون بوسائل وصور شتى لا حصر لها منها الاقتصادى ومنها الثقافى ومنها الاجتماعى والسياسى، ومنها الثقافى والاعلامى، وكلها وسائل تخريبية لا تكتفى بتخريب اقتصاديات ومدنيات الدول الأخرى، بل تسعى لافقارها وإفنائها. والحقيقة أنه لا يمنعهم من استكمال ابادة الشعوب الأخرى، إلا أنهم

وجدوا أن من مصلحتهم الإبقاء على تلك الشعوب البائسة (التى هى نحن) حتى يظل لديها - أى لدى أمة الغرب - من تستخدمهم لتحقيق مصالحها، حتى يظل لديها من تشفق عليهم ويظل لديها الإحساس بالتفوق المادى والتقنى، والشعور بالتفوق ضرورة عند الإنسان الغربى، إذ أن ذلك كما أسلفنا يمثل عقدة قديمة عقدة "التفوق والتميز".

ثالثاً : إن هذا الحوار الحضارى مستحيل لأنه فى كل الأوقات السابقة والتى لاحت فيها فرص الحوار كان الغربيون هم من ضيعوا هذه الفرص وإذا ما قيل لنا: دعكم من هذه الفرص المفقودة السابقة، ولنبدأ من جديد!

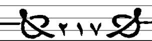
فمن أين يبدأ الحوار؟ هل من تأييد الغرب المطلق لأشر أجناس الأرض الذين تجمعوا فيما يسمى باسرائيل، وكل أهدافهم - كما تعلمون يا سيد جارودى - تخريبية توسعية!! لقد أراد الغرب التخلص من شرورهم والحاحهم ولم يجد لهم مأوى إلا زرعهم فى أرض عربية اسلامية!!

إن "الشر الأبيض" يا سيد جارودى لا يزال يمرح فى أرض العرب والمسلمين، وإن كنت ترى على السطح حوارا بين العرب واسرائيل، فإن مظلة هذا الحوار من أمريكا وروسيا وأوربا إنما تظلل فقط الجانب الإسرائيلى، ولا ينوى هؤلاء تحت أى ظروف

الضغط على صنيعتهم "اسرائيل"، لا لشيء إلا لأنها لا تزال تحقق مصالحهم وأهدافهم المنظورة وغير المنظورة فى قلب العالم العربى والإسلامى.

إن "الشر الأبيض" يا سيد جارودى لا يزال ومنذ شهور عديدة يسفك دم المسلمين فى يوغسلافيا السابقة لا لشىء إلا لأنهم قالوا "إنا مسلمون"! وها هم يُغتصب نساؤهم ويذبحون كالحيوانات ويشرد من بقى منهم تحت سمع وبصر قادة "الشر الأبيض"، ولم تتحرك بعد الجيوش كما تحركت من قبل فى حرب الخليج لمصالح معلومة لاتخفى على أحد!!

ها نحن نرى أن كل مقومات "امبراطورية الشر الأبيض" لاتزال قائمة وشاهرة كل أسلحتها الخفية والعلنية ضد شعوب العالم الأخرى، تأمر هذا وتنهى ذاك!! تنتهك حرمة هذا وتقف إلى جوار ذاك!! إنها تعيث فى الأرض فسادا ولا أحد منكم يصرخ أو حتى يكتب طالبا وقف هذا الشر الغربى الزاحف فى عالم آخر القرن العشرين. وحتى إن كتبتم، فهل يمكن لتلك الآلة العسكرية المخابراتية البراجماتية المادية الرهيبة والتى تتحكم فى العالم وفق معاييرها العنصرية الآثمة الشريرة، هل كانت تلك الآلة التى تذكرنى دائما بلفياثان هوبز[١٢] ستستمع إلى ما تقولون أو تلتفت لما تكتبون؟!



إن قوة "الشر الأبيض" فى عالم اليوم قد تحركت منذ زمن وهى لا تزال إلى اليوم تتحرك بفعل شيطان آلى ميكانيكى لا يمكن أن يوقفه فكر أو حوار. إن وقف هذا "الشر الأبيض" لم يعد يصلح له الحوار لأنه لا يقبل إلا الحوار مع نفسه، والهدف واضح لديه! إنه إذلال الآخرين ومحو حضاراتهم وكياناتهم والاستيلاء على ثرواتهم، وإفقادهم الثقة فى أنفسهم منذ الآن وإلى الأبد!!

ان وقف هذا "الشر الأبيض" لم يعد له من سبيل إلا إعلان العصيان المدنى العالمى عليه، فهل تفعلون؟!.

أما نحن أبناء الشرق، فليس أمامنا إلا العودة إلى الذات واستلهامها بعد الوعى بأهداف "امبراطورية الشر الأبيض"، العودة إلى الاستمساك بكل قيمنا الأصيلة وبديننا الحنيف وبكل ما يدعو إليه من قوة وترابط وتراحم وحب وتعاون واعمال فكر وإبداع، العودة إلى الامساك بعناصر حضارتنا الإيجابية التى افتقدناها فى غمرة التباهى بالفرنجة والتغريب! ولعل العودة إلى الذات تكون بداية وأداة للتغيير نحو الأفضل والأقوم والأقوى بعون من الله وبمساندة إرادته التى ليس فوقها إرادة.

الهــوامش

هــوامش [١]

(١) روجه غارودى: حوار الحضارات، الترجمة العربية للدكتور عادل العوا، نشرة منشورات عويدات، بيروت وباريس، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م، ص١٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٧.

(٣) نفسه، ص٤٥.

(٤) نفسه، ص٤٧.

(٥) نفسه، ص٤٨.

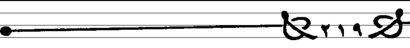
(٦) نفسه، ص١٠٣.

(٧) نفسه، ص٩٧.

(٨) انظر: نفس المصدر، ص١٠٣.

(٩) نفسه.

(١٠) نفسه، ص١٠٤، ١٠٥.



(١١) نفسه، ص١٠٦، ١٠٧.

ويمكن للاستزادة فى هذا الصدد الرجوع إلى: كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، الفصل العاشر عن ابن خلدون، والفصل الحادى عشر عن مكيافيللى، وهو منشور بدار الكتاب الجامعى بالعين بدولة الامارات العربية المتحدة، ط٢، ١٩٩٠م.

(١٢) جارودى: نفس المصدر السابق، ص١١١.

(١٣) نفسه.

(١٤) انظر: نفس المصدر: ص١١٢-١١٣.

هـــــوامش [٢]

(١) روجه غارودى: حوار الحضارات، الترجمة العربية للدكتور عادل العوا، منشورات عويدات ببيروت، ١٩٨٦م، ص٤٢.

(٢) هذه الفقرات من نفس المصدر: ص٤٢، ٤٣.

(٣) نفسه، ص٤٤.

(٤) انظر كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، نشر دار الكتاب الجامعى بالعين، دولة الإمارات العربية المتحدة، الفصل الخامس عشر، ص٢٢٣ وما بعدها.

(٥) انظر: نفس المصدر السابق.

(٦) جارودى: المصدر السابق، ص٩٣.

(٧) نفسه.

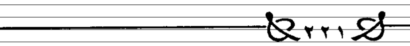
ويجدر الإشارة هنا إلى أن فلاسفة غربيين عديدين من أمثال اشبنجلر واشفيتسر وتوينبى قد نبهوا إلى تلك الحقائق وأدركوا انهيار الحضارة الغربية إن هى لم تسارع وتصحح مسارها بالاستفادة من الحضارات الأخرى خاصة الحضارات التى تقوم على أساس دينى وأخلاقى.

راجع ما كتبناه عن أراء اشبنجلر وتوينبى فى كتابنا: فلاسفة أيقظوا العالم، فى الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر.

كما يمكن الرجوع إلى كتابنا: فلسفة التاريخ معناها ومذاهبها للاستزادة من آرائهما وأراء اشفيتسر، نشر وكالة زووم برس للإعلام، القاهرة، ١٩٩٢م.

والجدير بالذكر أن كتاب اشفيتسر الرئيسى فى هذا الموضوع وهو بعنوان "فلسفة الحضارة" قد نقله د. عبد الرحمن بدوى إلى اللغة العربية، نشر وكالة المطبوعات بالكويت.

(٨) جارودى: نفس المصدر، ص٩٧.



(٩) نفسه، ص٩٨.

(١٠) نفسه.

(١١) نفسه، ص٩٩.

(١٢) نفسه، ص١٠١.

(١٣) نفسه.

(١٤) نفسه، ص١٠٨.

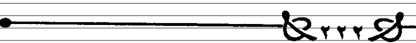
(١٥) هذا القول للمهاتما غاندى منقول عن: جارودى: نفس المصدر السابق، ص١٢٣.

(١٦) نفس المصدر، ص١٢٥.

هــــوامش [٣]

(١) انظر على سبيل المثال كتابه الهام: ما يَعدُ به الإسلام، ترجمة إلى العربية قصى أتاسي وميشيل واكيم، صدر عن درا الوثبة، سوريا ــــ دمشق، ط(٢) ١٩٨٣م.

(٢) محمد مزالى: نحو مستقبل أفضل أساسه "حوار الحضارات"، منشورة كملحق فى ختام نفس الترجمة العربية لكتاب جارودى: حوار الحضارات، ص٢٨٣.



(٣) محمد مزالى: نفس المرجع، ص٢٨٣.

(٤) جارودى: حوار الحضارات: ص٥١.

(٥) نفسه.

(٦) نفسه، ص٥٦.

(٧) نفسه، ص٦٠.

(٨) نفسه، ص٦١.

(٩) نفسه، ص٦٤.

(١٠) يذكرنى عنوان هذا الكتاب وما يرويه جارودى بتعليق لابد منه عن أن النظرة الغربية لشعوب الأمم الأخرى لم تتغير منذ فجر الحضارة الغربية؛ فقد أباح كبير فلاسفتها أرسطو الحرب فى حالة واحدة فقط هى حالة نقص الأرقاء فى الدولة. إذ أنه كان يعتبر أن الرقيق عنصر أساسى من عناصر الأسرة، ولما كان الأرقاء بالضرورة من الأجانب غير المواطنين (بالتعبير الأثينى اليونانى القديم). فقد أباح أرسطو أن تشن الدولة اليونانية الحرب على جيرانها من البرابرة (أى الأجانب) بغرض "اصطياد الأرقاء" بنص تعبير أرسطو. [انظر: الترجمة العربية التى قام بها أحمد لطفى السيد لكتاب: السياسة لأرسطو، الفصل الخاص بالرق وعناصر الأسرة، نشر الكتاب بالهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

(١١) انظر: بعض تفاصيل هذه الفظائع فى نفس المصدر لجارودى، ص٧١ وما بعدها.

(١٢) الليفياثان عند الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز يعنى الوحش الاسطورى الذى يمثل رمز السطوة والقوة ويحكم بمقتضى أنانيته المفرطة، إنه رمز للحاكم القوى الذى يقهر إرادة كل من تسول له نفسه أن يخالفه فى الرأى.

[انظر: Hobbes(T.): Leviathan, Penguin Books, U. S. A., 1977.]



(١٣)

العرب..
وطريق المواجهة الشاملة
للتخلف العلمى والتكنولوجى(*)

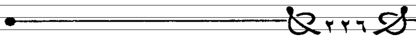


(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ١٩/٧/١٩٩٥م.

العرب..
وطريق المواجهة الشاملة
للتخلف العلمى والتكنولوجى

لا يزال العقل العربى رغم مرور سنوات وسنوات من مناقشة قضايا العلم والتكنولوجيا فى حالة من الاضطراب والتشوش نتيجة الحيرة والتردد حول: هل نسير فى طريق إنتاج العلم والتكنولوجيا محليا أم نكتفى باستيراد التكنولوجبا والاستمتاع بالنتائج دون الاهتمام بالمقدمات أى دون الاهتمام بصناعة العلم وتطبيقاته التكنولوجية؟!

والحقيقة أن الجميع فى هذه المناقشات يدرك أننا فى حالة تخلف، بل ويدرك الجميع أيضا أسباب التخلف وإن كانوا يركزون دائما على الأسباب الجزئية للتخلف وعلى تشخيص جزئى لحالة التخلف التى نعانيها. وفى هذا الاطار أود أن نعى حقيقة هامة نبه إليها البعض وغابت عن الكثيرين وهى: "أن مسألة تبنى العلوم والتكنولوجيا بصورتهما الغربية من قبل المجتمع العربى فى العصر الحاضر دون أن تحدث تحولات فكرية واقتصادية وسياسية واجتماعية موازية أمر يسبب الكثير من الاضطراب والاحباط للعقلية العربية ويشعرها دائما بالعجز المستمر عن امكانية التقدم واللحاق بالركب الحضارى المعاصر".



إن إدراكنا لهذه الحقيقة والوعى بها إذا ما رافقه الرغبة الصادقة فى الفعل وامتلاك القدرة على التنفيذ يعنى أنه يمكننا مواجهة هذه المشكلة التى تثقل كاهل الإنسان العربى وتشعره بالعجز والتخلف!! وهذه المواجهة يبدأ طريقها الشاق من محطات ثلاث هى:

أولاً: تسييس عملية تبنى إدخال التكنولوجيا إلى المجتمع العربى، وهذا يعنى فى رأى د. طيب تيزينى، ضرورة وضع التكنولوجيا فى سياق الاحتياجات الداخلية للمجتمع العربى بحيث تنبثق هذه التكنولوجيا وتعبر عن قوانين تطور هذا المجتمع بحيث يقوده "الموقف إلى إحداث تطابق نسبى بين البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من طرف وما يترتب عليها من وضعيات فكرية وأخلاقية وعملية وسلوكية من طرف آخر". إن ما نعنيه هنا ببساطة هو ضرورة ألا تنفصل عملية ادخال التكنولوجيا إلى العالم العربى عن السياسة التى تتبناها البلدان العربية بمعنى أن تتوحد سياسات الدول العربية إزاء هذه القضية بشرط أن تكون هذه السياسة متكاملة؛ فيتم تمهيد الطريق لنقل هذه التكنولوجيا إلى الإنسان العربى بتثقيفه وتأهيله لتطبيقها وتقبلها والتعامل معها بشكل طبيعى، ويتم كذلك توفير كافة الامكانات المطلوبة للعلماء المتخصصين حتى تنمو القدرة الذاتية للعالم العربى فلا يتوقف ابداعه عند حد فهم التكنولوجيا

الغربية واستيعابها، بل يتجاوز ذلك إلى المنافسة والتفوق من واقع إدراكه لمشكلات بيئته التى تتطلب تكنولوجيا من نوع معين.

ثانياً: العمل وفقا لحقيقة هامة هى: أن التكنولوجيا فى أى مجتمع لا تنفصل عن الدراسات العلمية النظرية القائمة فيه وعن القدرات التنبؤية والإبداعية التى يمتلكها علماؤه وعلى ذلك فإن من الخطأ أن نتصور أن نجاحنا فى استنبات التكنولوجيا المعاصرة وامتلاكها بالمعنى العميق الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة يعنى أننا حققنا التقدم المنشود! فالتقدم المنشود ينبغى أن يقوم على تطوير العلم النظرى نفسه وتشجيع المتخصصين فيه وتوفير كافة الامكانيات المادية وكافة الأجهزة التى تحقق لهم الاستقرار والإبداع ومواصلة الكشوف النظرية. ويأتى بعد ذلك الاهتمام بمجالات تطبيق هذه البحوث النظرية لهؤلاء العلماء سواء قاموا هم بتطبيقها والاستفادة منها علمياً أم قام غيرهم بذلك.

إن أكبر خطأ نرتكبه فى عالمنا العربى المعاصر هو أن نركز على دراسة التكنولوجيا وتطبيقاتها ونواتجها دون أن يتواكب مع ذلك أو يسبقه التركيز على التقدم العلمى على المستوى النظرى. وأعتقد أن سببا رئيسيا من أسباب تخلفنا عن الركب الحضارى فى الميدان التكنولوجى هو أننا نكتفى فى معظم الأحيان باستيراد التكنولوجيا ونحاول استيعاب تطبيقاتها المختلفة دون الاهتمام بمعرفة ما وراء

هذه التطبيقات التكنولوجية! وبالطبع فإن غياب المعرفة بالنظرية العلمية يجعل من الصعب جدا على أى دارس أو باحث أو ممارس أن يفهم تطبيقاتها ونواتجها التكنولوجية بصورة جيدة.

إن العلم والتكنولوجيا الآن قد أصبحا حليفين وشهدا تداخلا واضحا زالت معه الحواجز الزمنية التى كانت تفصل بينهما حتى القرن الماضى. ومن ثم فإن علينا أن ندرك خطورة ما ينادى به البعض الآن من أننا نحتاج للتطبيقات التكنولوجية وللماهرين فيها فقط؛ فالمهارة التكنولوجية لا تنفصل عن العلم النظرى فى عالم اليوم، كما أنهما أصبحا من اختصاص العلماء المؤهلين تأهيلا عاليا فى الكليات العلمية ذات الامكانيات البحثية المتطورة.

ثالثاً : إن إدراكنا لأهمية العاملين السابقين والعمل بموجبهما يقتضى منا ضرورة رفض تلك الدعوة التى تروج لها بعض الدوائر الدعائية الغربية والصهيونية حول إمكانية التكامل بين القدرات العربية البشرية والمادية وبين العبقرية العلمية الصهيونية المدعمة بالتكنولوجيا الأمريكية المتقدمة لخلق حضارة عربية جديدة. وهى دعوة ربما يجرى طرحها الآن على مائدة المفاوضات متعددة الأطراف التى تجرى الآن بين العرب واسرائيل وبمشاركة بعض دول أوربا وأسيا!! إن هذه الدعوة – التى تجد للأسف الشديد من يؤيدها من المثقفين والسياسيين العرب – تروج لمعادلة خطيرة هى:

قدرات عربية نفطية مالية وبشرية+ عبقرية يهودية صهيونية + تكنولوجيا أمريكية= حضارة عربية (شرق أوسطية) من طراز جديد.

إن من يؤيدون هذه المعادلة الخطيرة يتصورون خطأ أنها يمكن أن تحل مشكلة العلاقة بين "التخلف العربى" و "التقدم الغربى" فى العصر الحالى! والواقع أنها معادلة تكرس هذا التخلف وتحول الإنسان العربى إلى ممول أو عامل لخدمة الهيمنة الغربية التى تعد اسرائيل أداتها ورأس حربتها فى المنطقة العربية. إن مكمن الخطأ فى الترويج لهذه المعادلة من قبل السياسيين أو بعض المفكرين العرب هو العجز عن إدراك أن التخلف العربى مسألة لا يمكن تداركها مطلقا عن طريق الاعتماد على الغير لأن الاعتماد على الغير سواء كان على أمريكا أو أوربا أو على حليفتهما اسرائيل سيرسخ فينا التبعية ويزيد من تخلفنا، فضلا عن أنه سيزيد من اتساع الفارق بين العلم والتكنولوجيا العربيين، وبين نظيرهما فى العالم الغربى واسرائيل. إن التبعية لا يمكن أن تولد تحرراً، وإن استمرار الإستيراد لايمكن أن يشجع أو يولد إنتاجاً مبدعاً فى أى مجال من المجالات! إن الطريق الذى نراه ضرورياً للتخلص من التبعية الإستيرادية وبالتالى من التخلف العلمى والتكنولوجى إنما يكون فى وضع خطة مستقلة للتطور العلمى والتكنولوجى نعتمد فيها على القدرات العربية إلى أقصى حد ممكن. ويمكن فى هذه الحالة

الاستفادة من خبرات بلاد استطاعت فعلا تحقيق التقدم عن طريق تطوير القدرات الذاتية واستنفار كل امكانياتها.

وأمامنا فى هذا المجال نموذجان هما: اليابان والصين. أما اليابان فقد استطاعت - فى مجتمع كان ولا يزال من المجتمعات ذات الثقافة السابقة على الثقافة العلمية كمجتمعاتنا العربية - أن تكثف جهودها من أجل تحقيق هدفها فى النمو الاقتصادى السريع فاختارت أن تسخر العلم الصناعى والتكنولوجيا فى مجال الصناعات الإلكترونية التى تكمن فيها أوفر فرص النجاح فى ظل ظروف اليابان المحلية السائدة وهى كثافة السكان وقلة الموارد.

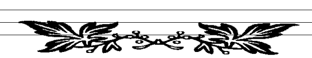
أما النموذج الصينى، فقد أزال الجوانب غير العلمية القديمة فى الثقافة الصينية، وركز على نشر الثقافة العلمية مما جعل العلم ينمو بسرعة، وأدى ذلك التركيز على خلق ثقافة علمية جماهيرية اعتمد فيه الصينيون على الذات محاولين حل المشكلات التى تخص الصين وحدها. وقد أدى ذلك فى النهاية إلى خلق تكنولوجيا صينية مستقلة تركز على صنع منتجات رخيصة الثمن تتضافر فيها تقنيات إنتاج متناسقة تجمع بين التقليدى والحديث.

وبالطبع فإننا لا نهدف من وراء الدعوة إلى الاستفادة من هذين النموذجين أن نحاكى أحدهما وإنما أردنا أن نؤكد على أن تحديد الهدف بدقة ومعرفة طريق تحقيق هذا الهدف بالاعتماد على

الذات ودون تقليد لأحد كان وراء هذا التقدم الهائل الذى حققته اليابان وتفوقت فيه على أمريكا وعلى كل الدول الأوربية، بل وبدأت تهددهما فى عقر دارهما. وكذلك الحال بالنسبة للنموذج الصينى الذى ينمو ويتقدم باطراد ملحوظ ويحقق التقدم والتفوق الذى سيكفل للعملاق الصينى فى النهاية أن يخرج من "قمقمه" ويهدد الغرب.

إن الاعتماد على الذات والتقليل من الاعتماد على الغير فى ضوء ما رأيناه من تجارب الأمم الأخرى، هو الطريق الأمثل للخروج من أزمة التخلف العلمى والتكنولوجى الذى نعانيه رغم أنه لا ينقصنا الإمكانيات المادية والبحثية كما لا ينقصنا وجود الكفاءات العلمية والكوادر المدربة على صنع العلم واستنبات تكنولوجيا خاصة. إن الثقة بالنفس وبالامكانات العربية ضرورة ملحة فى هذه المواجهة الشاملة لكل أسباب التخلف.

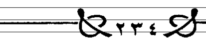
(١٤)
نحو مشروع عربى
لصناعة العلم وإنتاج التكنولوجيا(*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ٢٦/٧/١٩٩٥م.

نحو مشروع عربى..
لصناعة العلم وإنتاج التكنولوجيا

لاشك أن التقدم العلمى كان ولا يزال علامة بارزة من علامات التقدم الحضارى فى كل العصور ولدى كل الحضارات. ومن الخطأ البيّن أن نقع أسرى للمقولة التى يرددها ويروج لها بعض المفكرين الغربيين وبعض المتغربين من مفكرينا، وهى "أن العلم صناعة غربية"! فالحقيقة التى ينبغى ألا تغيب عن بالنا لحظة هى أننا استطعنا ابداع العلم وإنتاج التكنولوجيا فى الماضى البعيد منذ ظهرت الحضارات الأولى التى علمت البشرية كل شىء على ضفاف النيل ووادى الرافدين، كما أبدعناه وشاركنا فى تطويره ابان العصر الزاهر للحضارة الإسلامية التى لولاها لتجمد العلم وتوقف نهر الإبداع، وينبغى أن ندرك أيضا أن هذا النهر الإبداعى للعرب وللمسلمين لم يتوقف تماما منذ هذا التاريخ وإن أخذ فى التضاؤل شيئا فشيئا بفعل عوامل خارجية وداخلية عديدة، لكن لم يحدث قط أن أصيبت الأمة العربية أو الاسلامية بالعقم العلمى التام فى أى عصر أو فى أى قرن أو فى أى عقد من العقود التى مرت علينا فى القرون الماضية.



وإذا ما أدركنا هذه الحقيقة جيدا، فإن الثقة بالنفس وبإمكانية المشاركة فى الإبداع العلمى والتكنولوجى العالمى ستزداد ويجف منبع الإحباط والتردى الذى تحاول كل الأجهزة الغربية ومستشاريها بثه فينا!! وإذا ما تولدت لدينا هذه الثقة بالنفس لأمكننا أن نلتف حول خطة قومية عربية شاملة لتحقيق التقدم العلمى والتكنولوجى. ومن جانبى ومن واقع الدراسات المستفيضة التى قام بها المختصون العرب أرى أن هذا المشروع الحضارى العربى لصناعة هذا التقدم ينبغى أن يبدأ من الأسس التالية:

أولاً : وضع استراتيجية عربية موحدة تتضافر فيها الجهود السياسية والإمكانيات الاقتصادية العربية لتحقيق أهداف محددة. وبدون هذه الاستراتيجية الموحدة لن تنجح أى دولة بمفردها فى تحقيق شيء له قيمة فى هذا المجال، وتجدر الإشارة إلى أن الجامعة العربية قامت ولا تزال تقوم بجهود هامة فى هذا الاتجاه ويمكن تطوير هذه الجهود لوضع هذه الاستراتيجية والالتزام بها من كل الدول العربية.

ثانياً : فى إطار هذه الاستراتيجية الموحدة يجب إنشاء مراكز موحدة متعددة الجوانب والتخصصات للبحث العلمى وذلك بهدف خلق كوادر علمية مدربة على أعلى مستوى فى الوطن

العربى تقوم بصناعة العلم والتكنولوجيا وفق الامكانيات الذاتية العربية وبالمواد الخام المحلية وحسب الاحتياجات الفعلية للبلدان العربية على أن يشرف على هذه المراكز ويقوم بتدريب كوادرها العلماء العرب سواء من العقول العربية المهاجرة أو من العلماء الموجودين على أرض الوطن وهم كثيرون وينتظرون هذه الفرصة التى تتضافر فيها كافة الجهود وتوفر لها كل الامكانيات بفارغ الصبر. وبالطبع فإن هذا لا يقلل من شأن مراكز البحث العلمى المنتشرة فى مختلف الدول العربية خاصة فى مصر والأردن والعراق وبلاد المغرب العربى، لكن إمكانيات هذه الدول وحدها لا تكفى فإن كان لديها العقول العلمية الماهرة فليس لديها الامكانيات المادية أو المواد الخام الكافية! وهكذا فإن التكامل العربى فى هذا المجال ضرورى بحيث تكون هذه المراكز البحثية المتخصصة تابعة مباشرة للجامعة العربية ومدعمة باعتمادات مالية غير محدودة وقادرة على خلق الاستقرار للعلماء المحليين واستجلاب العلماء المهاجرين بالدول الاوربية وأمريكا واستراليا.



ثالثاً : إنشاء المراكز المتخصصة للتعريب والترجمة العلمية فى كل فروع العلم وخاصة العلوم الطبيعية والرياضية. وقد يقول قائل: لماذا التركيز على تعريب العلوم الطبيعية والرياضية دون العلوم الإنسانية!! وله أقول: إن العلوم الإنسانية قد قطع فيها المترجمون العرب شوطا طويلا، فضلا عن أن ما نحتاجه الآن من علماء الإنسانيات هو جهدهم الإبداعى الذى يُنظِّرون من خلاله واقعنا المعاش بدلا من أن يطبقوا فى دراساتهم مقولات غربية جاهزة تُفقد دراساتهم للواقع المحلى أى قيمة! وعلى كل حال، فإن ما نطلبه ليس التوقف التام عن الترجمة فى العلوم الإنسانية، وإنما إعادة التوازن المفقود فى مسألة التعريب لأنه فى الوقت الذى نجد فيه كما هائلا من المترجمات فى العلوم الإنسانية، نجد فى المقابل فقرا واضحا فى المترجمات العلمية! وليس أدل على ذلك الفقر أكثر من أننا لا نزال نعتمد فى التدريس فى الكليات العلمية على المؤلفات الغربية بلغاتها الأصلية.. وهذا أمر يدعو إلى الأسف الشديد!! فمن الضرورى إذا أردنا خلق بيئة مواتية للثقافة العلمية – التكنولوجية أن نسارع إلى التوسع فى ترجمة هذه المؤلفات إلى اللغة العربية. ولا مجال هنا لسرد حجج أنصار الإبقاء على النظام الحالى فهى فى

اعتقادى حجج واهية أقل ما ترسخه فى أذهان أصحابها وفى تلاميذهم الإحساس المرير بالدونية وبالعجز! ان اللغة العربية أثبتت على مر العصور أنها لغة معطاءة متجددة، استطاعت فى الماضى أن تستوعب علوم اليونان والروم والفرس وأن تصبح اللغة الأساسية للعلم طوال العصور الوسطى.

وبالطبع فإنها تستطيع بفضل جهود أبنائها أن تستوعب العلوم المعاصرة. لقد استوعبت لغات أخرى كثيرة هذه العلوم وطورتها حسب مصطلحها الخاص مثل اللغة اليابانية والروسية والسويدية وغيرها، واللغة العربية ليست أقل أهمية أو أقل مرونة من هذه اللغات!! ان تعريب العلوم فى اعتقادى يمثل قضية من القضايا المصيرية فى موضوعنا هذا لأنه سبيلنا الوحيد إلى تملك القدرة العلمية وهو السبيل الوحيد إلى خلق المناخ الملائم الذى يستدعى مشاركة المجتمع كله فى التقدم العلمى المنشود؛ فهناك الفنيون والعمال والاداريون والمنظمون الذين يسهمون فى تكوين هذه القدرة العلمية والذين عليهم أن يستوعبوها فى لغتهم الأصلية، وكذلك هناك المستهلكون الذين عليهم هم أيضا أن يفهموا وأن يستوعبوا كل ما يستخدمونه من سلع وعقاقير وآلات حديثة متنوعة.. إلخ.



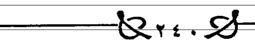
رابعاً : إعادة العقول العلمية العربية المهاجرة ذات السمعة العلمية إلى وطنها العربى وأعرف أن كثيرين منهم يرغبون فى ذلك لكنهم يخشون البيروقراطية والروتين الحكومى وكثرة العقبات التى يمكن أن تعوق استكمال أبحاثهم وتطويرها ومن ثم تعوق تقديم خبراتهم وخدماتهم إلى مجتمعهم! إن عودة هؤلاء العلماء ضرورية لأسباب عديدة منها؛ ما يتمتعون به من خبرات علمية واسعة اكتسبوها عبر احتكاكهم المباشر بمراكز البحث العلمى المتقدمة فى الغرب، وما يمكن أن يمثلوه من قدوة للعلماء العرب الشبان من حيث خبرتهم فى الهجرة وفى البحث العلمى. كما أن عودتهم أمر ضرورى ليحتلوا مراكز القيادة والصدارة فى الجامعات والمراكز البحثية العربية بدلا من اعتماد هذه الجامعات والمراكز فى كثير من البلدان العربية والإسلامية على القيادات غير العربية مع ما فى ذلك من خطر؛ فهذه القيادات غير العربية تفتقر فى معظم الأحيان إلى الإخلاص المطلوب والحماس اللازم والقدرات الضرورية، فضلا عن أنهم قد يندسون لأغراض تجسيسة أو سياسية بهدف تقييد عملية التقدم العلمى والتكنولوجى والتحكم فى مسارها، وتبديد الثروات العربية فى مشاريع براقة ليس لها من المردود

الحقيقى إلا ما يتوافق مع مصلحتهم ومصلحة دولهم فقط على حد تعبير انطوان زحلان.

خامساً : ضرورة التركيز على التنشئة والتربية العلمية للشباب العربى؛ إذ أن إنشاء المؤسسات العلمية المختلفة لن يكون له قيمة كبيرة إن لم تتوافر دائما الظروف الموضوعية لاستمرار هذه المراكز فضلا عن توافر الإقبال من الشباب العربى على التخصصات العلمية وتحفزهم للإبداع فى هذه التخصصات الصعبة. ولن يكون هذا الإقبال ممكنا إلا إذا ركزنا على التربية العلمية فى المدارس والجامعات العربية إلى جانب التركيز على التربية الدينية والأخلاقية والثقافية لهؤلاء الشباب.

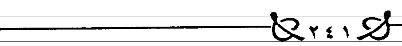
إن النظام التربوى العربى ينبغى أن يتلاءم ويتوافق مع الاستراتيجية التى نسعى لاستنباتها داخل العالم العربى للتقدم العلمى والتكنولوجى. ومن ثم ينبغى التركيز على تنمية القدرات العلمية لطلاب المدارس والجامعات ويمكننا ذلك بأكثر من صورة منها على سبيل المثال:

١ – إدخـــال مقرر علمى إجبارى فى كل البلدان العربية على كل الطـــلاب يدرســـونه إمـــا فى السنة النهائية من دراستهم فى



المدارس الثانوية أو فى السنة الأولى من دراستهم الجامعية، عـــلى أن يكون هذا المقرر موحدا وأن تعد مفرداته وأساليب تدريســـه وتـــتولى الإشـــراف عليه جهة محايدة من الجهات العـــلمية التابعة للجامعة العربية. ويهدف هذا المقرر إلى بث الروح العلمية والتفكير العلمى المنهجى لدى الطالب العربى. إن اكســـاب الشـــباب العـــربى حب البحث العلمى ومعرفة مهاراتـــه المختـــلفة وكيفيـــة اســـتخدامها فى حياته العلمية والخاصـــة مسألة ضرورية وحيوية من شأنها أن توفر ولو بشـــكل جـــزئى الوعى الجماعى لدى الشباب العربى بأهمية العـــلم والبحث العلمى بل وأهمية الإبداع العلمى وضرورته الوطنية.

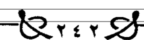
٢- وإذا أضفنا إلى ذلك الإكثار من إصدار المجلات التى تنشر الثقافة العلمية على مستوى الوطن العربى عبر طباعة أنيقة فاخرة وبلغة بسيطة وبأسعار رخيصة فى متناول أى شاب عربى وأضفنا أيضا الإكثار من بث البرامج العلمية واستضافة كبار العلماء فى ندوات إذاعية وتليفزيونية محببة مع التركيز على التغطية الإعلامية المنظمة لكل الأنشطة العلمية والبحثية، لاكتمل الوعى الجماعى بأهمية العلم



وبضرورة البحث العلمى فى كل الميادين لدى الشباب العربى فضلا عن شيوخ المجتمع من غير المتعلمين، ولتوفرت بذلك بعض الظروف الموضوعية الضرورية المنشودة لنمو العطاء العلمى وزيادة القدرات الإبداعية فى ميدان العلم.

إن الاتفاق على تنفيذ هذه الخطة القومية ليس مستحيلا. وليس مستحيلا بعد ذلك أن نتحول إلى الإبداع الذاتى للعلم والتكنولوجيا سعيا وراء تحقيق نمط جديد للحياة على أرضنا العربية، نمط لا يكون صورة باهتة ممسوخة لنموذج غريب علينا وعلى بيئتنا وواقعنا!!

إن تحقيق هذا النمط الجديد للحياة على الأرض العربية يتطلب توفير الجو الفكرى والمناخ السياسى الملائمين من خلال ما أشرنا إليه فيما سبق. وجوهر المطلوب هنا هو إتاحة الحرية الفكرية والحرية السياسية للجميع حتى تتوافر لديهم الدافعية ليتحولوا من متلقين إلى مشاركين، ومن ناقلين إلى مبدعين.



(١٥)

مشكلة الأصالة والمعاصرة
من التناحر بين الفرق
إلى صياغة فلسفة عربية معاصرة [*]



[*] تحت النشر بمجلة "المنتدى" الإماراتية بدبى.

مشكلة الأصالة والمعاصرة

من التناحر بين الفرق إلى صياغة فلسفة عربية معاصرة

إن حياتنا الفكرية منذ أوائل القرن الماضى قد تأثرت تأثراً بعيد المدى بذلك الصدام الفكرى أو بالأحرى اللقاء الحضارى الذى تم بيننا وبين الحضارة الغربية إثر الغزو الاستعمارى لبلداننا العربية. وقد أصبح أحد هموم الإنسان العربى منذ اتصلت الأواصر بيننا وبين الغرب الحديث هو كيف يمكنه التوفيق بين تلك العلوم الحديثة وذلك التقدم الهائل الذى أنتجه الغربيون وبين تراثنا الفكرى الذى يكن له كل التقدير والاحترام ويعتبره جوهر شخصيته وحصنه الحصين الذى يحتمى به؟!

• ثلاث فرق ومواقف متباينة :

ولقد شعر بهذا الهم أول ما شعر النخبة المثقفة من أبناء الأمة العربية والإسلامية، فوجدوا أنفسهم فى صراع فكرى عصف بهم فانقسموا إلى ثلاث فرق؛ كل فريق يتخذ موقفا مختلفا عن الفريقين الآخرين؛ فأول هذه الفرق آثر أن يتحصن فى التراث ويحتمى به ويتخذ منه سلاحاً أيديولوجيا يواجه به التحدى الغربى ممثلاً فى علومه وفلسفاته المتقدمة. ورأى ثانى هذه الفرق نقيض ما رآه أنصار الموقف السابق حيث وجد هذا الفريق أن الأفضل أن ننفصل عن تراثنا الفكرى الماضى وأن ننشغل فقط بحضارة عصرنا ومنجزاته العلمية فنقبل على هضم هذا الفكر الجديد ونعرف أدواته ومناهجه

ونظرياته فنكون بذلك مشاركين فى حضارة عصرنا غير عابئين بما كان فى ماضينا الفكرى لأن الماضى مضى وانتهى ولم يعد صالحا لنواجه به ما فى العصر الحالى من تقدم فكرى وعلمى وتقنى فى مختلف المجالات.

أما الفريق الثالث فقد توسط بين الفريقين السابقين وحد من مغالاتهما معاً ورفض تطرفهما حيث وجد هذا الفريق أن الفريقين السابقين قد اختارا الموقف الأسهل، فما أيسر أن نعبر عصور التاريخ وأن نعود إلى الوراء وأن نعيد إحياء الماضى بحذافيره ونقلد ما كان فيه فنصبح نسخاً مما كان فى ذلك الزمان البعيد. وما أيسر أن نتخذ موقف الفريق الثانى فنعبر البحر الأبيض ونتجه إلى أوربا ونتعلم إحدى لغاتها الهامة وننهل من علوم الأوروبيين ونقلدهم فى عاداتهم الاجتماعية وفى أزيائهم ولغاتهم وحفلاتهم فنكون نسخاً مكررة مما هو كائن فى أوربا المعاصرة!

لقد وجد الفريق الثالث أنه سواء رحلنا إلى الماضى ونهلنا من معينه أو سافرنا إلى أوربا وأمريكا وقلدنا ما فيهما من مظاهر حضارية جديدة فإن هذا لن يصنع لنا ثقافة أو فكراً عربياً معاصراً، لأنه إذا كان الفريق الأول عربياً يتجه بنا إلى الوراء لإحياء كل ما هو عربى أصيل فهو ليس بالمعاصر الذى يجعلنا جزءاً من العالم المعاصر نشارك فيه كما يشارك غيرنا، فإن الفريق الثانى يعد معاصراً وليس عربياً لأنه طالب بأن نأخذ كل ما فى حضارة الغرب

المعاصر دون أن نجهد أنفسنا فى المواءمة بين تراثنا القديم وبين حضارة العصر الذى نعيش فيه. وبالطبع فإن موقف هذا الفريق الثالث يتلخص فى أن طريقنا إلى صياغة فلسفة عربية معاصرة يكمن فى محاولة صياغة ثقافة عربية جديدة فيها علم الغرب وتقدمه التقنى وفيها قيم التراث العربى فى آن واحد.

- **حجج السلفيين " و" العصرانيين" :**

وقد حاول أنصار هذه المواقف الثلاثة أن يقدموا الحجج التى تثبت صحة موقفهم وأن يلتمسوا الطريق للخروج من الأزمة الراهنة. فالفريق الأول الذى يقف فيه السلفيون – على حد تعبير د. محمد عابد الجابرى – أو أنصار العودة إلى التراث يرون أن مواجهة الحضارة الغربية المعاصرة لايكون إلا بحضارتنا العربية الإسلامية التى تملك كل عناصر القوة والأصالة وفيها الحض على العلم والعقل وهما الأساس الذى بنت عليه الحضارة الغربية الحديثة نفسها. ومن ثم فإنهم يعتقدون أننا لسنا بحاجة إلى الارتماء فى أحضان الحضارة الغربية بقدر ما نحن بحاجة إلى العودة إلى حضارتنا الإسلامية وقيمها الأصيلة لنجلو جوهرها ونعيدها حية فى نفوسنا وعقولنا فنحيا بها ونعيش عصرنا من خلالها. إنهم يرون أن الحفاظ على جوهر الشخصية العربية الإسلامية هو سلاحنا فى مواجهة الحضارة الغربية المعاصرة. وعلى الرغم من الاتجاهات المتعددة التى يتشعب إليها أنصار هذا الموقف باعتبار أن منهم

السلفى المتشدد الرافض لكل المظاهر الحضارية الغربية المعاصرة ومؤسساتها وفكرها وثقافتها وعلومها، ومنهم السلفى المعتدل الذى يقبل من حضارة العصر ومؤسساته ما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية أو ما يمكن تبريره داخلها إلا أن الجميع متفقون على أن تمسكنا بتراثنا الحضارى الذى جوهره الدين الاسلامى وقيمه الثابتة فى العدل والمساواة والشورى والدعوة إلى العمل الصالح فى كل ميادين الحياة هو طريقنا الصحيح فى مواجهة قيم الحضارة الغربية والتفوق عليها.

أما الفريق الثانى الذى يقف فيه " العصرانيون" – على حد تعبير د. الجابرى أيضاً – أو أنصار المعاصرة فيرون أن مدخلنا إلى حضارة العصر هو حضارة العصر نفسها! فمن الضرورى فى نظرهم تبنى النموذج الغربى المعاصر بوصفه النموذج السائد فى العصر كله وباعتباره النموذج الذى فرض نفسه كضرورة تاريخية لحضارة الإنسان المعاصر. إنهم يرون أنه ليس أمامنا أى خيار، فلابد أن نقبل هذا النموذج الغربى وأن نتعامل معه بمنطقه وعلومه وتقنياته حتى نكون معاصرين ومشاركين للأمم المتقدمة فى صنع حضارة العصر.

- **التوفيقيون ومحاولة صياغة أسس للفلسفة العربية الجديدة :**

أما الفريق الثالث الذى يقف فيه " التوفيقيون" أى أنصار المواءمة بين الأصالة والمعاصرة، فيرون أنه بالإمكان أن يلتقى

الطرفان المتنازعان عند نقطة أولية هى أنه لا تعارض بين أن نكون معاصرين وبين أن نكون محافظين على تراثنا وقيمنا العربية الإسلامية، بمعنى أن نأخذ عن الغربيين المعاصرين كل عناصر القوة والتقدم فى المجالات المختلفة ونستنبتها فى بيئتها العربية خاصة وأن ديننا الإسلامى ليس فيه ما يعارض التقدم العلمى والتقنى الذى هو جوهر الحضارة الغربية المعاصرة وقائد مسيرتها فى التقدم والرخاء.

ويرى د. زكى نجيب محمود – وهو أبرز ممثلى هذا الاتجاه التوفيقى منذ كتابه " تجديد الفكر العربى" – أنه إذا كان الاشكال الفلسفى الذى واجه أسلافنا من العرب المسلمين الأقدمين هو كيف يوفقون بين أحكام الشريعة ومنطق العقل، فإن الاشكال الفلسفى الجديد هو كيف نوفق بين التقدم العلمى وبين إنسانية الإنسانية؟!

إن هذا الإشكال الفلسفى الجديد – فى نظر د. زكى – لا يواجه العرب وحدهم بل يواجه صانعو الحضارة الغربية أنفسهم؛ فلقد فشل الغربيون وهم صانعو العلم الحديث فى إقامة اللقاء الأمثل بين "العلم" وتقدمه، وبين " الإنسان" ومطالبه الروحية؛ ففى الوقت الذى تمكنوا فيه من تحقيق أعلى درجات التقدم العلمى بتقنيات جديدة ومبتكرة، كادت هذه التقنيات نفسها أن تقضى على إنسانية الإنسان وتجعله مجرد عبد لمال يكسبه أو علم يحصله أو شهوة يبحث عن

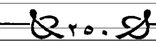
إرضائها دون أن تترك فسحة من الوقت ليتأمل فيها نفسه وحياته وعلاقاته بالآخرين وبالكون الذى يعيش فيه ودون أن تترك له فرصة للإيمان بمعتقدات دينية سليمة وبقيم أخلاقية سامية.

وإذا كان الغربيون قد وقفوا أمام هذا الإشكال الفلسفى الجديد عاجزين أو يكادوا يكونوا كذلك، فإنه بإمكان أبناء الحضارة الإسلامية أن يقدموا فلسفتهم العربية الإسلامية المستوحاة من العقيدة الإسلامية المغروسة فى نفس كل عربى مسلم، والتى تقوم على الاعتقاد فى مبدأ الثنائية التى دائماً ما تشطر الوجود شطرين متمايزين لا وجه للمساواة بينهما مثل ثنائية الخالق والمخلوق (الله – العالم والإنسان)، ثنائية الروح والمادة، العقل والجسم، المطلق والمتغير، الأزلى والحادث.. الخ .

إن فكرة الثنائية التى اعتبرها د. زكى نجيب محمود جوهر ثقافتنا العربية الإسلامية يمكن أن تكون الأساس للفلسفة العربية المعاصرة التى تمكننا من تجاوز إشكال الأصالة والمعاصرة الذى يطفو على السطح كلما فكرنا فى كيفية مواجهة ذلك النموذج الحضارى الغربى، حيث إن هذا الإشكال سيصبح فى هذه الحالة بغير مضمون؛ فإذا كنا نواجه حضارة سرتفوقها هو التقدم العلمى التقنى، واتاحه الحرية الكاملة أمام العقل الإنسانى للإبداع والابتكار فى كل المجالات، فإن حضارتنا العربية الإسلامية وهى تراثنا الذى نستند إليه فى تحديد هويتنا وشخصيتنا المستقلة كانت الأسبق فى

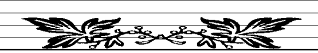
الدعوة إلى ذلك والمشاركة فى صنعه، كما أن ديننا الإسلامى الحنيف متمثلا فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية لايعارض مثل هذا التقدم ولا يقف عائقاً أمام حرية العقل فى الإبداع كما يتصور دعاة المعاصرة والنقل عن الغرب، بل على العكس فقد كان الدين الإسلامى هو الدعامة الأساسية التى دفعت أسلافنا إلى الإبداع فى كل المجالات فى إطار المحافظة على التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسم.

وعلى ذلك، فلا مانع يمنعنا من أن نشارك فى حضارة العصر والتفاعل معه تفاعلاً إيجابيا سواء بالأخذ أو بالعطاء، فنحن كعرب وكمسلمين لا يمكن أن ننسلخ عن عروبتنا أو أسلافنا فهما مدخلنا الأصيل إلى المشاركة فى الحضارة المعاصرة بتميز مفاده تحقيق التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسم؛ فالعلم الذى يصنعه الإنسان ليحقق من خلاله مطالبه المادية لا ينبغى - كما يحدث فى الغرب الآن - أن يتحكم فى الإنسان ويحد من قدراته الطبيعية ويحوله إلى عبد لشهواته أو لكسب ثروة أو غير ذلك من مظاهر القوة المادية، بل ينبغى ترشيده ليخدم التقدم الإنسانى دون أن يهدم الإنسان ويدمر بيئته وقدراته الطبيعية. وهذا لا يتأتى إلا إذا أعيد الاهتمام بمطالب الإنسان الروحية التى قوامها العقيدة الدينية الإيمانية من جانب والتمسك بالمبادئ الأخلاقية السامية من جانب آخر.



(١٦)

أخلاق الإنسان العربى...
بين الأصالة والتبعية (*)



(*) نشرت بصحيفة " البيان" اليومية الإماراتية، دبى فى ١٩٩٢/١٢/١٥

أخلاق الإنسان العربى..
بين الأصالة والتبعية

إن الأصل فى الحياة الأخلاقية للإنسان هو الاعتدال. ولا أدل على ذلك من أن التراث الأخلاقى للبشرية فى أنقى صوره وأشيعها كان فى معظمه دعوة إلى هذه الفضيلة الجوهرية. فمنذ أن بزغ فجر الضمير الإنساني في الحضارة المصرية القديمة عرف الناس ضرورة النظام والعدالة مع النفس ومع الغير، عرفوا ضرورة ضبط النفس والاعتدال.

وها هو بتاح حوتب رائد الفكر الأخلاقى فى مصر القديمة يدعو قومه – فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد – من خلال نصائحه لابنه فى " مخطوط الحكمة" إلى ضبط النفس وعدم الشره، والالتزام بالعدل والنظام فى كل شىء(*).

وها هو كونفوشيوس رائد الفكر الأخلاقى فى الصين القديمة يدعو فى كتاباته المختلفة ومنذ فجر القرن السادس قبل الميلاد إلى

(*) أنظر ما كتبناه عنه فى كتابنا : نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة – دراسات فى الفلسفة المصرية واليونانية، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٧.

وايضاً فى كتابنا : المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٩٩٧.

أخلاق الوسط والاعتدال مشيراً إلى أن الذات الإنسانية من طبيعة وسط؛ فالإنسان ليس بهيمة كما أنه ليس إلها، ومن ثم فعليه أن يعيش وفقا لذاته العاقلة الخيرة التى تمنعه من فعل الشر وتلزمه عدم الافراط فى اللذة، كما تلزمه ببناء مجتمع إنسانى يقوم على الأخلاق والعدالة(*).

وقد جاء التراث اليونانى متأثراً بكل هذا ومؤكداً له، فمنذ فجر التراث الفلسفى لليونان نجد هيراقليطس – وهو فيلسوف المادة والتغير فى القرن السادس قبل الميلاد – حينما يأتى للحديث عن الأخلاق يقول إن على الإنسان أن لا يلبى كل مطالب النفس لأن منها تلك النفس الرطبة التى يلذ لها الإفراط فى الشراب، ومنها النفس الجافة المعتدلة، وهو يحذر من الأولى ويطالب الإنسان أن يعيش وفقاً لمطالب الثانية التى تزهد فى كل ماليس ضرورياً من مأكل وملبس واللذات الأخرى. كما نجد ديمقريطس – وهو الفيلسوف المادى الذى فسر العالم تفسيراً ذرياً مادياً – يتحدث عن الأخلاق الإنسانية فيقول إن الأصل فيها هو "اعتدال المزاج" لأن طبيعة الإنسان تختلف عن طبيعة الحيوان. ولذلك فاعتدال مزاج الإنسان إنما يكون بالزهد فى مطالب الحياة المادية وعدم الإفراط فى ممارسة اللذات. وهو يعتبر أن الوسيلة إلى كل ذلك إنما هى "الثقافة"

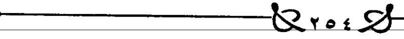
(*) انظر ما كتبناه عنه فى كتابنا : فلاسفة أيقظوا العالم، الطبعة الثانية، دار قباء بالقاهرة، عام ١٩٩٨م، الفصل الثانى.

فالقراءة والثقافة هما أساس " اعتدال المزاج" الإنسانى لأن الثقافة والتأمل هما المطلب الحقيقى للعقل بينما الأكل والشرب وصنوف اللذات الأخرى إنما هى من مطالب الجسد.

وعلى نفس الدرب سار فلاسفة اليونان الكبار فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد سقراط وأفلاطون وأرسطو؛ فقد دعا الأول إلى معرفة النفس الإنسانية التى هى جوهر عاقل فى الأساس، ومن ثم فمطالبها الأساسية إنما هى المعرفة والفضيلة وكلاهما أساس السعادة الإنسانية. ولذلك لم يكن غريباً أن يوحد سقراط بين حياة المعرفة والفضيلة وبين حياة السعادة وأن يعتبر أن الخير الأقصى للإنسان هو أن يكون عالماً فاضلاً. ولم يقدم أفلاطون وأرسطو بعد ذلك إلا تبريرات لهذه العقيدة السقراطية.

وهكذا كانت الفلسفات الأخلاقية فى القرون السابقة على الميلاد تقريباً تدعو إلى هذا التوحيد - الذى افتقدناه فى حياتنا الأخلاقية المعاصرة - بين حياة الفضيلة التى قوامها الاعتدال وبين الحياة السعيدة للإنسان. وإن كانت هناك استثناءات قليلة حادت عن هذا الرأى، فإنها لم تكن مؤثرة كما أنها لم تلق الانتشار، وكان الناس يعيشون بالفعل حياة قوامها التوحيد بين الفضيلة والسعادة.

وما أن تأتى القرون الأولى للميلاد حتى تؤكد الديانات السماوية كل هذه المعانى السامية حينما نجدها تجمع على أن الإنسان



كائن أخلاقى بطبعه وأنه خليفة الله على أرضه؛ وهكذا كان الأمر فى المسيحية، كما ظل كذلك وتدعم أكثر فى الإسلام . وقد تميزت الأخلاق الدينية بأنها ربطت الأخلاقية عند الإنسان المؤمن فى حياته الدنيا بجزاء عظيم سيجنيه فى الحياة الأخرى، فلم يعد الاعتدال وممارسة الفضيلة يتعلقان بأسباب دنيوية فقط بل أصبحت أمورا لها مردودها فى الحياة الأخرى للإنسان، حياته بعد البعث حيث الجنة التى وعد الله بها كل الخيرين العابدين التائبين، الذين نفذوا كل أوامر الله والتزموا حياة التقوى والصلاح والأخلاق القويمة.

ونعلم جميعاً كيف وحد الإسلام العرب وغير من أخلاقهم المادية التى كانوا عليها قبل الإسلام، كما نعلم كيف تعهد بالرعاية فضائلهم التقليدية التى اشتهروا بها كالشجاعة والكرم والمروءة والأريحية وحضهم على المزيد منها. لقد تحول الإنسان العربى بفضل الإسلام إلى إنسان زاهد عابد متبتل إلى الله، ولم يعد له من عمل فى حياته الدنيا إلا ارضاء ربه والجهاد فى سبيله، وزهد فى مطالب الحياة الدنيا وامتنع عن الإفراط فى اللذة بكافة صنوفها وما أكثر اللذات التى كان قد تعود عليها فى حياة الجاهلية !! .

وكلنا يعلم ماذا ترتب على هذا التحول فى حياة الإنسان العربى. إن هذا التحول إلى هذه الحياة الأخلاقية المعتدلة التى كان

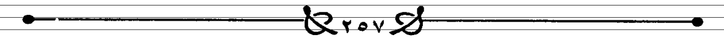
قوامها الدين الإسلامى والالتزام بتعاليمه جعلهم سيوفا لله تنفتح أمامها أعتى الحصون والقلاع، فكان انتشارهم فى بقاع الأرض وسيطرتهم على القاصى والدانى من ممالك الفرس والروم والترك والعجم والبربر، وكانت دولتهم الإسلامية أعظم دولة شهدتها الأرض ليس من حيث اتساع مساحتها أو من حيث قوة جيشها وتقدم أسلحته فقط، بل من حيث سيادة العدالة ودفع الظلم عن كل من عاش على أرضها، ومن حيث اعتدال حكامها وأمرائها ذلك الاعتدال الذى كان قوامه اهتمامهم الشديد بالثقافة والعلوم. لقد أدركوا جوهر الدعوة القرآنية إلى حياة إنسانية تتوازن فيها مطالب العقل مع مطالب الجسد، فدعموا كل ما يؤدى إلى ازدهار العلوم والأداب وكل ما يحفز العقل إلى التأمل والإبداع، فكانت الأخلاق المعتدلة التى تتوازن فيها مطالب العقل مع مطالب الجسد. ولم يكن غريباً فى إطار ذلك أن نجد فيلسوفنا الإسلامى الكبير أبو نصر الفارابى يدعو إلى مدينة فاضلة تقوم على هذه الدعائم الأخلاقية الإسلامية القويمة ويشترط فى حاكمها أن يكون – إلى جانب إلمامه وحفظه للشرائع والسنن وإلى جانب قدرته العقلية على جودة الاستنباط واصدار الأحكام – غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، وأن يكون محباً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله، وأن يكون الدرهم والدينار

وسائر أعراض الدنيا هينة عنده، كما ينبغى أن يكون محبا للعدل وأهله مبغضاً للجور والظلم وأهلهما.

ولقد كان الفارابى نفسه مثالاً يحتذى فى هذا الصدد، حيث عاش حياة زاهدة لم يهتم فيها بجمع المال رغم صلته الوثيقة بالأمراء والحكام فى عصره، لقد فضل حياة الثقافة والعلم فانقطع لهما مؤثراً الوحدة والتأمل على حياة الترف والدعة.

إذن ما الذى حدث؟! وما الذى غير أخلاقنا إلى هذا الحد الذى أكاد أرى فيه حياة الجاهلية الأولى؟! ما الذى جعلنا ننغمس فى حياة اللذة المادية إلى هذا الحد الذى يكاد يقضى على الكثيرين منا ؟! ما الذى جعلنا نلهث بهذا الشكل المخيف وراء أحدث موديلات الملابس والسيارات والعطور.. الخ! ونلهث وراء كل فخم وعظيم من القصور السكنية فى الشرق والغرب. ما الذى جعلنا نرى المثل الأعلى فى ضخامة الأرصدة التى فى البنوك وفى الحياة المترفة الناعمة المتخمة بكل جديد فى عالم تكنولوجيا الأجهزة والغذاء والكساء؟؟!

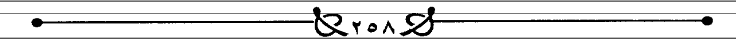
إنها ليست الثروة وتداعياتها كما يظن البعض، وإلا لاقتصرت هذه المظاهر لدى من يمتلكون الثروة فقط. إن الثروة لو كانت هى



السبب فيما يحدث لما كان هذا الشره والإغراق فى حياة اللذة أو فى طلبها قد أصبح هو القاسم المشترك بين أبناء كل الشعوب العربية يستوى فى ذلك من أبناء هذه الشعوب الغنى منهم والفقير، العالم منهم أو الجاهل !!.

إن الملاحظ المدقق يرى أنه رغم المجاعة التى تعصف ببلاد عربية فقيرة مثل الصومال، فإن أهلها لم يتوقفوا عن القتال طلباً للسلطة، كما لم يكفوا عن نهب المعونات التى تأتيهم من الخارج، وبدلاً من أن توحدهم الأزمة الطاحنة التى ألمت بهم ويستعيدوا قيمهم الأصيلة فى حب الغير والإيثار ونجدة بعضهم البعض ليواجهوا هذه المحنة القاسية. زاد تشبثهم بحياة القتال واللصوصية والانتهازية!! والحقيقة أن الصومال ليست سوى أحد الأمثلة التى يمكن الحديث عنها فى هذا المقام، إذ أن الأمثلة يفوقها الحصر فى بلاد العرب من المحيط إلى الخليج؛ إذ أن نفس ما أشرنا إليه فى الصومال هو ما يحدث الآن فى السودان منذ سنوات، وفى مصر بعد الزلزال، وفى بلاد الخليج بعد حرب الخليج الأولى والثانية.. الخ.

إن كل أزماتنا سببها الحقيقى فى اعتقادى إنما هو انفراط عقد قيمنا الأخلاقية الأصيلة وبُعدنا عن الالتزام الحقيقى بتعاليم ديننا



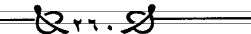
الحنيف التى تحض على التآخى والتكافل الاجتماعى واحترام حقوق الجار واحترام العهود والمواثيق. كما تحض على عدم التكالب على مطالب الحياة المادية المترفة، وعلى عدم التكالب على السلطة لأن الحكم فى الإسلام إنما هو التزام ومسئولية عظمى. وكلنا يعلم كيف أشفق على نفسه منها أبو بكر الصديق، وكيف بكى من هولها وهول جزاء المقصر فيها عمر بن الخطاب!!

إن كل ذلك التكالب على حياة الترف والسلطة، والاستغراق فى الانشغال بمطالب الحياة المادية بأموالها ولذائذها إنما مرده فى اعتقادى - بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من نسيان تراثنا الأخلاقى الأصيل وإهمالنا لتعاليم ديننا - أننا أصبحنا نعيش نموذج الحياة الغربية ونقلده فى أسوأ ما فيه. إن الحياة الغربية منذ مطلع العصر الحديث قد اتجهت وجهة مادية تطورت من الاهتمام بالعلم والعمل الجادين لصنع حياة وحضارة جديدة، إلى استهلاك لنواتج ذلك التطور - الذى تم فى القرون الثلاثة السابقة - من مصنوعات وأجهزة أغرقت الإنسان فى حياة الرفاهية والراحة والكسل ثم المزيد من الرفاهية والراحة والكسل ثم المزيد منها.. وهكذا مما سيؤدى فى النهاية إلى فقدان الإنسان عزيمته وقدراته التخيلية والإبداعية بعدما أفقدته فعلاً الاهتمام بتكوين حياة أسرية واجتماعية سوية. إن الإنسان

الغربى المعاصر أصبح يعيش حياته – فى معظم الأحوال – وحيداً فرداً مستغرقاً فى ممارسة أقصى قدر من اللذات المادية بمختلف الوسائل الطبيعية وغير الطبيعية، الضرورية وغير الضرورية.

ولقد تنبه المفكرون الغربيون المعاصرون إلى هذه العوامل المدمرة فى حياة الإنسان الغربى، وأصبحوا يلحون فى كل كتاباتهم وندواتهم ومؤتمراتهم على ضرورة التغير، والعودة إلى حياة الطبيعة البكر بما فيها صفاء ونقاء وحرص على الذات وعلى الآخرين. أصبحوا يلحون على ضرورة العودة إلى الأخلاق الاجتماعية السامية التى تشيع جو الاستقرار والأمن الفردى والجماعى.

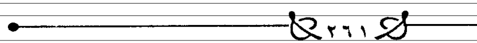
أما نحن وللأسف الشديد فلا نزال نعيش حياة التقليد لكل ما هو غربى مقيت، التقليد لكل ما نشاهده من حياتهم المبتذلة المفرطة فى اللذية والمادية التى تركز على المظاهر وتلح على تحقيق أقصى قدر من المطالب المادية للإنسان. إننا لا نزال نسير فى طريق التقليد والتغريب دون وعى بالنتائج الفتاكة التى ستترتب على ذلك. ومن عجب أن المفكرين العرب مشغولون فى كل كتاباتهم ومؤتمراتهم بقضايا الأصالة والمعاصرة، المثقف والسلطة، انهيار الشيوعية وتأثير ذلك على السياسة الدولية، تولى كلينتون للسلطة فى البيت



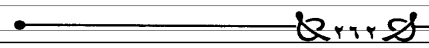
الأبيض وانعكاسات ذلك على محادثات السلام الجارية بين العرب واسرائيل.. الخ، ولم يلتفت منهم أحد إلى هذه القضية الخطيرة؛ قضية الفساد الأخلاقى الذى نعيشه رغم أننا صناع الحياة الأخلاقية المثلى عبر التاريخ!..

إن الفساد الأخلاقى والانحلال السلوكى هما - فى اعتقادى - أحد أركان صراعنا مع الغرب الآن، لأنهما جوهر ما يطمح إلى بثه فينا الإعلام الغربى والصهيونى ليس بمخططاته الدعائية عن كافة السلع الاستهلاكية اللاضرورية فقط، وليس بكل ما ننقله عنه من برامج تلفزيونية وإذاعية وأفلام فيديوية فقط، بل بكافة الوسائل الممكنة الخفية منها والمعلنة!!.

إن حذرنا الأكبر من الغرب ينبغى أن يتمثل فى اكتشاف الوسائل التى ينفذ منها إلينا عبر إغراقنا بكل هذه المنتجات اللاضرورية التى تجعلنا نستغرق فى حياة مادية ناعمة مترفة نركز فيها على الاستهلاكى دون الضرورى فنعيش حياة الدعة والكسل والخمول - بتعبير مفكرنا العربى الفذ ابن خلدون - فتكون مقدمات للنهاية الأليمة التى نرى بوادرها بادية فى الأفق!!



ولا أجد ما يمكن أن يكون أجدى فى ايقاظنا مما نحن فيه أكثر من قوله تعالى فى كتابه الكريم " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" صدق الله العظيم. إن العودة إلى أخلاق الإيمان والاعتدال والتعاون والتكافل بين العرب والمسلمين، والاقتصار على ما هو ضرورى فى المأكل والمشرب والملبس لإدامة حياة الإنسان المادية، أصبح مسألة مصير بالنسبة لأمة تتضافر عوامل خارجية وداخلية كثيرة مهددة إياها بالفناء.

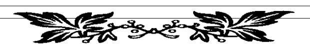


(١٧)

تأملات عربى بين عامين
عام مضى وعام أتى..

(١)

العرب والمسلمون..
بين فقدان الإرادة والأمل
وبين إمكانية امتلاكهما (*)



(*) نشرت بصحيفة " البيان" الإماراتية ــ دبى فى ١٩٩٣/١/١٤م.

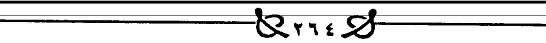
تأملات عربى بين عامين
عام مضى وعام أتى..

(١)

العرب والمسلمون..
بين فقدان الإرادة والأمل
وبين إمكانية امتلاكهما

قال رسول الله (صلى الله عيه وسلم): حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. من هذا المنطلق أسائل نفسى كما أطالب كل مسلم حاكما كان أم محكوماً أن يسائل نفسه: ماذا قدم لنفسه ولأمته خلال هذا العام الذى مضى وانقضى؟ قد يقول قائل: مالك أنت ومالنا؟ ابدأ بنفسك ولا تحاسب إلا نفسك! واتركنا نحتفل فى هدوء (آسف: أقصد فى صخب!) ببداية العام الجديد!!.

والحقيقة أننى كنت أفعل ذلك سابقاً ولم أكن أحاسب إلا نفسى سواء فى نهاية العام الهجرى أو فى نهاية العام الميلادى، لكننى وفى هذا العام بالذات لم أستطع الاكتفاء بمحاسبة النفس ووجدتنى رغما عنى أمسك بالقلم لأتساءل وأسائل الآخرين عن حصاد عام مضى وماذا ننوى فعله فى عام مقبل؟!



ولعل السبب الذى جعل القلم يأبى السكوت فى هذا العام بالذات هو أنه كان عاماً مليئاً بالأحداث ومفعماً بكل أنواع المآسى للعالمين العربى والاسلامى على الرغم من أنه كان يمكن أن يكون أفضل أعوام العالم الإسلامى فى العصر الحاضر على الإطلاق.

أما عن آلامه ومآسيه فهى لا تخفى على أحد، فالمجاعات والحروب تكاد تفتك بملايين المسلمين فى الصومال وأفغانستان والبوسنة والهرسك وفى طاجكستان وكازاخستان وغيرهما من الدول الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى سابقاً. ويكاد يكون حال المسلمين فى كل أنحاء العالم واحدا رغم تباين الظروف، رغم الغنى الذى تنعم به بعضها مثل دول الخليج ورغم الفقر الذى ترزح تحته أخرى مثل دول أفريقيا الإسلامية وخاصة الصومال، ودول آسيا خاصة بنجلاديش وأفغانستان، فحال الجميع هو الإحساس المفعم بالحزن والألم لما يجرى فى العالم الإسلامى من تمزق وتشرذم وحروب ومجاعات وأوبئة وزلازل وبراكين وغير هذه وتلك من أهوال!.

ولاشك أن فداحة وعمق هذا الإحساس بالألم والمرارة مرده إلى أجهزة الإعلام خاصة الغربية منها والمستغربة التابعة لها. لقد نقلت لنا طوال العام الماضى ما يمكن إن نسميه " دراما العالم الإسلامى". وبالطبع فلم يكن هذا العرض الدرامى لمآسى العالم

الإسلامى بدافع من " الموضوعية" العلمية أو "من الشفقة" الإنسانية، وإن بدا على السطح كذلك!!

لقد تم هذا التضخيم لتلك المآسى وعرضها اليومى بهذا الشكل الدرامى الكئيب الذى كاد فى معظم أيام العام أن يصيبنى وكل مسلم غيور على أرضه وعرضه ودينه بفقدان الشهية ودوران الرأس وفقدان المعنى – ليترسخ فى وعينا أننا قوم متخلفون لا نصلح لشىء؛ فنحن دون خلق الله جميعاً نتمتع بأعلى نسبة صراعات وحروب، وبأعلى نسبة فقر، وبأعلى نسبة أمية، وبأعلى نسبة جهل بين المثقفين، وبأعلى نسبة استبداد علمى وتكنولوجى! ونحن دون خلق الله جميعاً نتمتع بأعلى نسبة تخلف فى الحكم، وبأعلى نسبة ضياع للحقوق الإنسانية!إلخ. وباختصار، لقد حاول الإعلام الغربى والمستغرب (أى الناقل عن الغرب) أن يرسخ فى وعى الإنسان المسلم أنه صاحب أعلى نسبة تخلف حضارى فى التاريخ المعاصر!!

وبالطبع كان ذلك الإعلام الغربى من الذكاء، والإعلام العربى المستغرب من الغباء بحيث لم يعرض لنا هذه المقولة إلا بصورة تتمتع بأعلى قدر من الحساسية الإنسانية، بحيث يبدو لجميع الناس فى العالم أن المسلمين هم صانعو " التخلف" و"الارهاب" فى العالم،



بينما الغربيون هم صانعو ومصدرو الإنسانية إلى العالم بما يفيضون به من رقة فى مساعدة المحتاجين ونجدة المظلومين كما حدث مع أكراد العراق، وجوعى الصومال، وفقراء الجمهوريات الإسلامية السوفيتية، ومع منكوبى زلزال مصر، ومشردى فيضانات بنجلاديش .. الخ!!

أما عن أنه كان يمكن أن يكون أفضل الأعوام المعاصرة بالنسبة للعالم الإسلامى؛ فالحق أقول إنه – مع قليل من وعى حكوماتنا وشعوبنا – كان يمكن لهذا العام بالفعل أن يكون كذلك. لقد شهد هذا العام أحداثاً إيجابية كثيرة؛ فقد تخلصت أفغانستان من الاحتلال السوفيتى وتوابعه من حكام كابول الشيوعيين، وشهد تفكك الامبراطورية السوفيتية ومن ثم تخلصت الدول الإسلامية السوفيتية خلال ذلك من الهيمنة الشيوعية ومن الكبت الفكرى والأيديولوجى الذى عانته طوال الحقبة السابقة منذ بداية القرن العشرين. كما شهد كذلك تفكك الدولة اليوغسلافية ومن ثم استقلت جمهورية البوسنة والهرسك ذات الأغلبية المسلمة . لقد شهد هذا العام أيضاً تخلص بعض الدول الإسلامية من عبئها الثقيل من الديون الخارجية مثل مصر التى بدأت تتطلع أخيراً إلى الاستقلال الاقتصادى والخروج من عنق الزجاجة على حد تعبير الاقتصاديين المصريين، كما شهد محاولة السودان الاعتماد على الذات فى إنتاجها الزراعى، وشهد كذلك



استمرار الانتفاضة الإسلامية فى فلسطين المحتلة وهو ما يعبر عن حيوية الشعب الفلسطينى ورفضه للاحتلال الاسرائيلى لأرضه رغم ما يجرى من محادثات للسلام بين الطرفين.

ولكن ماذا فعلنا إزاء هذه الشواهد الإيجابية؟؟

لقد هللنا قليلاً، وفرحنا، وعبرنا عن فرحتنا بكلمات ثم بكلمات ولا أفعال!، وهذه هى آفة آفاتنا فى العصر الحاضر؛ حينما نحزن نتكلم، وحينما نفرح نتكلم، وحينما نشجب نتكلم، وحينما نهنىء نتكلم الخ. لقد استبدلنا الفعل بالكلام!! وكأننا صدقنا قول من قال منا أننا (أى العرب) " مجرد ظاهرة صوتية"!

لقد كان رد فعلنا إزاء هذه الأحداث سواء المؤلمة أو الإيجابية رداً كلامياً لا أكثر!! فلم نكن على مستوى الحدث بأى صورة من الصور، وضاع منا إيماننا الواعى بهذه الآية الكريمة " **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.**[1] وبمثيلاتها مثل **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** [2] إن القول فى الآيتين الكريمتين يرتبط بالفعل، وإذا انفصم هذا الارتباط فقد فقدنا أحد جوانب الإسلام وأحد أركان الإيمان.

---

(١) القرآن الكريم : سورة فصلت : آية ٣٣.

(٢) القرآن الكريم: سورة الصف: آية ٢، ٣.

فماذا فعلنا لمسلمى أفغانستان!، لم نساعدهم على امتلاك استقلالهم الفعلى، فتركناهم يتحاربون دون أن نتحرك لرأب الصدع ولم الشمل والتوفيق بينهم، تركناهم دون مساعدة اقتصادية حقيقية تحول الدمار الذى خلفه الحرب إلى بناء.

وماذا فعلنا لإخواننا فى البوسنة والهرسك الذين ما إن أعلنوا الاستقلال حتى اجتاحتهم جحافل الصرب تشبعهم قتلاً وتشريداً واغتصاباً ؟!

لقد أصدرنا بيانات الشجب والإدانة وكأن أمرهم كأمر أى حدث عالمى تعودنا إدانته تقليداً واتباعاً فى الوقت الذى كان يجب علينا – لو تحلينا بقليل من الوعى والضمير اليقظ والإحساس بالجسد المسلم الواحد – أن نهب لنعلن للعالم أجمع أننا سنقاتل من أجلهم!، إن مجرد هذا الإعلان لم يصدر حتى بعد أن عقد مؤخراً مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية بعد أن كادت تمحى سراييفو من الوجود، وبعد أن أدان العالم كله تلك الجرائم البشعة التى ترتكب بحق هؤلاء المسلمين، فكنا نحن آخر من أدان وآخر من تكلم!!

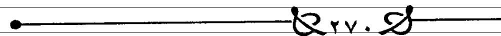
وحينما تكلمنا كان كلامنا ناعماً كالحرير فلم نهدد بالمشاركة فى الحرب الدائرة هناك نجدة لأخوان لنا فى الدين رغم بُعد الوطن!!

أعود لأقول، كان يمكن لهذا العام أن يكون من أحسن الأعوام التى مرت على العالم الإسلامى فى العصر الحاضر، ولكننا لم

نستثمر أحداثه الإيجابية، فمازلنا فى غينا سائرون، وفى ملذاتنا منهمكون، وفى تبعيتنا للغرب ماضون، وعن قضايانا ومشاكلنا الحقيقية الملحة غافلون!

إننا أحوج ما نكون فى نهاية عام مضى وبداية عام جديد أن نعى أزمتنا الحقيقية؛ إنها أزمة انعدام الوعى بذواتنا وبكل ما يدبر لنا من أنفسنا قبل أن يدبر لنا من أعدائنا! إنها أزمة فقدان الثقة بقدرتنا على الفعل !. وأسوأ ما يمكن أن يصيب أمة هو فقدان الثقة بنفسها وبإمكانياتها وبقدرتها على الفعل والمشاركة الإيجابية فى صنع الأحداث وتجاوز المحن! إنها أزمة انعدام الضمير الإسلامى – بما يعنيه من قيم الجهاد والأخلاق القويمة – وقد أماته فينا تكالبنا وراء إشباع الحاجات المادية، التى ما إن نشبع إحداها حتى تتولد أمامنا مئات غيرها، وكل ذلك تولد من متابعتنا اللاهثة لمادية الغرب ومدنيته البلهاء التى تسير بالإنسان إلى الفناء معصوبة العينين ونحن خلفها سائرون!

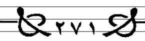
أما عن العام الجديد، فنحن دائماً ومنذ عقود بل ومنذ قرون مضت لم نعد نفكر فى المستقبل، نحن قد اعتدنا – ولا أدرى أى شيطان رجيم سلط علينا ليجعلنا كذلك – أن لا نفكر إلا فى الحاضر، بل لا نفكر إلا فى اللحظة التى نعيشها منه؛ كيف نعيشها باسترخاء واستمتاع !!



إن حالنا – إذا ما استعرنا تعبيراً استخدمه الفلاسفة الوجوديون لوصفه – كحال من يعدم مستقبله لصالح لحظته الحاضرة أحياناً، وكحال من يعدم حاضره ومستقبله لصالح ماضيه أحياناً أخرى!، فقد تعودنا أن ينصب تفكيرنا دائماً على الحاضر الذى نعيشه سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الدول، وإذا ما فكرنا فى التخطيط للمستقبل فإن خططنا له – خاصة على مستوى الدول – لا تتجاوز فى أحسن الأحوال التخطيط لسنوات خمس! كما أنه يحلو لنا دائماً – وهذا أمر ننفرد به بين الأمم – أن نجتر الماضى وأن نعيش دائما فيه ونتمنى لو يعود!!.

إن الماضى مضى وانتهى ولن يعود. لقد كان ماضياً عظيماً وعلينا أن نتذكره دائماً ونفخر به، ونعتز بكوننا أمة صنعت تاريخا وحضارة عظيمين، لكن هذا لا يعنى أبدا أن " نعيش فى الماضى" أو أن " نعدم حاضرنا ومستقبلنا لصالح هذا الماضى العظيم".

إن علينا بالضرورة أن نواجه الحاضر بكل ما فيه من تعقيدات ومشكلات ملحة بفعالية وايجابية، كما أن علينا دائماً أن نفكر فى المستقبل القريب أو البعيد وأن نخطط له. إن مواجهة مشكلات الحاضر والتفكير فى المستقبل لا يكون إلا بأسلحة العصر الذى نعيشه، وسلاح العصر هو العلم والتكنولوجيا، ولا يمكن الأخذ بهذين



السلاحين بانفصال عن وعينا بذواتنا وبإمكانياتنا المستقلة لأن الوعى بامكانيات الذات وطموحاتها يعنى أننا سنستطيع أن نوظف ذلك العلم وتلك التكنولوجيا لخدمة أهدافنا وصياغة مستقبلنا المستقل.

وفى ضوء ذلك، أرى أن أهم ما يمليه علينا الضمير القومى من أولويات فى العام الجديد، فى ضوء استقراء كل ما يجرى حولنا من أحداث عالمية تتصارع فيها الدول فى آسيا وأوربا وأمريكا إلى الدخول فى تكتلات سياسية واقتصادية، هو ضرورة الدخول فوراً فى تكتلات اقتصادية وسياسية سواء كانت عربية – عربية أو عربية – إسلامية، فهذا هو السبيل لمواجهة تكتلات الحاضر وتحديات المستقبل. ولا مجال هنا – إذا ما ارتفع قادتنا وشعوبنا إلى مستوى الوعى بالمسئولية التاريخية الملقاة على عاتق الجميع والى مستوى التحديات التى تلخصها عبارة " نكون أو لا نكون" – إلى النظر إلى حساسيات المصالح الشخصية أو العرقية أو إلى ما يشبه ذلك. وأظن أن الجميع متفقون منذ زمن على أهمية وضرورة هذه التكتلات الاقتصادية والسياسية التى هى السبيل الأمثل نحو الوحدة التى لا تزال أملا يراود العرب والمسلمون. وعلى القادة الخضوع لرغبة وأمال الشعوب، وعلى مخططى السياسات النظر فى كيفية التنفيذ.

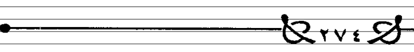
إن الدراسات العلمية التى تراكمت طوال السنوات الماضية من كل الجهات فى العالمين العربى والإسلامى أكدت من منطلق

الامكانات الواقعية المتاحة أن قيام مثل هذه التكتلات السياسية – الاقتصادية سيكتب لها النجاح إذا ما صفت النفوس واستيقظت الضمائر وتغلبت المصالح المشتركة على المنافع الأنانية للأفراد أو للدول. وأعتقد أن المناخ الدولى الآن أصبح مهيئاً أكثر من أى وقت مضى لتقبل أى صيغة من صيغ الوحدة العربية أو الإسلامية إذا لمس منا الإصرار عليها. وإذا ما استطعنا تجاوز أى خلافات مفتعلة بيننا، وأى مؤثرات محتملة من أعدائنا الحقيقيين؛ الصهيونية العالمية ودول الغرب المساندة لها.

إن امتلاكنا لإرادتنا لن يكون إلا بالاكتفاء الذاتى من الغذاء، وبامتلاك القوة العسكرية والاقتصادية التى تفرض على الجميع احترام هذه الإرادة. ولن يكون لنا هذا أو تلك الا بالدخول فى هذه التكتلات الاقتصادية – السياسية ، وكلما استطعنا توسيع نطاق هذه التكتلات فيما بيننا كلما كانت مشاركتنا الايجابية فى صياغة وصنع مستقبلنا، وصياغة وصنع مستقبل ما يسمى بالنظام العالمى الجديد بأن يكون لنا دور أساسى فيه وليس دوراً هامشياً.

إن الأمل فى المستقبل كبير، كبير، لكن تحقيق هذا الأمل مشروط بمقدار وعينا وبمقدار فعلنا بموجب هذا الوعى. وإذا كنا فيما سبق قوله قد وعينا آلام العام الماضى ومآسيه وأحزانه، كما أدركنا ايجابياته التى فشلنا فى استثمارها بتقاعسنا عن الفعل والاكتفاء

بالقول والكلام، فهل نطمح إلى أن يكون هذا العام الجديد، هو عام تحقيق الآمال على أرض الواقع، أم سنكرر فى بداية العام القادم ١٩٩٤ نفس الكلام دون أن يتحقق فى الواقع أى فعل؟!.

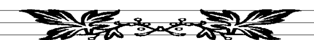


(١٨)

تأملات عربى فيما بين عامين :
عام مضى وعام آتى..

(٢)

فقر "السياسة"
وصناعة "الفقر"
فى العالم العربى(*)



(*) كتبت فى مطلع يناير عام ١٩٩٤م. وأرسلت إلى نفس الصحيفة التى نشرت سابقتها: ولكنها لم تنشرها. ولا أعرف سبباً محدداً لذلك، وربما يكون السبب هو زيادة جرعة النقد الذاتى والصراحة فى مواجهة سلبيات الإنسان العربى حاكماً ومحكوماً.

تأملات عربي بين عامين
عام مضى وعام أتى..
(٢)
فقر "السياسة" وصناعة "الفقر"
فى العالم العربى

ها نحن نستقبل عاماً جديداً، ويرحل عنا آخر؛ وفى اليوم الذى يفصل بين العامين دائماً تترى الخواطر وتتلاحق الأحداث، أحداث عام مضى وتخيلات بشأن أحداث العام الجديد.

ففى هذا اليوم بالذات يكون حساب النفس عند كل من يعى أنه لابد أن يحاسب نفسه عما يفعل قبل أن يحاسبه الله! إنه اليوم الذى جرت فيه عادة الناس فى الغرب أن يذهبوا للمراقص وأن يرتكبوا كل الموبقات والمفاسد! والغريب أننا فى بلاد العرب والمسلمين نقلدهم دون أن نعى ويعون. إنه يوم تحل فيه ذكرى نبى ورسالة سماوية عظيمة، ولو وعينا ذلك لأدركنا أنه يوم ينبغى أن يقلع الجميع فيه عن المفاسد وارتكاب المعاصى ويتجهون إلى الله ويحاسبوا أنفسهم عما ارتكبوا من آثام فى حق أنفسهم وفى حق غيرهم، إنه يوم يحل كل عام لنحاسب فيه النفس ونردعها لا يوم تقودنا هى فيه إلى ارتكاب المعاصى والمفاسد!

وإذا كان يحق للإنسان الغربى أن يحتفل على طريقته الحمقاء التى لا تليق بذكرى ميلاد نبى ومولد رسالة سماوية المفروض أنه يؤمن بها ويقدس صاحبها؛ لأنه والحق يقال يقضى عامه فى العمل الجاد والانجاز المبدع وتبدو نتائج أعماله واضحة أمامه كل عام؛ فهو الإنسان الذى يتحكم الآن فى العالم، وتتمتع بلاده بأكبر قوة اقتصادية وعسكرية، ويسير العالم فى ركاب ديمقراطيته وشعاراته عن "النظام العالمى الجديد"، الذى يقوده حلفه الوحيد، حلف الأطلنطى الذى لم يكتف بدول أوربا الغربية وحلفائها، فبدأ يبتلع دول أوربا الشرقية وجيرانها!

أقول: أنه إذا كان يحق للإنسان الغربى وهو يحقق كل يوم بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة سيادته المطلقة على العالم أن يحتفل بهذه الانجازات البارعة الرائعة!! فإنه على الإنسان العربى، إذا كان لا يزال يعى ولديه بقية من عزة وحياء أن ينزوى ويغتم ليتأمل بجدية ما يفعله ويحاسب نفسه على ما فعل وعلى ما لم يفعل ، وسيجد حينئذ أن مصيبتنا الكبرى أننا حقاً لا نفعل شيئاً، وإذا كان الآخرون ينبغى أن يحاسبوا أنفسهم على ما يفعلون، فإن علينا أن نحاسب أنفسنا على " عدم الفعل"!!

وأظن أن الكثيرين من قرائى الآن يتساءلون فى غضب: كيف ذلك ونحن كل يوم نذهب لأعمالنا ونقوم بفعل ما يطلب منا؟! كيف



ذلك ونحن كل يوم نقرأ ونكتب؟! كيف ذلك ونحن كل يوم نذهب لجامعاتنا ومدارسنا نتلقى العلم؟! كيف ذلك ونحن كل يوم نجتمع ونحضر المؤتمرات ونصرح بالبيانات فنشجب وندين، أو نوافق ونبارك؟!

والحق أقول لكم أيها الغاضبون الحانقون وأقول لنفسى معكم: إن المهم ليس القيام بالفعل " أو " العمل"، وإنما الأهم هو أن ترى " نتيجة" لهذا الفعل أو العمل!.

ذلك هو المبدأ البراجماتى (النفعى) الذى تسير عليه أمريكا والغرب، وأقاموا على أساسه كل إنجازاتهم فى كافة المجالات، وذلك هو المبدأ الذى نجد صورة أكثر تحضراً ورقياً منه فى إسلامنا الحنيف الذى طالب أتباعه أن يرتبط لديهم " القول " "بالفعل" وأن تتحول النيات الطيبة إلى أفعال سلوكية ذات نتائج علمية تغير واقع المسلم إلى الأفضل، ولنتأملوا معى قوله تعالى "**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا**"، وقوله تعالى أيضاً: "**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** " (صدق الله العظيم).

إننا حقاً نذهب كموظفين وعاملين إلى أعمالنا، ونتجه كطلاب وأساتذة إلى مدارسنا وجامعاتنا، ونسود الصفحات كل يوم ككتاب وأدباء وعلماء، ونحضر الاجتماعات والمؤتمرات كساسة وحكام،

لكننا فى كل ذلك نقوم بعملنا كالرحى التى تطحن القمح أو الذرة الذى نعطيها إياه دون أن تضيف شيئاً من عندها، هكذا نحن، نفعل ما يطلب منا، وقد نفعله بأمانة، ولكن لم يسأل أحدنا نفسه: ما نتيجة ما أقوم به من عمل، وماذا تحقق على الأرض – أرض الواقع من خلال هذا العمل؟!

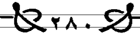
وأجـدنى مدفوعـاً هـنا إلى القول : إنه إذا استثنينا " العمال" الذيـن يديـرون الآلات فى المصـانع ويعملون بالحقول والمزارع ووسـائل الانتاج المختلفة، واستثنينا من يوجهونهم فى هذه الأعمال، لوجدنا الجميع بعد ذلك يمارسون الفعل الذى يتساوى مع عدم الفعل، أى يمارسون اللافعل"؛ فأفعالهم إن وجدت ظاهرية مظهرية لا ينتج عنها شيئاً محدداً فى الواقع، ولا أدرى لذلك سبباً واضحاً؟!.

وليسأل حكامنا وساستنا أنفسهم بصراحة: ماذا فعلوا بكل مؤتمراتهم وتصريحاتهم واجتماعاتهم! هل تمخض عن كل ذلك ما غير واقع شعوبهم إلى الأفضل؟! بمعنى: هل توحدت كلمتهم واتجه فعلهم – كما فعل قادة دول الخليج مثلاً – إلى توحيد البلاد ورفع الحواجز المصطنعة بينها؟! وهل دخلوا فى تكتل اقتصادى ازداد فى إطاره الإنتاج الزراعى والصناعى لبلادهم وكفى حاجة شعوبهم؟! وهل فعلوا شيئاً لانقاذ أهليهم فى الصومال وغيرها من المجاعة

والتشتت والاقتتال؟! وهل فعلوا شيئاً حقيقياً لانقاذ بلادهم من ذل الحاجة والتبعية والاعتماد على الغير فى كل شىء من الحماية والدفاع وتوفير الغذاء وحتى توفير وسائل الراحة والرفاهية؟! وهل..؟؟ وهل..؟؟ . الخ.

إن ما نفعله دائماً هو إصدار البيانات، وإن صدرت البيانات حاملة بعض ما يحقق الطموحات، لم تتحول إلى نتائج ملموسة يراها الناس!

ولأضرب لكم مثالاً واحداً على "فقر" سياستنا العربية فى هذا الصدد؛ إنه فى الوقت الذى يتجه فيه كل دول العالم شرقه وغربه إلى الدخول فى تكتلات اقتصادية وتجارية ضخمة تتواجه أو تتفق حفاظاً على حياة ورفاهية شعوبها وحماية إنتاجها، نجد أن "التبادل التجارى بين الدول العربية لا تتعدى نسبته ٣% بالقياس إلى نسبة تجارة كل منها مع العالم الخارجى"!! فهل يعقل هذا الأمر بين أناس يدعون كل يوم فى مؤتمراتهم وبياناتهم أنهم أبناء أمة واحدة!! إن السياسات التى لا تزال متبعة فى بلادنا العربية سياسات تابعة فقيرة، لم تصل قط إلى تحقيق الحد الأدنى لأمال الشعوب التى لاتزال تشتاق إلى يوم يتغيرفيه الواقع العربى الممزق المؤلم، إلى "وحدة اقتصادية" تدعم سياسة خارجية مستقلة، وسياسة دفاعية قادرة على حماية أمن ومصالح المواطن العربى!



يقولون باستمرار: إن ثمة عقبات تحول دون تحقيق ذلك؛ وهذه العقبات دائماً وعلى مدار العقود الخمس الماضية تتجدد حسب الحال، وحالنا اليوم يقول إن العقبة هى العدوان العراقى على الكويت، والحقيقة هى أن العدوان قد انتهى منذ سنوات، ولم يعد باقياً إلا نظام حكم مستبد يمكن تجاوزه كلية؛ فلتجمع إرادة الحكام العرب حسب إرادة شعوبهم، وإذا كانت العقبة التى تحول دون ذلك هى " طاغية بغداد" فليكن هناك من يمثل الشعب العراقى ويعبر عن طموحاته فى التئام الشمل العربى.

وعلى مخططى السياسات توفير وسائل ذلك، وهم لن تعجزهم الوسائل إذا صدقت النوايا وأخلصت النفوس وتوحدت الأهداف وأردنا حقاً أن نخرج من دائرة " الأقوال" والبيانات" إلى دائرة " الأفعال" ذات النتائج الملموسة !!، وإلا فليخبرنى أحد المتخصصين أثابه الله: مادور تلك المؤسسات العربية التى ينفق عليها من المال العربى الملايين، مثل مؤسسات الجامعة العربية وما جدواها اذا لم تنجح فى ذلك؟!!

إن فقر السياسة العربية وعدم بلورتها لاستراتيجية موحدة تستند على تحقيق الحد الأدنى من مطالب الإنسان العربى وتحقيق أماله فى ظهور تكتل اقتصادى عربى موحد، ورؤية سياسية تتفق حول الحد الأدنى من المصالح العربية المشتركة، إن هذا قد أدى إلى

الآن، وسيؤدى فى المستقبل القريب إلى ما يمكن أن نسميه " صناعة الفقر" العربى إن عاجلاً أو آجلاً!!

إن فقر السياسة العربية وما يؤدى إليه من صناعة الفقر وتكريسه فى العالم العربى، أمر لا يقتصر تحمل مسئوليته على الحكام وواضعى السياسات وحدهم، بل أمر ينبغى أن يقع العبء الأكبر فيه على المثقف العربى الذى كان ولايزال يجب عليه أن يتحمل مسئولية شريفة رائدة فى إلهاب الوعى العربى، والتفاعل مع مطالب الإنسان العربى العادى والتعبير عنها وبلورتها والإلحاح فى توصيلها إلى واضعى السياسات لتكون بمثابة الضوء الهادى لهم حينما يضعون تلك السياسات العربية فى كافة البلدان والمجالات!

لكن ماذا يفعل المثقفون العرب الآن : إنهم يمارسون " اللافعل "ويستمتعون بذلك؛ فهم قد اكتفوا فى معظم الأحيان " بالرغى والثرثرة" فى كافة الميادين دون هدف قومى واضح يستهدفونه ويلحون فى طلبه وتحقيقه!؛ فهم إما من كاتبى الأشعار والروايات، وهؤلاء - باستثناءات جدُ قليلة - يكتبون ما يستغلق على الافهام، ويعيشون بين الكلمات المستغلقة التى يكتبونها، ولم يعد التفاعل مع غيرهم يعنيهم فى شىء، فقد اكتفوا بحضور ندوات بعضهم البعض، والكتابة للصحف والمجلات التى تدفع أكثر للحصول على المال "

الوفير" وتحقيق رغد العيش! وإما أنهم من كتاب المقالات والابحاث، وهــؤلاء إن كــانوا من المتخصصين فى السياسة اكتفوا فى الغالب بكــتابة مقالات لا تخرج عن كونها "ثرثرة سياسية" كثرثرة الرجل العــادى دون تعمق أو دراية، أو هى تحليلات ناقدة يكتبونها دون أن يرســموا أمامــنا طــريق الخــروج مــن الازمــات السياسية التى يحلــلونهاودون أن يبصروننا بالطريق الذى ينبغى أن نسلكه للإفلات من السياسات والمخططات العالمية التى تحاك لنقع فى حبائلها!

أما إن كانوا من المتخصصين فى الشئون الثقافية العامة فهم باستثناءات جدُ قليلة أيضاً - يكتبون كلاما لمجرد الكتابة وحب الظهور، أو يكتبون لمدح صديق أو نقد آخر، أو يكتبون كلاماً غير مفهوم ملىء بالمصطلحات المستغلقة والرطانة اللفظية التى لا يفهمها الناس! أو يكتبون كلاماً سطحياً لا يقدم ولا يؤخر، أى يكتبون فى لا موضوع وبلا أى رؤية محددة! وفى كل تلك الأحوال وللأسف الشديد لا يستفيد القارئ الواعى شيئاً مما يكتبون لانعدام الإخلاص وفقدان الوعى وغياب الالتزام وضياع الهدف من الكتابة عند هؤلاء وأولئك!!

إن حالنا نحن العرب - بكل موضوعية ومع شديد الأسف - يرثى له على كافة المستويات وفى جميع الاتجاهات! فكل أحوالنا تسير فى اتجاه واحد ثابت؛ هو اتجاه محو الهوية وضياع معالم

الشخصية العربية بكل ما كان فيها من استقلالية وكرامة وعزة وإباء، تسير في اتجاه التقليد والتبعية المطلقة لكل ما يأتينا من الغرب، تسير في اتجاه التشتت والتشرذم والانغلاق على أنفسنا في دويلات صغيرة مقطوعة الصلة ببعضها. لا تستطيع كل منها بمفردها أن تعيش إلا مرتبطة بالشبكة الغربية الرهيبة التي اقتربت من ابتلاع الجميع تحت مظلة ما يسمى الآن بالسوق " الشرق أوسطية". التي تتزعمها اسرائيل والمزمع تمريرها أثناء المفاوضات المتعددة الأطراف، عبر المفاوضات الجارية الآن لحل أزمة الشرق الأوسط.

ومع كل هذه القناعة التي تبدو عليها صورتنا الآن، فإنه إذا كان لدينا الشجاعة الكافية في مواجهتها كما هي وبلا رتوش، وامتلكنا إرادة التغلب عليها، فإن الأمر لا يزال بأيدينا وبأيدي ساستنا وحكامنا !

إن عاما جديداً يعني أملاً جديداً في مستقبل أفضل، ذلك الأمل الذي لا يتحقق إلا عبر تصميم أكيد على "الفعل" المؤدي إلى نتائج إيجابية. وهذا " الفعل " يتطلب إصرار كل المثقفين العرب، وكل مخططي السياسة العرب، وكل مجالس الشعب والشورى العربية، ومع أولئك وأمامهم كل القادة العرب، يتطلب إصرارهم – كل حسب

منصبه وقدراته ومواهبه – على رسم صورة واقعية جديدة للعمل العربى المشترك تكون معالمها الرئيسية من البساطة بحيث لا تدخلنا فى دوامة الإلغاز وحديث " العقبات " و" الأزمات " الخ.

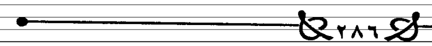
وأكاد أرى ملامح هذه الصورة البسيطة تتلخص فى أمرين اثنين يبدأ بهما العمل :

(١) الاتفاق على استراتيجية القبول بالحد الأدنى للعمل العربى المشترك فى كل المجالات بما يحقق المصالح العليا للعرب جميعاً.

(٢) وعلى هذا الأساس يمكن إعادة جمع الشمل العربى والبدء فوراً فى مفاوضات إنشاء "التكتل الاقتصادى العربى " وإنشاء آلية جديدة لنظام دفاعى عربى مشترك، وذلك حسب ما تمليه مصالح الجميع، والاستفادة فى ذلك بكل الموارد العربية المتاحة فى هذا السبيل حسب إمكانيات كل دولة ودورها الذى تحدده طبيعتها ومواطن قوتها.

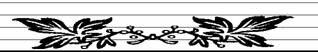
إن الأيام القادمة والسنين الباقية من هذا القرن ستكون بالنسبة لنا هى الحد الفاصل بين بقائنا كأمة عربية على قيد الحياة، وبين " خروج العرب من التاريخ" على حد تعبير الدكتور فوزى منصور أحد الباحثين العرب الجادين! وفى ضوء تمسكى الشديد بالأمل

والتفاؤل - رغم قتامة الحاضر - أدعو الله أن يكون عام ١٩٩٤م
هو عام " الفعل و " العمل" العربى المشترك، هو العام الذى نتخلص
فيه من السياسات السلبية الحالية التى أدت وستؤدى الى تكريس
وصناعة الفقر للإنسان العربى المكافح الصابر الذى آن الآوان ليعبر
حكامه عن آماله وطموحاته ويصنعون به وله المستقبل الأفضل.



(١٩)

سيل المذكرات السياسية
وغياب الوعى التاريخى (*)



(*) نشرت بصحيفة " الخليج" اليومية التى تصدر بدولة الإمارات العربية المتحدة — الشارقة فى ١٩٩٢/٩/١٥

سيل المذكرات السياسية
وغياب الوعى التاريخى

انتشرت فى الفترة الأخيرة من تاريخنا المعاصر موضة كتابة المذكـرات السياسـية سواء من كبار الساسة والعسكريين باعتبارهم صـناع القرار السياسى والحربى، أو من شهود العيان لتلك الأحداث السياسـية والحـربية سـواء مـن المقربين لصانعى القرار أو من الصـحفيين والكتاب. وواكبت أجهزة الإعلام هذه الموضة فعرضت الصـحف القوميـة والحزبية وكذلك البرامج الإذاعية لتلك المذكرات وأخذت على عاتقها استخراج النتائج التاريخية المترتبة على مذكرات س أو ص مـن هـؤلاء الكـتاب (كـتاب المذكرات) الذين لاتخرج مذكـراتهم عن كونها مجرد ذكريات شخصية حول أحداث عاشوها أو شـاهدوا صنعها. وكانت تلك الذكريات فى معظم الأحيان موجهة للدفاع عن أصحابها وأدوارهم التى كانت – كما يصورونها – دائماً صـلبة وعظيمـة.!! أو مواقـف للتقـليل من شأن مواقف الآخرين والتهوين من أهمية دورهم فى تلك الأحداث ..!!

ولا شك أنه فى هذا الإطار تضيع الحقيقة التاريخية ولا يصبح لها وجود، ومن ثم فإن الاستناد على تلك المذكرات فى التأريخ عموماً أو فى الحكم على الأحداث التاريخية هو استناد فى غير

موضعه سواء من جانب المثقف العادى الذى يهتم كثيراً بمعرفة ما حدث فى الحقبة القريبة التى عاشها ولم يعرف عنها الكثير، أو بالأحرى من جانب المؤرخ الذى لا يجب أن يمسك بقلمه ليؤرخ إلا إذا كان أمامه الوثائق الدامغة حتى يضمن لتأريخه القدر المطلوب من الموضوعية العلمية وهى أهم صفة ينبغى أن تتوفر فى المؤرخ . وفى اعتقادى أن تلك المذكرات لا يمكن اعتبارها – وهى بهذه الصورة – من الوثائق التى يعتد بها حين التأريخ؛ فهى كما ذكرنا مجرد خواطر كتبت لأغراض شخصية وتجارية وليس لأغراض تاريخية.

وهنا يكون السؤال: لماذا إذن كل هذا السيل من الدعاية لهذه المذكرات، ولماذا تتهافت عليها دور النشر حتى أصبح كل من دخل الوزارة شهرا يفكر فى كتابة مذكراته، وكل من خاض معركة ولو فاشلة يريد كتابة مذكراته، وكل كاتب يريد أن ينفث سموما وأحقاداً يكتب مذكراته ليؤكد لنفسه أنه كان صاحب دور فى الأحداث؟!!

إن الإجابة الوحيدة التى أجدها لهذا السؤال هى، غياب الوعى التاريخى لدينا سواء لدى من يكتبون تلك المذكرات متصورين بذلك أنهم يقومون بعمل تأريخى جليل وهم فى واقع الأمر لا يقدمون إلا هموماً شخصية، أو لدى دور النشر التى تنسى – فى هذه الأحيان – أن رسالتها الأولى هى نشر الحقيقة وخدمة المجتمع ثقافياً

وحضارياً وليس فقط خدمة أصحابها وتضخيم ثرواتهم أو لدى المؤرخين الذين يستندون فى كتاباتهم التاريخية على تلك المذكرات وما تكشفه من صراعات وأسرار خفية ناسين أن التاريخ الحقيقى للأمم والشعوب لا يتوقف كثيراً أمام تلك السخافات، أو لدى القارئ العادى شديد اللهفة لمعرفة أى شىء عن فترات طمست فيها الحقائق ولكنه كلما قرأ المزيد من هذه المذكرات التى نزلت عليه كسيل لا ينقطع يكتشف أن الحقيقة قد طمست أكثر، بل قد غابت تماماً، لأن الحقيقة – فى واقع الأمر – واحدة مهما تعددت جوانب الكشف عنها. وأصحاب هذه المذكرات قد غرقوا فى سرد تفاصيل حياتهم وحياة غيرهم من أشخاص ماتوا – فى معظم الأحوال – فأرادوا أن يهيلوا عليهم التراب، فإن كانوا من الاشتراكيين كان النفاق والوصولية والمحسوبية مقصورة على أهل اليمين، وإن كانوا من أهل اليمين كانت كل الرزايا من نصيب الاشتراكيين والشيوعيين .. إلخ وهكذا يغرق القارئ بين معارك لا شأن له بها، وفى دوامة من تصفية حسابات ليس فيها من الحقيقة شىء، فكأنه يلهث وراء معرفة حقيقة من طريق لا يوصل إلا إلى سراب.

إن غياب الوعى التاريخى يعنى فى اعتقادى غياب العقل لدى من يتعرض للتاريخ سواء كان كاتبه أو متلقيه أو حتى لدى صانع أحداثه؛ فكلمة الوعى تعنى ببساطة المعرفة العقلية الشاملة بكافة

العناصر والاحساس العميق بأهمية كل عنصر من عناصر التاريخ، تعنى الإلمام بالخيط الأساسى الذى يربط أحداث التاريخ ماضيه وحاضره ثم شد الخيط لاستشراف أحداث المستقبل والتنبؤ بها وتقييم دورنا الماضى والحاضر وهل يمكن أن يكون لنا دوراً فى المستقبل؟ وليس المقصود هنا النظر فيما مر أو يمر بنا من أحداث بوصفنا وحدة جغرافية منعزلة مستقلة، بل المقصود هو النظرة الشاملة التى تربط بيننا وبين كافة الأمم والشعوب وما مر وما يمر بها من أحداث، فتقييم دور أى أمة – كما نبهنا إلى ذلك فلاسفة التاريخ ــ ليس بالقياس إلى ما تقدمه إلى نفسها أو إلى المنطقة التى تقع فيها بل بالقياس إلى ما أدته وتؤديه من إسهام مؤثر فى تقدم ورقى البشرية ككل. ففى هذا الإطار فقط تتكشف حقيقة أدوار الشعوب والأمم فى التاريخ العالمى، وفى هذا الإطار أيضاً يتضح عظمة أو تفاهة دور زعماء وأبطال التاريخ.

من هنا نكتشف ضآلة وضحالة ما يكتبه هؤلاء عن أنفسهم وعن غيرهم. إن التعرض للتأريخ أيها السادة له أصوله وقواعده، فضلاً عن أن منطق التاريخ لا يكشف عن نفسه لأناس لا يرون فيه إلا أنفسهم، فمنطق التاريخ وكشف كوامنه واستشراف آفاق المستقبل منه يحتاج الى جهد وعبقرية ابن خلدون، إلى عقلانية هيجل. إلى صبر شبنجلر، وتحدى توينبى. إن التاريخ ليس ساحة فضاء يلعب فيها اللاعبون بلا قوانين أو ضوابط بل هو علم له قواعده ومناهجه.

وأعرف من يعرف قيمته ويستطيع الكشف عن منفعته في تقدم الأمم ورقى الشعوب من خلال الكشف عن القوانين العامة المسيرة للتاريخ الإنسانى ككل هم فلاسفة التاريخ. فهل قرأ هؤلاء شيئاً عما يسمى بفلسفة التاريخ فضلاً عن علم التاريخ؟! أكاد أجزم بأن ذلك لم يحدث وإلا لكان معظمهم قد توقفوا عن الخوض فى غمار التاريخ وتركوا الأمر للمختصين المتخصصين فيه.

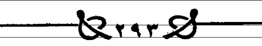
إن الحس التاريخى لدينا كما أراه الآن قد توقف عند النظر فى الماضى دون الحاضر، ناهيك عن المستقبل الذى لا يفكر فيه أحد، وكأن التاريخ يعنى فقط نبش أحداث الماضى دون الاستفادة منه فى فهم الحاضر وإعطائه دفعة التقدم المطلوبة ودون استشراف أحداث المستقبل ولفت الأنظار إلى ما ينبغى عمله لكى يكون لنا ريادة ودوراً فيما سيجرى من أحداث عالمية.

ويتملك المرء الدهشة حينما يقارن بين المصرى المعاصر والمصرى القديم، فقد كان لدى أجدادنا القدامى حساً تاريخياً عظيماً يعرف قيمة النظر فى الماضى ليستفيد منه فى أن يعيش حاضراً زاهياً ويستشرف آفاق المستقبل المشرق. لقد كان مركب الروح المصرية القديمة يمتلك هذا الحس التاريخى واضح المعالم؛ فقد وعت الروح المصرية – على حد تعبير الفيلسوف الألمانى شبنجلر –

الماضى والمستقبل على أنهما كامل عالمهما، أما الحاضر المطابق للوعى اليقظ فبدا لها حداً بسيطاً ضيقاً ومشتركاً بين امتدادين غير قابلين للقياس. لقد استدل شبنجلر على هذا الحس التاريخى الواعى لدى المصرى القديم من النظر فى الحضارة المصرية القديمة التى كانت تجسيداً للاهتمام بالمستقبل الذى تبدى فى كل مظاهر الحضارة المصرية، وإذا أردت الدليل على ذلك فانظر فى مادة تماثيلهم التى اختاروها من الصخر والجرانيت الصوان التى تتحدى تأثير الزمن، وفى أنظمتهم الإدارية العظيمة التى خططت للمستقبل بانشاء شبكات الرى الواسعة. لقد كان اهتمام المصرى القديم بالتاريخ اهتماماً عظيماً نراه واضحاً جلياً فيما خلفه من نقوش تحتوى على تسجيل لأهم الأحداث التاريخية التى مرت بهم، إنهم حنطوا تاريخهم وحفظوه كما حفظوا جثث رموز هذا التاريخ وصناعه من الملوك وكبار القادة.

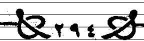
تم كل ذلك فى الوقت الذى عاصرتهم فيه حضارات لم تعرف من هذا الحس التاريخى شيئاً، وأتت بعدهم الأمة اليونانية ولم تعرف من أمر التاريخ شيئاً اللهم إلا فى عصرها المتأخر.

أين نحن من هؤلاء الأجداد، وأين صناع هذا الوعى التاريخى الحاد والذى كان أهم عناصره لدى أجدادنا النظر فى الماضى



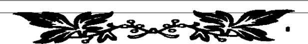
لاستشراف آفاق المستقبل. إننا قد أفتقدنا هذا الحس التاريخى وأصبحنا بتضافر عوامل وضغوط نفسية وسياسية واقتصادية عديدة، لانرى إلا ما تحت أقدامنا، أصبحنا كنارسيوس ذلك الفتى الأسطورى الذى أحب صورته لدرجة أنه من فرط حبه لها أخذ يتأملها على صفحة النهر حتى غرق فيه!. هكذا نحن نضخم فى دورنا كأفراد وكأمة حينما نتحدث عن أنفسنا فنتصور خطأ أننا صانعو التاريخ وحدنا، ونضخم فى إنجازات زعمائنا حتى نتصور أنه لا أخطاء لهم إن أحببناهم، أو أن كل قراراتهم وما قاموا به كان خطأ إن كرهناهم، وحينما يعود إلينا الوعى يكون وعياً زائفاً لأنه يفتقر فى معظم الأحيان إلى الموضوعية، وإلى الوعى بلحظات التاريخ الثلاث، وإلى الضمير الوطنى اليقظ الذى يغلب مصلحة الأمة على مصلحة الفرد.

فهل نأمل فى جيل جديد من المؤرخين يحترم تاريخه، ويقيمه بموضوعية ونزاهة من خلال منهج علمى صارم ونظرة فلسفية شاملة؟!



(٢٠)

حوار حول :
دور الفلسفة فى الوطن العربى ومشكلات الخطاب الفلسفى المعاصر.. (*)



(*) أجرى معى هذا الحوار الأستاذ عبد السلام فاروق المحرر الثقافى لجريدة الأهرام المسائى. ونشر فى ١٩٩٦/٩/٢٢م.

حوار حول :

دور الفلسفة فى الوطن العربى

ومشكلات الخطاب الفلسفى المعاصر..

- كيف ترى الفلسفة وما هى السمة المميزة للفلسفة إذا ما قورنت بغيرها من العلوم الأخرى كالفيزياء والكيمياء؟!

على الصعيد التاريخى، كانت الفلسفة هى أم العلوم - كما تعلم - لأنها كانت تعنى محبة الحكمة، وكانت أى معرفة يصل إليها الإنسان فى أى جانب من جوانب الحياة تدعى حكمة ولما كان طليعة البشر فى كل المجالات " أى حكمائهم" معنيين باستمرار بتجديد المعرفة وتطويرها فى كافة الميادين فكانوا جميعاً يطلق عليهم محبى الحكمة (وباللغة اليونانية يعنى فلاسفة). وظلت الفلسفة هى اللفظة التى تطلق على كل العلوم. وظل فيلسوفا كل من يصل إلى أى معرفة فى أى علم حتى بدأت العلوم تستقل عن الفلسفة شيئاً فشيئاً؟ ففى نهاية العصر اليونانى بدأ استقلال العلوم الرياضية وعلى يد العرب ثم علماء مطلع عصر النهضة الغربية بدأ استقلال العلوم الطبيعية وفى العصر الحديث بدأت العلوم الإنسانية أيضاً تستقل عن الفلسفة. وهكذا..

ولعلك تعنى بسؤالك ماذا عن دور الفلسفة الآن ونحن فى عصر العلم؟!

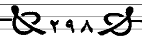
فى الحقيقة أن الكثيرين يعتقدون أن دور الفلسفة يتضاءل كلما تقدمت المعرفة العلمية وكلما امتلأت حياة الإنسان بالمكتشفات والمنتجات التكنولوجية المتقدمة التى جعلت الإنسان أكثر رفاهية وأكثر استمتاعاً بالحياة. وهذه نظرة غير صحيحة. لأنه يبقى للفلسفة دورها الرائد فى تبصير الإنسان بالنتائج المترتبة على هذا التقدم التكنولوجى الخطير وكيفية ترشيده لخدمة الإنسان فما نراه اليوم من دعوات للحفاظ علىّ البيئة وتحجيم تدخل العلم فى الطبيعة إنما هى دعوات فلسفية فيما يعرف اليوم بفلسفة البيئة وهو من أحدث فروع الفلسفة. وإذا كان ذلك يتعلق بالدور الأخلاقى للفلسفة فى عالم اليوم، فإن دورها المعرفى لم ينقطع بعد إذ لا تزال الأسئلة التقليدية عن حدود المعرفة الإنسانية وحدود التقدم الإنسانى وتوجيهه، وعن الغايات التى تحققها هذه المعرفة الإنسانية. لا تزال هذه الأسئلة قائمة وتحتاج إلى إجابات فلسفية مستمرة. وقد تدهش حينما تعلم أن الحاجة إلى الفلسفة بمعناها التقليدى – أى البحث فى طبيعة الوجود وماهيته وفى الوجود الإنسانى وعلاقته بالطبيعة وبما وراء الطبيعة – لا تزال قائمة فهذه أسئلة إنسانية تلازم الوجود الإنسانى فى كل عصر ولدى كل إنسان. وإن كانت الأديان والوحى قد أجابت على الكثير من هذه الأسئلة إلا أن العقل الإنسانى دائماً ما يؤدى دوراً هاماً بالنسبة للعقيدة الدينية سواء فى حال تلقيها وتحليلها والاقتناع بها أو فى التفاعل مع الشرائع

التى تفرضها ومن ثم فإن فاعلية العقل الإنسانى مهمة حتى فى حال التسليم والإيمان ولعل ذلك هو ما جعل الإسلام – خاتم الأديان – يخاطب العقل الإنسانى قبل أن يخاطب عاطفة الإنسان وفؤاده!

وهكذا نرى أن للفلسفة دوراً كبيراً بالنسبة للعلم؛ فهى تبحث فى مفاهيمه وتقيم نتائجه وترشد توجهاته (وهذا ما يعرف بفلسفة العلم). بل تحاول المساهمة فى تطوير مناهجه وتجديد تقنياته (وهذا هو دور المنطق ومناهج البحث العلمى). وهى تؤدى دوراً أكبر بالنسبة للدين كما أوضحنا من قبل فمناط الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية مثلاً هو العقل كما قلنا. وهى من ثم تؤدى دوراً مهماً فى حياة الإنسان العملية فى كافة جوانبها، فالفلاسفة هم البوصلة الموجهة للتقدم الإنسانى والمرآة الأكثر كشفاً لما يحدث فى الواقع الإنسانى، وهم الأكثر إدراكاً لأبعاد الوجود الإنسانى والمعبرين عن طموحات الإنسان فى كل عصر.

– ما هو موقع العرب على خريطة العالم الثقافية والمعرفية؟!

سؤالك هذا مهم وخطير. وأستطيع أن أجيبك ببساطة أن موقع العرب على الخريطة الفكرية قد يكون أحسن حالاً من موقعهم على الخريطة السياسية والاقتصادية فى العالم وأن تأثر تردى الموقع الفكرى بالموقعين السياسى والاقتصادى!



إن ثمة محاولات فلسفية عديدة فى الوطن العربى تحاول المساهمة الإيجابية فى الحوار الثقافى والمعرفى العالمى. وإن كانت محاولات تحاول مخاطبة العالم الغربى من منطقة وفى إطار التبعية له. وهذا فى اعتقادى يمكن أن يكون السبب فى فشلنا على المدى الطويل – وإن نجحنا على المدى القصير – فالفاعلية الثقافية الحقيقية لا ينبغى أن تقتصر على مجرد ردود الأفعال ومحاولة الدفاع عن ثقافتنا فى مواجهة ثقافة الآخر، بل من الضرورى بناء الثقة فى النفس ومخاطبة الآخر "خطاب الند للند" ولدينا من الرصيد التاريخى والثراء المعرفى والنظرة الكونية والأخلاقية الشاملة ما يمكننا بالفعل من أن نكون مشاركين فى الحوار الحضارى العالمى بشكل إيجابى.

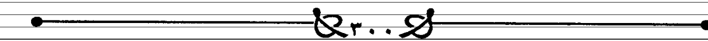
– هذا يقودنا إلى سؤال آخر عن تقييمك لحركة النهضة فى الفكر العربى الحديث.. كيف تنظر إلى أثر الكتابات الغربية فيها؟!

لعل فى ختام إجابتى على السؤال السابق إجابة على سؤالك هذا، فحركة النهضة فى الفكر العربى الحديث بدأت متأثرة بلا شك بالفلسفات الغربية المختلفة كالتطورية والماركسية ثم بعد ذلك بالفلسفة التحليلية والوضعية وكذلك بالفلسفة الوجودية والبراجماتية وغيرها من الفلسفات الغربية المختلفة. ولا عيب فى ذلك، فنقطة

البداية فى أى تقدم بالنسبة لأى أمة متخلفة تكون بالاستفادة من أوجه التقدم لدى الأمم الأكثر تقدما. ولما كانت أوروبا والغرب هى الحضارة الأكثر تقدماً فى عالم اليوم. كان لابد أن تبدأ نهضتنا الفكرية من الاستفادة من الفكر الغربى والعلوم الغربية بترجمة أهم النصوص المعبرة عن هذه الاتجاهات الفكرية الجديدة وتحليلها والاستفادة منها فى تنمية ثقافتنا المحلية وتجديدها وتنشيط العقلية العربية بعدما عانت كثيراً من التخلف والغياب فيما قبل القرن الماضى. لكن المشكلة هى أننا لا نزال رغم مرور قرنين من الزمان " محلك سر" تقريباً . ولا تزال الدعوة السائدة رغم هذه المدة الطويلة أن النهضة تبدأ من الغرب. أو بمعنى آخر تبدأ من شبه قطيعة مع التراث والأخذ بكل ما هو غربى فى كل المجالات.. وهذه دعوة تغريبية ليس لها من نتيجة إلا انسحاقنا فى الآخر وانهيار هويتنا القومية وفقداننا للفاعلية والإبداع فى النهاية!!

– باعتبارك أحد أبرز المشتغلين بالفلسفة اليوم، فما بمقدور الفلسفة أن تكون؟ وما الذى تستطيع الفلسفة أن تقدمه للمجتمع العربى فى "أزمته" الراهنة؟!

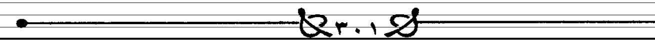
أولا لى تحفظ على تعبير " الأزمة" الذى ورد فى سؤالك لسببين أولهما أن كل الحقب لدى أى شعب وفى أى عصر وتحت أى



ظروف يمكن أن ندعوها بحقبة الأزمة ونتساءل عن أسبابها وكيفية الخروج منها .. الخ . وثانياً: أنه لو كنا فعلاً نشعر بالأزمة التى نتحدث عنها شعوراً حقيقياً لكنا قد نجحنا منذ زمن - مع تجدد الأزمنة والأزمات - فى تجاوزها بعد تحليل أسبابها وإدراكنا لطرق الخروج منها والعمل بجدية حتى نتجاوزها!!

لكن للأسف أننا لم نستطيع - رغم كل الشعارات المرفوعة من مختلف الاتجاهات الفكرية - أن نشعر بأزمتنا الحقيقية ولم نتفق بعد على توصيفها حتى نحاول بإخلاص وموضوعية تحليل أسبابها ونلمس طريق الخروج منها .. الخ..

إن أزمتنا الحقيقية فى رأيى أننا لم نتفق بعد على "ما هى الأزمة" التى نمر بها كأمة هل هى أزمة فكرية أم أزمة سياسية أم أزمة اجتماعية أم دينية .. الخ وإذا كان للفلسفة من دور فدورها الحقيقى فى الوقت الراهن هو تحديد نوع الأزمة التى يعانى منها مجتمعنا العربى أو بمعنى آخر دورها أن توضح لنا " الأزمة" التى تقف وراء كل ما نعانيه من أزمات وإحباطات على كافة الأصعدة وعلى مختلف المستويات.



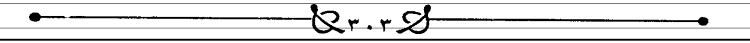
– تعددت مناحى الخطاب الفلسفى العربى وكثر الحديث عن ضرورة بناء فلسفة عربية معاصرة. فما هو المقصود بضرورة أن تكون هناك فلسفة عربية؟ وما هى المشروعات الفلسفية العربية التى ترى أنها جديرة بالاهتمام من وجهة نظرك؟!

سؤالك كبير ومركب ويحتاج لحوارات وليس لمجرد سطور في حوار. لكن على أى حال يمكننى أن أجيبك باختصار. أننى لست من المتفائلين إزاء الخطاب الفلسفى العربى المعاصر لسبب بسيط قد تندهش له هو أنه خطاب معقد وغير مفهوم فكتاب المشاريع الفكرية الذين تسأل عنهم لا يكتبون مخاطبين الوعى العربى للقارئ العربى، بل يخاطبونه بلغة اصطلاحية معقدة وبأفكار مبهمة تفتقد الوضوح وربما يكون ذلك هو السبب الرئيسى وراء انعدام التفاعل بين هذه المشاريع الفكرية وبين متلقيها! وأقولها لك بصراحة إنه إذا افتقد الخطاب الفلسفى الوضوح افتقد الفاعلية والتأثير. فضلاً عن أن افتقاده للوضوح معناه افتقاد صاحبه لنفس الشىء، ففاقد الشىء لا يعطيه كما تعرف! إن الجدل الفلسفى الدائر بين الخاصة لم يعد قابلاً لأن تتداوله الدوائر الأقل فالأقل حتى يمكن أن يتقبله عامة الناس فى المجتمع!



والأمر ليس استخدام لغة اصطلاحية غامضة تحتفظ بأصولها الغربية فى لغاتها المختلفة فقط، وإنما أيضاً هناك نوع من الجفوة الفكرية بين أصحاب هذه المشاريع وبين الواقع الذى يعيشه الناس من ناحية، وبين معتقدات هؤلاء الناس من ناحية أخرى! فإذا كنت تفكر ولا تضع من تفكر له (أى لا تضع الناس وثقافتهم ومعتقداتهم الدينية والاجتماعية) فى اعتبارك فكيف تطلب منه أن يتفاعل معك!! فكيف تبدأ بقطع الصلة بينك وبين مجتمعك وتطلب منه أن يستمع إليك؟!

أما مسألة بناء فلسفة عربية فأرى أن ذلك أمراً لا يزال بعيد المنال؟ كيف يتحدثون عن بناء فلسفة عربية، بل كيف يبنون مشاريع فكرية ونحن لا نملك تصوراً محدداً مستقلاً لتاريخ الفلسفة! كيف لمفكرينا أن يفكروا باستقلال وبهدف خدمة مجتمعهم دون أن يؤسسوا أولاً نظرتهم المستقلة لتاريخ الفلسفة، ودون أن يعرفوا موقعهم على خريطة هذا التاريخ. هل تصدق أننا لا نملك حتى الآن تأريخاً عربياً للفلسفة بعد!! إن وعينا بتاريخ الفلسفة قائم كله حتى الآن على مترجمات وعلى آراء المؤرخين الغربيين الذين لا يزالون يشكلون وعينا بتاريخ الفلسفة! وقد تندهش أكثر إذا قلت لك أن معظم دارسى الفلسفة العرب لا يزالون يسلمون تسليماً بوجهة النظر الغربية فى تاريخ الفلسفة سواء نقطة بدايتها من اليونان أو تطورها من وجهة



نظر غربية بحته.. لانزال نردد أن نقطة البداية هى طاليس فيلسوف اليونان. وأن فلاسفة الإسلام ليسوا إلا مجرد شراح للفلسفة اليونانية، وأن تاريخ الفلسفة كله تاريخ غربى ليس لنا فيه ناقة ولا جمل؛ فكل ما يدرس غربى وكل مناهجنا الفلسفية تركز على تدريس الفلسفة الغربية وحتى الفلسفة الإسلامية تدرس من ذلك المنظور الذى حدثتك عنه!!

كيف لأمة هذا هو وعى أبنائها بتاريخ الفلسفة – الذى نسلم مبدئياً بأنه كله تاريخ غربى – أن يكون لها فلسفتها الخاصة! اللهم إذا كانت هذه الفلسفة ستكون تابعة لإحدى الفلسفات الغربية بالفعل؟!

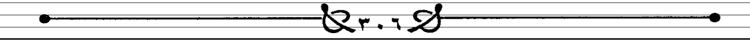
لعل ذلك يفسر لك ما قلته سابقاً عن المشاريع الفلسفية العربية، إنها جميعاً مشاريع مقَطوعة الصلة بواقعها فهى مقطوعة الصلة بواقعها لأنها لم تبدأ منه، ولأنها لم تعيه حق الوعى، فالوعى الفلسفى بالواقع لا يمكن أن يكون وعياً باللحظة التاريخية الحاضرة، وإلا يكون وعياً" فاقد الوعى" يكون وعيا زائفاً؛ فاللحظة الحالية لحظة قاتمة، لحظة لا ترى فيها إلا إننا لا نملك شيئاً نصنعه إزاء الهيمنة الغربية فى كل شىء. ولا نملك إلا التبعية له وتقليده فى كل شىء الخ. أما لو امتد الوعى إلى اللحظات الثلاث للتاريخ (الماضى – الحاضر – المستقبل). فإن المسألة ستختلف! فماضينا العريق بتنوع منابعه وبثرائه اللامحدود (فنحن أبناء حضارة مصرية قديمة

عريقة ومثيلاتها فى بلاد الرافدين والشام وأبناء حضارة عربية سابقة على الإسلام ونملك حضارة إسلامية قادت العالم فكرياً وعلمياً عدة قرون) وحاضرنا ينبغى أن يكون امتداداً لماضينا وليس لماضى أو لحاضر غيرنا. ومن ثم ينبغى - وهذه مسألة حتمية - أن نتواصل مع ماضينا بتتابع لحظاته وتنوع ثقافاته وثرائها. وذلك كله لا يتأتى لنا ويصبح جزءاً من وعينا إلا عبر تأريخ عربى للفلسفة وللعلوم فالوعى باسهامنا فى التاريخ الحضارى للعالم من شأنه أن يكسبنا الثقة فى أنفسنا وفى إمكانية التواصل مع الماضى وتجاوز محنة التردى فى الحاضر والمشاركة بفعالية وايجابية فى بناء مستقبلنا الخاص - الذى قد يتشابك فكرياً وحضارياً مع الغرب ويستفيد من كل منجزات العصر ومناهجه - لكنه بالقطع سيكون مختلفاً عن ما يجرى فى الغرب! إن رؤيتنا المختلفة والمستقلة هى أساس مشاركتنا الفاعلة فى العصر وأساس احترام الآخر لنا وليس العكس.

أما سؤالك عن المشاريع الفلسفية العربية الجديرة بالاهتمام من وجهة نظرى، فأجيبك أن كل ما يكتب فى هذا الصدد يثير اهتمامى واهتمام أى مخلص يريد النهضة لأمته. لكن ما يحيرنى دائماً فى هذه المشاريع هو التساؤل عن جدواها؟! وعن مدى ارتباطها بواقع المجتمع الذى تريد إصلاحه - كما سبق وأشرت فيما قلت؟! وما

يقلقنى فيها أيضاً هو أن معظمها لم يضع فى الاعتبار التنوع التاريخى لأمتنا وأعنى بذلك على سبيل المثال أن تاريخنا لا يتوقف عند بداية العصر الإسلامى بل هو سابق لذلك بكثير. وأنه حتى فى العصر الإسلامى كان يوجد التنوع الثقافى فى اطار الوحدة الإسلامية. لقد كان العرب والاتراك والفرس وغيرهم من الأجناس يعملون فى إطار الإسلام. وهذا التنوع فى اطار الوحدة السياسية والاقتصادية والدينية هو أمر غاب عن وعى الكثير من المحاولات التجديدية التى كان ينبغى أن تعمل على إحيائه والعمل بمقتضاه!. إن المشكلة هى أننا نسعى ونتجه ـــ ولا أدرى عن وعى أو دون وعى ـــ إلى النظرة التجزيئية التى تفرق ولا توحد، تظهر الاختلاف دون أن تضع يدها على نقاط الالتقاء والاتفاق. هذا على صعيد المحاولات التى حاولت التجديد فى الفكر العربى الإسلامى من داخله.

أما المشاريع الأخرى التى تحاول تجديد فكرنا العربى من خارجه أو مستفيدة من المناهج والفلسفات الغربية المعاصرة فهى محاولات تقف عند حد التحليل والفهم المعرفى للعقلية العربية ولقدرتها على التجديد والابتكار. وهى محاولات إن أخلصت فى تحقيق هدفها وهو كشف سلبيات العقلية العربية وإيجابياتها فهى ربما تضع يدنا يوما على بداية الطريق لفهم أنفسنا بشرط أن يتخلى

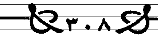


أصحابها عن الإلغاز والإبهام وأن يستخدموا لغة واضحة مفهومة للناس بدلاً من هذه اللغة الإصطلاحية التغريبية التى يستخدمونها. وهذا لن يحدث إلا إذا بدأوا يفكرون معنا باللغة العربية ويعيشون معنا الواقع الذى نعيشه ويفكرون لمصلحتنا وليس لتحقيق أمجاد شخصية زائفة وزائلة.

– سؤال أخير.. ماذا ينقصنا لكى نحقق ما نتمناه لأنفسنا على الصعيد الفكرى؟

ينقصنا القدرة على الحوار الذى يقبل أطرافه قبل أن يتحاوروا الرأى والرأى الآخر، الحوار الذى يمكن أن نصل من خلاله إلى أرضية مشتركة نقف عليها رغم اتجاهاتنا الفكرية المتباينة ورغم اختلاف رؤية كل منا عن الآخر. الحوار فى هذه الحالة سيكون بناءً ومثمراً وسيكون بداية لإدراكنا جميعاً أننا إنما نستهدف تحقيق مصلحة أمتنا وإن اختلفت الرؤى والسبل. وهذا ليس بالأمر السهل.. فهو أمر فى غاية الصعوبة فقبولنا بهذا معناه قبولنا للتغيير والتقدم ليس على الصعيد الفلسفى والفكرى وحده بل على الصعيد السياسى أيضاً. إن التحاور بغرض الوصول إلى الحقيقة يعنى قبول فكرة النقد وفكرة التغيير وفكرة التطوير والتجديد، وهذا كله سيكون علامة الصحة الفكرية والاجتماعية للمجتمع. وبالطبع بما أن طليعة المجتمع

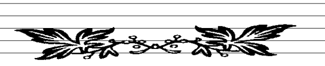
هم المثقفون والمفكرون فعليهم يقع عبء البداية أى ينبغى أن يكونوا قدوة فى هذا المجال! وينقصنا بالإضافة إلى ذلك الإخلاص والجدية؛ الاخلاص والتجرد يعنيان أن المفكر إنما يعمل لمصلحة أمته ويعانى مشكلاتها معاناة حقيقية وهو حينما يعبر عن هذه المشكلات بإخلاص وتجرد إنما يتناسى مشاكله ومعاركه الشخصية ويترفع عن ايذاء الآخرين بسبب اختلافه معهم، سيصبح" الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية" كما يقولون. ونحن نريد أن يفعلوا ذلك ويلتزموا به فعلاً! والإخـــلاص فى الحـــوار والـــتفكير يعنى بطبيعة الحال أنه سيكون حـــواراً جـــاداً وتفكيراً هادفاً وليس لمجرد استهلاك الوقت أو جلب الأموال وتحقيق المنافع الشخصية. إننا أحوج ما نكون فى هذه الفترة بـــالذات إلى الحـــوار المخلص الجاد الذى يترفع أطرافه عن تصفية الحسابات الشخصية وتحقيق الأمجاد والانتصارات الزائفة!



ملحق (١)

مراجعة أ.د صفى الدين أبو العز

النقدية لكتاب "ضد العولمة"



الأخ العزيز الأستاذ الدكتور / مصطفى النشار

أستاذ الفلسفة – كلية الآداب – جامعة القاهرة

فقد تلقيت ببالغ السعادة كتابكم الذى نشرتموه أخيراً تحت عنوان "ضد العولمة" وسعدت أكثر بالإهداء الذى سطرتموه وما يحمله من معان للحب والتقدير المتبادل بيننا.

ولقد وجدت فى هذا الكتاب الذى يضم عشرين مبحثاً تتناول العديد من القضايا الجدلية التى تهتم بها الأوساط الثقافية فى عالمنا العربى فى الوقت الراهن، ولعل من أبرزها المقال الذى يحمل عنوان "ضد العولمة" والذى نشرتموه فى جريدة الأهرام فى شهر أبريل الماضى. ولكم كنت أود أن تتاح لك الفرصة لتوسيع هذا المقال، ولإضفاء مزيد من التفصيلات الهامة التى تتعلق بتعريف ظاهرة العولمة التى مازالت تمثل مصطلحاً دارج الاستخدام دون أن يتحدد على نحو قاطع مغزاه ومرماه وما زالت هذه التعريفات تتضارب وتتعارض وإن كنت أعتقد أن هذا المصطلح – غير الدقيق – إنما يمثل فى واقع الأمر بديلاً للاستعمار والإمبيريالية والهيمنة، واستبعاد شعوب العالم الثالث على نحو ما كان يحدث فى أوج الهجمة الاستعمارية إبان القرنين التاسع عشر والعشرين.

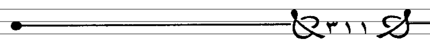
ولقـــد وجدت فى كتابكم متعة كبيرة وأنا أتابع ما أثير فيه من قضـــايا، ولعل هذا هو ما دفعنى إلى الكتابة إليكم شاكراً ومتمنيا أن أتلقى منكم ما يتوافر لديكم من الكتب التى قمتم بتأليفها.

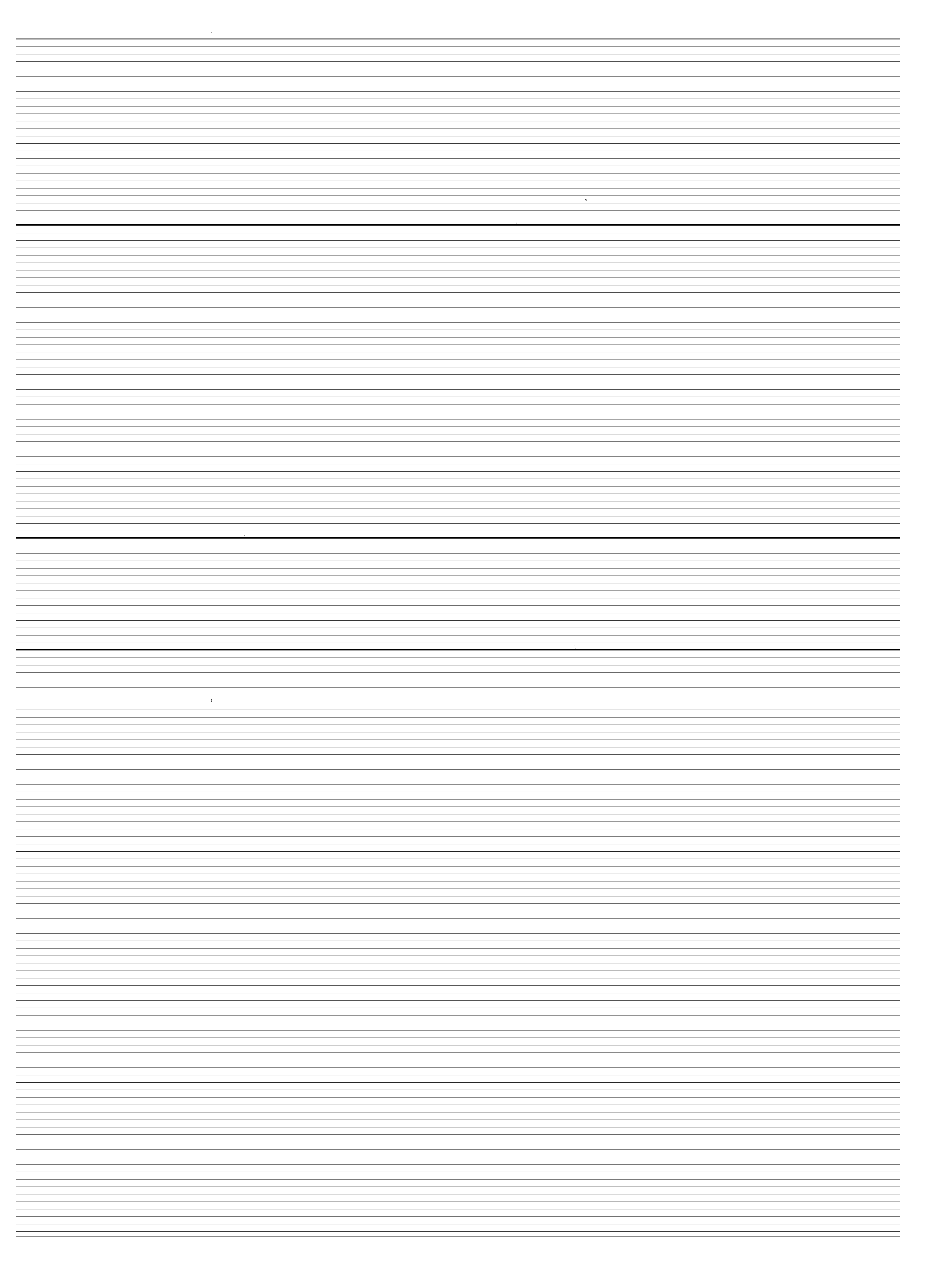
مـــرة أخرى أقدم لكم موفور الشكر متمنياً المزيد من العطاء النافع والمفيد.

مع صادق الود وعظيم التقدير،،،

رئيس الجمعية الجغرافية المصرية

أ.د محمد صفى الدين أبو العز

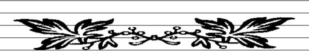




ملحق (٢)

مراجعة أ.د ماهر شفيق فريد

النقدية لكتاب "ضد العولمة"

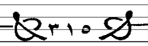


لـــم تعقم الفلسفة فى مصر – وإن فقدت الكثير – برحيل ذلك الجيل الممتاز من أساتذتها جيل زكى نجيب محمود، وعثمان أمين وزكريا إبراهيم وتوفيق الطويل وفؤاد الأهوانى وفتحى الشنيطى واضرابهم. فـــتحت قـــبة جامعة القاهرة – خمائل أكاديم – تكون جيل جديد من معـــلمى الفلســـفة تلمع منه عدة أسماء فى طليعتها الدكتور مصطفى النشـــار الذى أخصه بالحديث هنا وذلك بمناسبة صدور كتابه الجديد "ضد العولمة" (دار قباء ، ١٩٩٩).

مصطفى النشار فى إيجاز هو الاستاذ الذى ألم بتاريخ الفلسفة الغربية، ووضع كتبا كاملة عن أفلاطون وأرسطو تشهد بمدى عمق معرفته بالفكر الفلسفى منذ الجذور، ولكنه لم ينس – لحظة واحدة – انـــتماءه القـــومى ولا إسهام حضارته العربية الإسلامية فى تطوير الفكـــر وتقـــليب النظر فى أرجاء السماء والأرض. لهذا حرص فى كتـــبه "نحـــو تأريخ للفلسفة القديمة (١٩٩٢) على إبراز الدور الذى لعبته مصر فى مناقشة قضايا الوجود والسلوك والمعرفة، كما سعى إلى بـــلوغ "رؤيـــة جديـــدة" للـــتأريخ الفلسفى باللغة العربية" ودرس الأصـــول المشرقية لمدرسة الإسكندرية الفلسفية ، كما عنى بدراسة المصـــادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ونظر إليها من منظور شرقى. وفى فلســـفة السياســـة أخرج كتابا من "الخطاب السياسى فى مصر ،

القديمـــة" (١٩٩٨) وهو الآن فيما تقول قائمة مؤلفاته –عاكف على إعـــداد ســـفر عن تطور الفكر السياسى القديم من صولون حتى ابن خلدون. هذا إذن كاتب ذو مشروع فكرى واضح المعالم: إنه لا يأخذ قـــول الغربيين بأن الفلسفة بدأت بطاليس مأخذ التسليم الأعمى، وإنما يحـــاول أن يـــرتد بـــأولى المحاولات الفلسفية إلى حضارات مصر القديمـــة وأشور وبابل ومفكرى الهند والصين ثم مفكرى الإسلام من عـــرب وغيـــرهم ممـــن لم يقتصروا خلافا للظن الشائع على شرح مقـــولات أرســـطو وإلهيات أفلاطون وإنما نظروا إليها بعين أصيلة ونظر مستقل ترفده العقيدة الروحية ويشكل التراث القومى.

وكـــتاب مصطفى النشار الجديد "ضد العولمة" عشرون مقالة نشـــرت خـــلال الســـنوات العشـــر الماضـــية فى عدد من الصحف والمجلات المصرية والعربية، تعالج قضايا عامة كما تعالج مفكرين ومصلحين أفراداً. فالنشار يتحدث عن موقفنا من الفكر الغربى، وعن عصـــر المعـــلومات والانترنت، وعن التنويريين العرب ورسالتهم، وعـــن الحداثيين العرب والعيش بين الكلمات ، وعن استحالة الحوار بين حضارات الشرق والغازى الغربى، وعن أخلاق الإنسان العربى بيـــن الأصـــالة والتـــبعية، وعـــن دور الفلســـفة فى الوطن العربى ومشـــكلات الخطـــاب الفلسفى المعاصر. ومن بين رجالات الإسلام

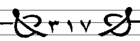


يخـــتار فيلســـوفاً هو الغزالى ، ومعلماً دينياً كان أيضاً ثائراً سياسيا ومصـــلحاً اجـــتماعياً هـــو الأفغانى ليخصهما ببحثين ممتعين هكذا يتكامل فى كتابه التنظير والتطبيق، التجريد والعينية، ويسعى الكاتب شأن زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا إلى مجاوزة أسوار الأكاديمية الضـــيقة لـــكى يخاطب القارئ العادى الذى يريد أن يزداد فهما لهذا العـــالم الـــذى نوشـــك أن ندخل بل لقد دخلنا فعلاً من بواباته: عالم العولمـــة وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) والحاسوب وكل ما قد يتولد عن هذه العجائب.

وعلى تنوع الآفاق التى يجول بنا مصطفى النشار فى رحابها مـــا بين فلسفة وأدب وسياسة وتاريخ وأخلاق وعلم وتكنولوجيا يظل هـــناك خيط موحد يربط بين هذه المقالات. إنه على حد قول المؤلف في تصـــديره "موقـــف يـــرفض القفـــز فوق الهوية الثقافية العربية الإســـلامية الشرقية والذوبان فى الثقافة الغربية " (ص٧). فهذا كاتب يشعر شعوراً قوياً بأن الحديث عن الحوار بين الثقافة العربية والثقافة الغـــربية لا معـــنى له ما دام الغرب حتى فى أكثر أحواله ليبرالية – يـــنظر إلينا نظرة السيد إلى المسود، ويعتبر وإن لم يقل ذلك صراحة ثقافـــة الغرب وحضارته هى المركز الذى تنبعث منه كل أشعة الفكر والتقدم وترتد إليه ولا ينظر إلى فلسفات الشرق ودياناته إلا على أنها

فى أحســن الأحــوال – تــنويع طــريف على المتن الأساسى: متن أفلاطون وأرسطو ومن تلوهما من فلاسفة الموروث الغربى.

مــن هــذا المــنطق يرفض مصطفى النشار فى مقالته "ضد العولمة" وهى واسطة العقد والحبة المركزية فى منظومة هذا الكتاب سعى الغرب، والولايات المتحدة الأمريكية بالذات، إلى محو الثقافات القوميــة والموروثــات العــرفية (مثلما فعل بالهنود الحمر والإنكا والأزتك) وادماجها جميعاً فى ثقافة واحدة هى ثقافة العم سام، حاملاً لــواء الشرائط والنجوم. إن جوهر فكرة العولمة هو إنحاء الفواصل بيــن الــثقافات القومية وتحول العالم إلى قرية كونية واحدة تتجاوب بنفس المؤثرات فى نفس اللحظة. وهذا قد حدث منذ الخمسينات حين ظهــرت رقائق السليكون، تلك المعجزة العلمية التى أنجبت الحاسب الإلكترونى وشبكة الإنترنت وألعاب الأتارى، وجعلت بمقدور الباحث فى الصــين أن يتابع أحدث ما ينشر فى بيرو. وقد يبدو هذا مستقبلاً جذاباً لأول وهلة، إذ أى عاقل يكره أن يرى العالم وقد توحد وزالت فيــه الفروق بين أبيض وأسود وأصفر؟ لكن العولمة فى حقيقتها كما يوضــح مصــطفى النشار ليست إلا محاولة لفرض الهيمنة الغربية على العالم بأسره، وتقديم المركزية الأوربية الأمريكية فى ثوب جديد وتحت أقنعة جديدة.



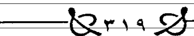
والـــرأى عـــندى – مواصلة لخط الأفكار الذى بدأه مصطفى النشـــار هـــنا أن فكـــرة العولمة ليست متأثرة بالوسائل التكنولوجية الحديثة فحسب وإنما هى بالمعنى الحرفى للكلمات ابنة هذه الوسائل، ولولاها ما كان يمكن أن يكون لها وجود . فالعلاقة بين فكرة العولمة والتكنولوجيا الحديثة علاقة جدلية بمعنى أن التأثر بينهما متواصل لا يـــنقطع، فالفكرة تدفع إلى مزيد من الابتكار التكنولوجى ، والابتكار التكـــنولوجى بـــدوره يولّد أفكاراً جديدة. وأعتقد آسفاً أننا لم نأخذ من التكنولوجيا الحديثة سوى مظاهرها وقشورها دون أى تزود بالمنهج العلمى الذى يكمن وراءها . ولهذا لست متفائلاً، كما يتفاءل كثير من أصـــدقائى ، بإدخال مناهج تدريس الحاسب الالكترونى فى مدارسنا وجامعتنا ، ولا انتشار الانترنيت فى مجتمعنا. وأعتقد أنه سوف يساء اســـتخدامها وقـــد بـــدأ يســـاء فعلاً فى استجلاب المثيرات الجنسية والـــبرامج الفاضحة والتجسس على أسرار الآخرين ، تاركين جانباً كـــل الرصـــيد المعرفى الجاد الذى يمكن لهذه الأدوات (فهى مجرد أدوات وليست غاية فى حد ذاتها) أن تزود به الباحثين.

كذلـــك أعـــتقد أن تأثير فكرة العولمة فى ثقافتنا سيكون تأثيراً ســـلبياً بمعنى أنه سيقلل من انتمائنا القومى والحضارى، ولن يجعلنا جزءاً من العالم المتقدم تكنولوجياً سواء فى أوربا الغربية أو الولايات

المتحدة الأمريكية أو اليابان. سيوهمنا بأننا أصبحنا جزءاً من العالم الحديث الذى يدخل الألفية الثالثة بينما نحن فى الحقيقة ما زلنا منه فى المؤخرة، أو فى أواسط الصفوف على أحسن تقدير، مستهلكين أكثر منا منتجين ، ناقلين أكثر منا مبدعين.

كتاب مصطفى النشار (وعنوانه الجدلى يذكرنا بأعمال من طراز "ضد الأميين" للقديس توما الاكوينى أو "ضد دورنج" لإنجلز) ودعوة شجاعة إلى الأصالة الفكرية والقومية والعقيدية، وثمرة عقل نجا من الوقوع فى دائرة السحر الغربى دون أن يغفل لحظة واحدة عن نواحى قصورنا فى الشرق وهو بداية أى حوار حقيقى بين الشرق والغرب. حوار الأنداد الذى يبتغى خير البشرية، ويضع التكنولوجيا فى خدمة الإنسان بعد أن كاد الإنسان يتحول إلى تابع للتكنولوجيا.

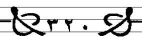
إن مصطفى النشار ولو أنه لا يذكر الناقد الانجليزى ف.ر. ليفيز إنما يسعى إلى ما سعى إليه ليفيز فى محاضراته المسماة "ثقافتان"؟ دلالة لورد سنو" حيث رد على العالم والروائى البريطانى اللورد تشارلز سنو والذى شكا فى محاضرة شهيرة له بجامعة كمبردج عام ١٩٥٩ من جهل أصحاب الدراسات الأدبية والإنسانية بالعلم والتكنولوجيا فرد عليه ليفير مصيباً بأن هذه الدراسات هى



الأصـــل وما عداها هو الفرع . إن الخيال الإنسانى الخلاق (ويمثله الشاعر كولردج) أعلى من الفكر المادى النفعى الذى يمثل الفيلسوف جيـــرمى بنـــتام. والنشار يقول بشيء قريب من هذا حين ينعى على الحضـــارة الغـــربية المعاصـــرة ســـعيها وراء القوة والمال واللذة، وتجاهـــلها للعواطف الإنسانية ومبادئ الدين والأخلاق (ص٨). هذا كتاب يحسن الجميع صنعاً بأن يقرءوه ، فهو يعالج مستقبلاً يوشك أن يعـــدو حاضراً، ويردنا إلى مراكز الثقل الواقية من كل افتتان أعمى وتطرف مادى بغيض.

د. ماهر شفيق فريد

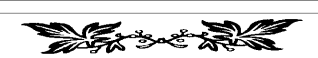
آداب القاهرة



ملحق (٣)

صور توضح احتفاء الصحف المصرية

بصدور "ضد العولمة"



د. مصطفى النشار ضد العولمة [1].

د. مصطفى النشار ضد العولمة

الكتاب الجديد للدكتور مصطفى النشار يعرض فيه لموقف فلسفي محدد يرى فيه ان الحوار بين الثقافات ينبغي ان يكون مبنيا على الاعتقاد بالتكافؤ الحضاري وليس على الاعتقاد الغربي العنصري بالتميز الحضاري. ومؤلف الكتاب كما يقول الاستاذ احمد غريب - يطرح قضيته - كمفكر جاد - من زوايا عديدة منها الفلسفي والادبي ومنها السياسي والاخلاقي، ومنها العلمي والاقتصادي والتكنولوجي.

ضد العولمة [2]

ضد العولمة

عن دار قباء صدر للدكتور مصطفى النشار أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة كتاب «ضد العولمة» الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات تقوم على موقف محدد لصاحبها يتلخص في أنه مع التسليم بآليات العولمة والاستفادة من أدواتها كالأقمار الصناعية والانترنت إلا أنه لا ينبغي أن نسلم بتداعياتها في مسخ الثقافات القومية والخصوصية الحضارية.

---

(1) الأهرام في ١٥/١/١٩٩٩م .

(2) الوفد ، ٢ / ٣ / ١٩٩٩ م .

إصدارات جديدة ضد العولمة : [٣]

إصدارات جديدة

ضد العولمة

تحت عنوان «ضد العولمة» صدر كتاب جديد للدكتور مصطفى النشار. الكتاب يعرض من خلال المقالات والدراسات لقضية العولمة وتوقف الكاتب الذى يرفض الذوبان فى الثقافة الغربية ومحاولات طمس الهوية والنظرة الغربية المتعالية ودعوة البعض الى عولمة الثقافة. كما يعكس الكتاب موقف المؤلف الذى يرى ان الحوار بين الثقافات ينبغى ان يكون مبنيا على التكافؤ الحضارى لا التمييز العنصرى.

غرابة العولمة [٤]



غرابة العولمة

ما يدعوه البعض الآن بالعولمة ليس دعوة نحو عالمية المصالح والأهداف ولا نحو مراعاة خير الكل، بل هو فى واقع الأمر دعوة الى تكريس الوضع القائم الذى تسود فيه ازدواجية المعايير، وعدم مراعاة مصالح الآخر ولا مشاعره او خصوصيته. انها عولمة غربية النشأ غربية الأهداف، غربية الأدوات غربية الثقافة، ولذلك فهى العولم ذات البعد الواحد الذى نرفضه. انها ليست الا الوجه الآخر للهيمنة وتكريس تبعية الآخرين لثقافة الغرب وتحقيق مصالح الغرب على حساب ثقافة ومصالح شعوب العالم الأخرى. هكذا يبرر د.مصطفى النشار رفضه للعولمة الذى بدأ من العنوان «ضد العولمة» ومضى عبر مقالات الكتاب الثلاثة عشر. الكتاب صدر عن دار قباء.

---

(٣) الأهرام فى ٢١ فبراير، ١٩٩٩م.

(٤) أخبار الأدب فى ١٩٩٩/٤/١١م.

ضد النظام العالمى .. مع الأصالة(٥)

ضد النظام العالمى .. مع الأصالة

د. ماهر شفيق فريد

آداب القاهرة

لم تعقم الفلسفة فى مصر - وإن فقدت الكثير - برحيل ذلك الجيل المنار من اساتذتها: جيل زكي نجيب محمود وعثمان امين وزكريا ابراهيم وتوفيق الطويل وفؤاد الاهواني وفتحي الشنيطي واضرابهم. فتحت قبة جامعة القاهرة - خمائل أكاديم - تكون جيل جديد من معلمي الفلسفة تلمع منه عدة اسماء في طليعتها الدكتور مصطفى النشار الذي اخصه بالحديث هنا وذلك بمناسبة صدور كتابه الجديد «ضد العولمة» (دار قباء ١٩٩٩)

مصطفى النشار - في ايجاز - هو الاستاذ الذي الم بتاريخ الفلسفة الغربية، ووضع كتبا كاملة عن افلاطون وارسطو تشهد بمدى عمق معرفته بالفكر الفلسفى منذ الجذور، ولكنه لم ينس - لحظة واحدة - انتماءه القومي ولا اسهام حضارته العربية الاسلامية في تطوير الفكر وتقليب النظر في ارجاء السماء والارض.

وكتاب مصطفى النشار الجديد ضد النظام العالمي «ضد العولمة» عشرون مقالة نشرت خلال السنوات العشر الماضية في عدد من الصحف والمجلات المصرية والعربية، تعالج قضايا عامة، كما تعالج مفكرين ومصلحين افرادا. فالنشار يتحدث عن موقفنا من الفكر الغربي، وعن عصر المعلومات والانترنت، وعن التنويريين العرب ورسالتهم، وعن الحداثيين العرب والعيش بين الكلمات، وعن استحالة الحوار بين حضارات الشرق والغازي الغربي، وعن اخلاق الانسان العربي بين الاصالة والتبعية، وعن دور الفلسفة في الوطن العربي ومشكلات الخطاب السياسي المعاصر. ومن بين رجالات الاسلام يختار فيلسوفا هو الغزالي، ومعلما دينيا كان ايضا ثائرا سياسيا ومصلحا اجتماعيا هو الافغاني ليخصهما ببحثين ممتعين هكذا يتكامل في كتابه التنظير والتطبيق، التجديد والعينية. ويسعى الكاتب - شأن زكي نجيب محمود وفؤاد زكريا - الى مجاوزة اسوار الاكاديمية الضيقة لكي يخاطب القارئ العادي الذي يريد ان يزداد فهما لهذا العالم الذي نوشك ان ندخل - بل لقد دخلنا فعلا - من بواباته: عالم العولمة وشبكة المعلومات الدولية (الانترنت/والحاسوب وكل ما قد يتولد عن هذه العجائب.

وعلى تنوع الآفاق التي يجول بنا مصطفى النشار في رحابها - مابين فلسفة وادب وسياسة وتاريخ واخلاق وعلم وتكنولوجيا - يظل هناك خيط موحد يربط بين هذه المقالات - انه - على حد قول المؤلف في تصديره - «موقف يرفض القفز فوق الهوية الثقافية العربية - الاسلامية - الشرقية والذوبان في الثقافة الغربية» (ص٧). فهذا كاتب يشعر شعورا قويا بان الحديث عن الحوار بين الثقافة العربية والثقافة الغربية لا معنى له مادام الغرب - حتى في اكثر احواله ليبرالية - ينظر الينا نظرة السيد الى المسود، ويعتبر - وإن لم يقل ذلك صراحة - ثقافة الغرب وحضارته هي المركز الذي تنبعث منه كل اشعة الفكر والتقدم وترتد اليه، ولاينظر الى فلسفات الشرق ودياناته الا على انها - في احسن الاحوال - تنويع طريف على المتن الاساسي: متن افلاطون وارسطو ومن تلوهما من فلاسفة الموروث الغربي.

من هذا المنطلق يرفض مصطفى النشار في مقالته «ضد العولمة» - وهى واسطة العقد والحبة المركزية في منظومة هذا الكتاب - سعي الغرب، والولايات المتحدة الامريكية بالذات، الى محو الثقافات القومية والموروثات العرقية (مثلما فعل بالهنود الحمر والانكاوالازتك) وادماجها جميعا في ثقافة واحدة هي ثقافة العم سام، حاملا لواء الشرائط والنجوم وان جوهر فكرة العولمة هوانمحاء الفواصل بين الثقافات القومية وتحول العالم الى قرية كونية واحدة تتجاوب بنفس المؤثرات في نفس اللحظة. وهذا قد حدث منذ الستينيات حين ظهرت رقائق السليكون، تلك المعجزة العلمية التي انجبت الحاسب الالكتروني وشبكة الانترنت والعاب الاتاري، وجعلت بمقدور الباحث في الصين ان يتابع احدث ماينشر في بيرو وقد يبدو هذا مستقبلا جذابا لاول وهلة، اذ اى عاقل يكره ان يرى العالم وقد توحد وزالت فيه الفروق بين ابيض واسود واصفر؟ لكن العولمة في حقيقتها - كما يوضح مصطفى النشار معنيا - ليست الا محاولة لفرض الهيمنة الغربية على العالم بأسره، وتقديم المركزية الاوروبية - الامريكية في ثوب جديد وتحت اقنعة جديدة. والرأي عندي - مواصلة لخط الافكار الذي بداه مصطفى النشار هنا - ان فكرة العولمة ليست متأثرة بالوسائل التكنولوجية الحديثة فحسب وانما هي - بالمعنى الحرفي للكلمات - ابنة هذه الوسائل، ولولاها ماكان يمكن ان يكون لها وجود. فالعلاقة بين فكرة العولمة والتكنولوجيا الحديثة علاقة جدلية بمعنى ان التأثر بينهما متواصل لاينقطع، فالفكرة تدفع الى مزيد من الابتكار التكنولوجي، والابتكار التكنولوجي بدوره يولد افكارا جديدة واعتقد - اسفا - اننا لم نأخذ من التكنولوجيا الحديثة سوى مظاهرها وقشورها دون ان نتزود بالمنهج العلمي الذي يكمن وراءها ولهذا لست متفائلا، كما يتفاءل كثيرمن اصدقائي بإدخال مناهج تدريس الحاسب الالكتروني في مدارسنا وجامعاتنا، ولا انتشار الانترنت في مجتمعنا. واعتقد انه سوف يساء استخدامها - وقد بدأ يساء فعلا - في استجلاب الثيرات الجنسية والبرامج الفاضحة والتجسس على اسرار الاخرين، تاركين جانبا كل الرصيد المعرفي الجاد الذي يمكن لهذه الادوات (فهي مجرد ادوات وليست غاية في حد ذاتها) ان تزود به الباحثين.

كذلك اعتقد ان تأثير فكرة العولمة في ثقافتنا سيكون تأثيرا سلبيا بمعنى انه سيقلل من انتمائنا القومي والحضاري، ولن يجعلنا جزءا من العالم المتقدم تكنولوجيا سواء في اوروبا الغربية او الولايات المتحدة الامريكية او اليابان سيوهمنا بأننا اصبحنا جزءا من العالم الحديث الذي يدخل الالفية الثالثة، بينما نحن في الحقيقية مازلنا منه في المؤخرة، او في اواسط الصفوف على احسن تقدير، مستهلكين اكثر منا منتجين، ناقلين اكثر منا مبدعين.

---

(٥) مراجعة د. ماهر شفيق فريد نشرتها : صحيفة الأهرام فى ١٩٩٩/٩/٢٦م

كتب أخرى للمؤلف

(١) فكرة الألوهية عند أفلاطون وأثرها فى الفلسفة الإسلامية والغربية:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤م.
- صدرت الطبعة الثانية عن مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٨٨م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٧م.

(٢) نظرية المعرفة عند أرسطو:

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥م.
- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار ١٩٨٧م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن نفس الدار ١٩٩٥م.
- صدرت الطبعة الرابعة عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ٢٠٠٠م.

(٣) نظرية العلم الأرسطية – دراسة فى منطق المعرفة العلمية عند أرسطو :

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٦م.
- صدرت الطبعة الثانية عن نفس الدار ١٩٩٥م.

(٤) **فلاسفة أيقظوا العالم:**

- صدرت الطبعة الأولى عن دار الثقافة للنشر والتوزيع — القاهرة ١٩٨٨م.
- صدرت الطبعة الثانية عن دار الكتاب الجامعى - الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٩٩٥م.
- صدرت الطبعة الثالثة عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩٨م.

(٥) **نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة - دراسات فى الفلسفة المصرية واليونانية:**

- صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة ١٩٩٢.
- صدرت الطبعة الثانية عن مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٧م.

(٦) **نحو رؤية جديدة للتأريخ الفلسفى باللغة العربية:**

- صدرت الطبعة الأولى عن مكتبة مدبولى بالقاهرة ١٩٩٣م.
- صدرت الطبعة الثانية بعنوان "نحو تاريخ عربى للفلسفة" مزيدة ومنقحة، عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

(٧) **مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية:**

- صدرت الطبعة الأولى عن دار المعارف بالقاهرة ١٩٩٥م.

(٨) فلسفة التاريخ – معناها ومذاهبها :

– صدرت الطبعة الأولى عن وكالة زووم برس للإعلام بالقاهرة ١٩٩٥م.

(٩) التفكير الفلسفى للصف الثالث الثانوى الأدبى (بالاشتراك):

– وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة، دار الغرير للطباعة والنشر ، دبى ١٩٩٥م.

(١٠) التفكير المنطقى للصف الثالث الثانوى الأدبى (بالاشتراك):

– وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة، دار الغرير للطباعة والنشر، دبى، ١٩٩٥م.

(١١) مكانة المرأة فى فلسفة أفلاطون – قراءة فى محاورتى "الجمهورية" والقوانين":

– صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧م.

– صدرت الطبعة الثانية عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

(١٢) من التاريخ إلى فلسفة التاريخ – قراءة فى الفكر التاريخى عند اليونان :

– دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧م.

(١٣) المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية:

- دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧م.

(١٤) مدخل لقراءة الفكر الفلسفى عند اليونان:

- دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٧م.

(١٥) مدخل جديد إلى الفلسفة:

- دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨م.

(١٦) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (الجزء الأول) السابقون على السوفسطائيين:

- صدر عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨م

(١٧) الخطاب السياسى فى مصر القديمة:

- صدر عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨م

(١٨) تطور الفكر السياسى القديم من صولون حتى ابن خلدون:

- صدر عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩م.

(١٩) فى فلسفة الثقافة :

- صدر عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٢٠) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (الجزء الثالث) من أرسطو حتى ماركوس أوريللوس:

- تحت الطبع.



(٢١) بين قرنين معاً إلى الألفية السابعة :

- صدر عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٢٢) ذو النون المصرى – رائد التصوف الإسلامى :

- صدرت الطبعة الأولى، عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

(٢٣) على بن رضوان وفلسفته النقدية .

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

(٢٤) زكى نجيب محمود والحوار الأخير :

- صدرت الطبعة الأولى عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

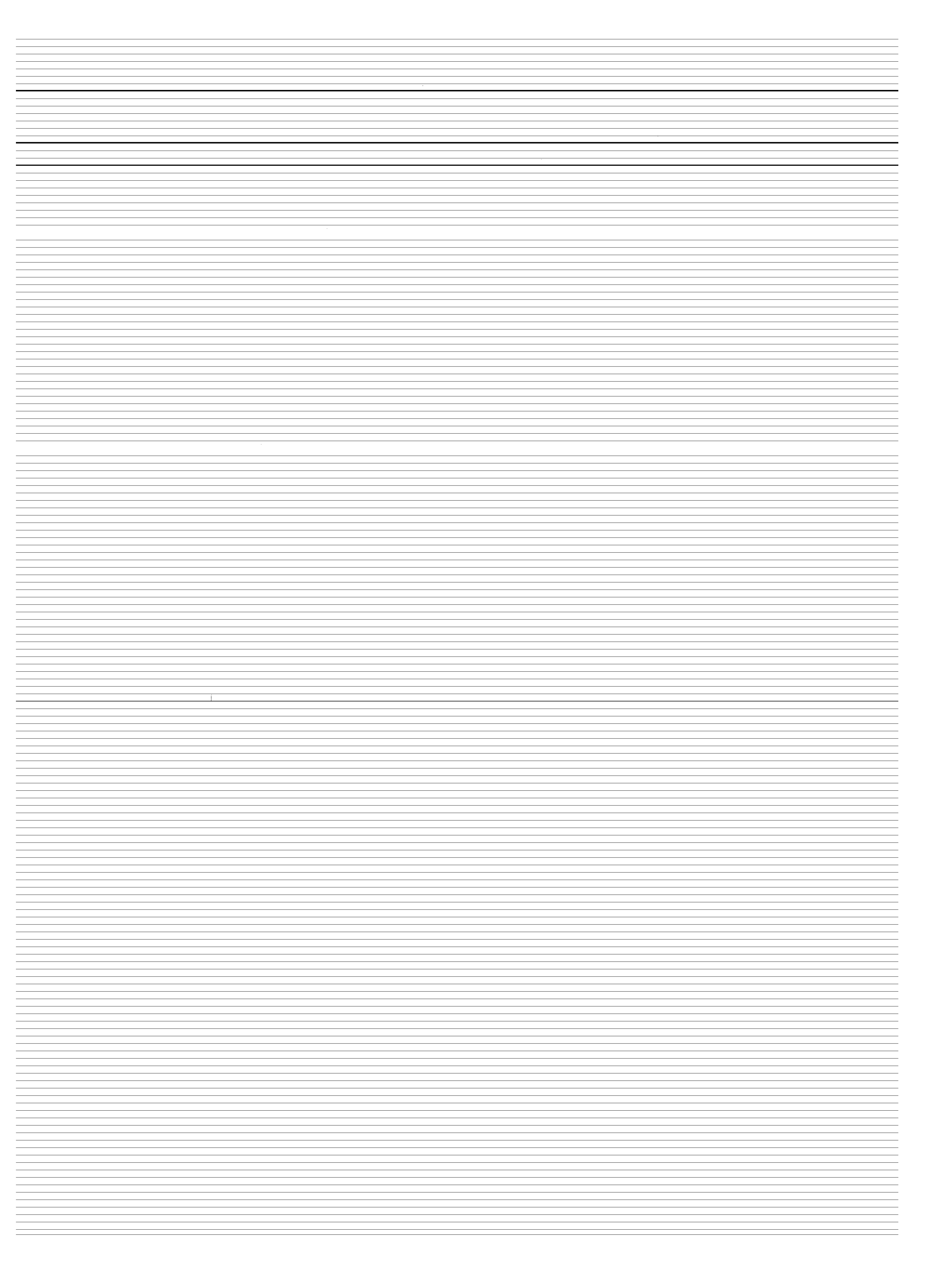
(٢٥) تحليل الخطاب بين أرسطو وابن رشد :

- تحت الطبع.

(٢٦) تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى (الجزء الثانى)

السوفسطائيون – سقراط – أفلاطون

- صدر عن دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م



الفهرس